هل التراث..؟!

د. علي عقلة عرسان

هل التراث مجرد نفق مظلم يمتد بين باصرة التاريخ المعاصرة وذاكرته القاصرة ، يدخله الباحث فيه أو العاشق له ، فيضيع في متاهاته ويزيد من تعقيد تلك المتاهات ، حتى ليخال المرء ألاّ خروج منه بعد دخول فيه ، وأنه ثاني المحبسين للمبصر وثالث المحابس لمن فقد البصر ، وألاّ لقاء مع العصر بعد ولوج أبوابه التي تفتح سجن الماضي ؟! وهل هو نوع من اعادة انتاج الماضي واجتراره ، دون تداخل أو تفاعل يذكر مع الأداة العصرية المنتجة والمادة التي تدخل دائرة الانتاج ؟!

وهل هو مما يستقر في مدى بعيد عن الحاضر ، قد تجاوزته حاجة الناس ، ولم يعد نافعاً ولا ضرورياً ، ولا مما يصرف فيه الجهد ويستثمر فيه الزمن ؟!

وبالنسبة لنا نحن العرب ، في هذا القرن العشرين الذي يلفظ أنفاسه ، هل التراث مجرد أوراق صفراء حكمتنا وتحكّمت بنا ، وألقتنا خارج العصر وكل عصر ، فكانت لنا قيداً وقوقعة ومنفى أكثر منها جذراً حياً ، ومستنبتاً غنياً ، ومثابة قوية ، ومستجماً للعقل والذاكرة والروح ؟!

وهل يكون خلاصنا مما نحن فيه من تخلف وخلف ، بنبذ تلك الأوراق الصفراء التي هي ـ حسب رأي أهل «معرفة ورأي» ـ مصدر كل تخلف وخلف ؟!

وهل لا يقدّم لنا تراثنا ، لدى عودتنا اليه ، إلا :

١ ـ متاريس « لسلفية متحجرة » ضاربة ، ضاربة في عمق الصحراء والماضي الرمادي ، وفي مدى الجهل بكل مفاتيح التقدم والمثاقفة والانفتاح ، والتجاهل لها ؟؟!

٢ ـ ومناهل للأصولية التي تتجذر في أصول « ما عادت هي الأصول المقبولة والمنقذة » ، في زمن تعصف فيه بالناس رياح المتغيرات وعواصف عصر التقانة والمعلوماتية ، وغيَر الأحوال وتلوناتها بألوان اللحظة ، تلك التي تشهد في كل ثانية من ثوانيها تقدماً علمياً ، يرافقه أو ينتج عنه تغيير أو دفع باتجاه التغيير ، حتى فيما ثبت من أصول وفروع نبتت على تلك الأصول، فضلاً عن كون تلك الأصول ـ من وجهة نظر «أهل رأي ونظر» ـ تنتج «ارهاباً » غير مقبول ، في عصر أصبحت فيه حماية الناس من الارهاب ومن العدوان على العنصرية « والديمقراطية » مسؤولية دولية ؟!!

٣ ـ عودة بالناس الى ما وراء الزمن ، وادارة الظهر لكل ما في واقعهم وزمانهم من معطيات وحقائق ومعلومات • وجعلهم يعيشون في دوامة مقولات لا تدفع باتجاه التلاؤم مع واقع جديد يفرض نفسه على العالم ، واقع لا يستطيع أن يتجاهله من يريد أن يعيش زمانه ، وأن يحتل موقعاً في ذلك الزمان •

٤ ـ هرباً من مواجهة الواقع وأسئلته وأزماته ومشكلات أناسيه ، ونوعاً من الردود على معطيات : المكان والزمان ، هنا والآن ، بأقوال ووقائع ومعالجات واقتباسات واستنباطات وقياسات وفصل خطاب من : كنا وكان ، لا ينير ظلمة ، ولا يرفع غمة ، ولا ينقذ أمة ، وهو في « نهاية المطاف » لا يدفع عنا عدواً ، ولا يستنقذنا من جوع ، فما الذي يفيدنا اليه رجوع اذن ؟!

تلك أسئلة محمولة على نعوش ألسنة وعقول ، تجول في فضاء الوقت والاعلام ، وتغزل شرانق من كلام ، تدفعها أفواه مدججة بالاتهام ، في وجوه من يأخذون من تراث أمتهم بقبس ، ويهتمون بالتواصل معه وبتصاعد تأثيره ليبقى عرق النسغ موصولاً ومليئاً بمقومات الحياة ، وسائغاً وغنياً ، تروح فيه وتجيء قوافل «الجينات» محملة بقيم ومقومات هوية تصل ما بين حبيبات الجذور المنتشرة في عمق تربة الثقافة ، وبين براعم تتشكل في نهايات الأغصان الدقيقة من شجرة الأمة ، إبّان تشكلها وتفتحها ، في آخر دقيقة من فجر كل يوم نحياه مع تدفق الحياة من حولنا، وتدفقها في دمنا •

وتلك الأسئلة التي تلجّ بها ألسنة تقطر ذلقاً أسود ، لا ينفع معها تجاهل لها ولا إغضاء عنها ، لأن أصحابها يظنون عندئذ أنهم حبسوا الآخرين في سجون منطقهم ، وأن حججهم أتت على كل الحجج ، تلقفها لقفاً ، فعل عصا موسى إذ ألقيت ، بسحر سحرة فرعون (؟!؟) وما ذلك بصحيح من جهة ، ولا هو جائز من جهة أخرى ، ولا هو مما يمكن أن تشق له الطرق ليستقر في النفوس وينمو في شعابها بأمان واطمئنان •

فالتراث ليس نفقاً مظلماً يضيع فيه الهداة ، بل هو ـ من بعض الوجوه ـ النور الذي تجده في نهاية نفق مظلم يضعك فيه الجهل أو العداة .

ولا يكون التراث متاهة إلا لمن يغرق في شبر ماء ويضل عن رؤية الحق والسماء ، ويبحث عن سفاسف الأمور التي يغص بها كل عصر من العصور ، ولا يكون من الهداة من لا يملك بصراً أو بصيرة ، ولا يعرف الفرق بين شخصيته والحصيرة ، إنما يكون ذلك من صنف الأدعياء ، ويكون « هديه » نوعاً من التوكؤ على عصا من توهم تنغرس في مهاوي الضلال والضباب .

والتراث العربي ، سواء طال عمره وامتد الى عهد سومر وآكد ، والعموريين والآراميين وصولاً الى العرب الجاهليين ، أو انطلق ـ عند بعض ذوي الرأي والرؤى ـ من رسالة الاسلام وما أقرته من عادات الجاهلية وتداولته من آداب أهلها ، وما سجلته الأقلام والعقول بعد ذلك من آراء واجتهادات وابداع وابتداع ، فهو جزء من شخصية الأمة ، والعمود الفقري لجسمها الثقافي ، وهو الرئة التي يلتقي في حويصلاتها قديم بجديد ، وتحدث فيها التنقية من خلال تفاعل حيوي يخدم الحياة ويؤدي الى استمرارها .

وسواء كتب على حجر أو رق ، ووصل إلينا مصفراً أو مخضراً فهو جزء من تكويننا الذي لا يعيبنا بل يشرفنا ، ولا يعوقنا عن التقدم إلا بمقدار ما نكون معوقين أصلاً وغير قادرين على امتلاك الرؤية والمنطق والقدرة العقلية التي تغربل الآراء والأفكار والأقوال ، وتفصل القمح عن الزؤان بدراية واقتدار ، وتأخذ ما ينفع الناس لتبذره من جديد في نفوس خصبة ، وتلقي الغلث بعيداً عن دروبهم ، وتشق لهم تلك الدروب .

وما عطاء الاسلام في ذلك التراث إلا مشكاة النور التي تهدي وتعصم ، وما هو من شخصية العرب وانتمائهم القومي إلا الصميم من الصميم ، وما اغناؤه واشفاؤه وارواؤه للقلب والعقل والروح ، بتوازن فريد مديد بين المادة والروح ، إلا من معجزاته ومميزاته التي صمدت لكل امتحان في كل زمان ومكان ، وسقطت عند قدميه الادعاءات والنظريات التي تشمرخت حتى انفجرت في هذا الزمان .

التراث العربي خيوط من وعي ومعرفةوتجربة وابداع وانتماء وخصوصيات بشرية وعقلية واجتماعية وتاريخية من كل لون ، تداخلت مع الآخرين وتفاعلت معهم وتمايزت عنهم في كل مجالات العمل والأمل والفكر والحياة ، وهي تلك التي تجدل حبال التواصل عبر الزمن بين العرب منذ أن تمايزوا عن غيرهم وتكاثروا في أرضهم وامتلكوا قوامهم ومقومات حضورهم ، الى يومهم هذا ، بكل ما لهم وما عليهم ، وهم لا يستطيعون خروجاً من جلدهم ولا يريدون ، كما أنه لا يعيبهم ذلك الجلد ، وعليهم أن يزيلوا كل طفح عليه ، وكل ما علق به من درن لا يليق بهم وبمستقبلهم بين الأحياء ·

وبمقدار ما ننفتح اليوم على العلم في تطوره ومناهجه وانجازاته وتحديداته الدقيقة ، وعلى المعلوماتية المتطورة بوسائلها وامكاناتها وآفاق تقدمها، وعلى التقانة بقدراتها وضروراتها وتطبيقاتها وارتياداتها وما تيسره لنا من صعب ، ونستفيد من ذلك ونتواصل معه باحترامه واقتدار عليه ودراية به ، بمقدار ما نقدم لأمتنا ولتراثنا ، المتوحدين في كيان عضوي متكامل ، مقومات التقدم والانتصار في معركة البقاء الحديثة ، فبالعلم والعمل والايمان تبنى أسس الحضارات والأمم والشخصيات القادرة على البقاء والتأثير والريادة ·

ولا تقع على التراث مسؤولية الذين يعيشون على الاجترار ، ولا يعرفون طرق الابداع والتواصل الخلاق مع معطيات الماضي والحاضر ، ولا تتركز فيه جراثيم مادة تحول كل من يتعامل معها الى مجتر غير قادر على الابداع والرؤية الجديدة المتجددة ·

ومردود على القائلين قولهم إن المجتهدين الأوائل منذ عصر التدوين قيدوا الفكر وقيدوا الاجتهاد ، وأوقعوا كل مجتهد في حبائل سجن النص · فاغلاق باب الاجتهاد ليس فرضاً ولا سنة ولم يجيء بنص ذي قدسية من أي نوع ، وانما هو فعل بشر « مجتهدين » لدنياهم ، في أمور شرعية أو سياسية تحمي مصالحهم ، أو هو أمر سلطة من سلط العرب والمسلمين رأت أن تغلق باباً تأتيها منه الريح لتريح وتستريح ، بعد أن شعرت ببعض الضنك والأذى والتعب في عصر من العصور ، ربما كانت فيه مصلحة أناسي ذلك العصر أو ذلك القطر بحاجة الى شيء من ذلك لبعض الوقت ·

وعلى ذلك فان التراث ، والنصوص الاسلامية من التراث، والنصوص المقدسة من النصوص الاسلامية لم تأمر ولا تأمر باغلاق أبواب التفكير والتدبر وإعمال العقل في كل الأمور، لأن ذلك يخالف جوهر الأمر الالهي الذي تضمنه نص القرآن الكريم في أكثر من موقع والذي حث على التفكير والعلم والتدبر والتأمل والتبصر ٠٠ الخ ٠ وقال : « **يامعشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان** » والسلطان هنا علم وبرهان ومنطق وحجة ووسيلة مقبولة قادرة على تجاوز كل الحجب والمعوقات لتفتح باب الارتياد والخلق والوصول الى ما ليس قائماً في حقل الرؤية البشرية «العصرية» ولا هو معروف أو متجاوز ٠

فالتراث من هذا المنظور يحث على المجاوزة بأصول ، وعلى الأخذ بكل المناهج والسبل والأدوات والوسائل التي تمكن من تحقيق تقدم وانعتاق وتجديد، في إطار استثمار الجهد والمادة والزمن لصالح الانسان والحياة ٠

والتراث العربي - الاسلامي يرتكز على أصول هي من أركانه أو في الصميم من تلك الأركان ، وجوهر ما عليه « احتجاج » من أهل « معرفة ورأي » ينصب على أصول اسلامية تحيي « أصولية » تقود الى « الارهاب » الذي يزعج سلطاً عربية وحكومات غربية ، ويؤدي الى ممارسات غير مقبولة ولا منسجمة مع تعاليم الاسلام السمح ، ولا مع قيم التراث ومقومات الشخصية العربية التي نسجتها عبر العصور عادات وأعراف واعتقادات وتقاليد راسخة في جذرها الانساني والأخلاقي ٠

وفي هذا المجال أحب أن نفرق تفريقاً جذرياً دقيقاً وعميقاً وحاسماً ، بين جوهر الاسلام وفعل المسلمين ، فليس كل فعل يقوم به مسلم هو بالضرورة من جوهر الاسلام وفي صلبه ، وليس كل ما يعترض عليه الغربيون والساسة العصريون والمفكرون الماديون من فعل يقوم به متمرد على المركزية الثقافية الغربية وأهدافها ، أو على السياسة الرسمية ومحرماتها ، أو على الالحاد ودعاته ، والمادية وبناتها وهداتها وأتباعها ، أو كل مؤمن بما يرون الخروج عليه من ايمان ، أو كل مخالف لمجموعة من المفكرين أو المثقفين أو المنظرين أو المسيسين ، هو بالضرورة على خطأ ويجب أن ينصاع للأوامر الصادرة عن مراكز ذات

عصمة وقداسة من نوع آخر • فذاك هو فعل« الارهاب » والمصادرة والقتل في الظلام ، وهو فعل مرفوض • وليس كل فعل يقوم به مسلم هو بالضرورة « ارهاب » اذ لا بد من معايير ومرجعيات تحكم الأفعال والأقوال والممارسات حتى لا نقع دائماً في أحابيل موازين الأقوى ومعاييره وازدواجية مكاييله وخدمة مصالحه •

وليست العودة الى الأصول ، في كل عقيدة أو مذهب أو نظرية فكرية أو فلسفية هي عودة محكوم عليها ، الا اذا ثبت على مر الزمن وبمعايير متعارف عليها أن تلك الديانة أو العقيدة أو النظرية أو الفلسفة هي في جوهرها هدامة وغير انسانية ولا تورث الا الفتنة ولا تقدم الا المجرمين والخارجين على الشرائع والتشريعات والقوانين والأنظمة والأعراف •

ولم ينفذ ذلك في هذا العصر للأسف حتى بالنسبة لنظريات ثبت أنها هدامة وغير انسانية ومدانة من قبل المجتمع الدولي مثل العنصرية والصهيونية على الأقل • بل على العكس من ذلك ، ارتفعت أسهم العنصرية الصهيونية وأصبحت تتهم الآخرين وتفصّل لهم الوجوه والأثواب والتهم والمواصفات والتسميات • وليست الأصول الاسلامية مما يعيب أو يؤدي الى الانحراف ، أو مما يقود الى ممارسات اجرامية ، حتى يتم ربط كل عودة لأصول الاسلام بالارهاب ، وتصبح الأصولية تهمة يحاسب عليها العرف والقانون « والفكر الحر » (؟!؟) ، وعليه فان ممارسة « تيارات الاسلام السياسي » ليست هي بالضرورة ممارسة للأصولية الاسلامية أو عودة لأصول العقيدة وترجمة عملية شرعية لها بكل الدقة والأمانة والوضوح والحكم النهائي ، وليست كلها بالضرورة « ارهاباً » أو خروجاً على القانون !! فمقاومة اسرائيل العنصرية المحتلة لأرض العرب والمسلمين ليست ارهاباً بل مقاومة مشروعة وجهاداً يحض عليه •

وبالتالي فان هذا الجزء من التراث الاسلامي وهذا الكيان النهائي من التراث العربي الاسلامي لا ينبغي أن يؤخذ بجريرة فعل فاعلين بمجرد استنادهم الى انتماء سياسي يدعي بدوره أنه يستند الى الاسلام • ولا يجوز أن ينسحب ما يطلق عليهم من حكم ذي طبيعة سياسية على جوهر الشخصية العربية الاسلامية ، وعلى التراث العربي الاسلامي ، وعلى جوهر العقيدة الاسلامية •

أما « السلفية المتحجرة » التي يقول فريق من ـ أهل معرفة ورأي ـ بأنها من نتائج تعلق بالتراث ، وبالتراث الاسلامي تحديداً ، فهي قضية تحتاج الى تمحيص تكون فيه استفاضة ، وسأكتفي بمجرد طرح بعض الأسئلة على عتبة ذلك ٠

- **هل « السلف » المنظور اليه باحترام وتقدير في كل أمة من الأمم هو بالضرورة قدوة غير صالحة تعيق تقدم الناس وتمنع رياح العصر والحضارة من الهبوب ؟!**
- **وهل الشعوب التي تقدم رجالاً قدوة بوصفهم منائر ونماذج يقتدي بفعلها وسلوكها وقيمها النشء هي على ضلال في ذلك تربوياً وعلمياً وعملياً ؟!**
- **وهل كل سلف متجاوز من قبل الخلف حتى تصبح العودة اليه قيداً ، ويصبح عدم تجاوزه عملياً قيداً من القيود أيضاً ؟!**
- **وهل نتساوى نحن العرب والمسلمين مع غيرنا في هذه « النظرة ـ القاعدة » أم أنها مفصلة لنا ومحكوم بها على سلفنا فقط ؟!**
- **وهل كل صالح من فعل أو قيمة أو شخص أو فكرة أو قول أو سلوك هو بالضرورة قيد وسبب تخلف وصفة تحجر ؟! أم أن ذلك محصور ـ بوصفه تهمة ـ بالعرب المسلمين ، وموجه اليهم من قبل أعدائهم والمتحالفين من أبنائهم مع أولئك الأعداء ، أو الواقعين تحت تأثيرهم ، والسامدين في ظلال تبعية لثقافتهم ، عرفوا ذلك أو لم يعرفوا ؟!؟٠**

ان هذا الأمر يحتاج كما قلت الى شيء من التمحيص باستفاضة ، وليس هذا هو مجاله الآن ، ولا بد لذلك من عودة بعون الله ٠

دمشق في ٢٦/٨/١٩٩٤

* * *

ابن طفيل
ورسالته الفلسفية «حي بن يقظان» والكتب الطوباوية

د. عبد الكريم اليافي

إذا أتيح للمرء أن يزور اسبانيا ويطوف في ربوع الأندلس يسترعي انتباهه أشياء كثيرة ٠ منها هذا التشابه الكبير بين سكانها على الضفة الغربية من البحر المتوسط وسكان بلادنا على ضفته الشرقية في الشكل والطباع وفي هذه البشاشة العذبة المترقرقة على الوجوه والنظرة المتفهمة الحلوة في العيون والابتسامة المتمعة على الشفاه ٠ هذا عدا التشابه في جودة الاقليم وجمال الطبيعة واشتباك الروابي والجبال والسهول المكسوة بالكروم وأشجار الزيتون والبرتقال والرمان والبيوت التي تنتصب فيها عرائش الياسمين والفل والنسرين حتى يكاد العربي الشامي يحسب نفسه بين أهله وذويه لولا اختلاف اللسان ٠

ولكنه حين يؤم بعض الآثار العربية الباقية الآبدة ينسى هنالك الحاضر كله ويعيش مدة في جو من الأحلام الحلوة الماضية ٠ بل ينسى الزمان قاطبة أمام روعة الفن العظيم في جامع قرطبة ولا سيما الزخرفة العجيبة في محرابه ، وتلقاء الهندسة البارعة في منارة اشبيلية ، وازاء الصنعة البديعة الفائقة في قصور الحمراء بغرناطة ٠ تلك الآثار الفنية الرائعة كافحت الحروب والفتن وصروف الزمان في الأحقاب المتطاولة وما زالت تنتصب لسانا ناطقاً بعظمة الحضارة البديعة التي تعالت أركانها وتألقت أنوارها في الأندلس ٠

بيد أن العربي وهو يتأمل مجالي الفن هنالك لا يلبث أن يتجاوز تلك الآثار الشاخصة فيتذكر الآثار الفكرية والأدبية الكثيرة التي هي من ثمرات تلك الحضارة والتي لا تقل روعة وعظمة وعلواً وابداعاً عن شأو فن العمارة والزخرفة ٠

يطوف العربي حول تلك الأركان وتطوف في سماء فكره ألوف من أسماء الفلاسفة والمفكرين والعلماء والشعراء والأدباء والفنانين والزجالين والمبرزين في كل ميدان • هؤلاء الذين كانوا فضلاً عن عبقرياتهم سبباً كبيراً من أسباب وصول الحضارة العربية الاسلامية الى أوربة وبزوغ شمسها عليها من المغرب بعد بزوغها من المشرق •

ولا شك أن الفيلسوف العربي أبا بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي الذي عاش في القرن السادس الهجري أو الثاني عشر الميلادي يأتي في طلائع أولئك المفكرين الفلاسفة • وإذا كان لمكان الولادة من أثر في اعتدال المزاج ورقته وصفاء الفكر فمن المناسب أن نذكر أن ابن طفيل ولد في وادي أش قريباً من غرناطة • ويقال أش بفتح الهمزة والشين مخففة وربما مدت الهمزة وهي مدينة كثيرة المياه ينحط نهرها من جبل الثلج وهو شرقيها وهي على ضفته ، كثيرة الفاكهة كالتوت والأعناب والزيتون وغيرها كما تنموحولها أشجار الشاهبلوط، وقد يطلق وادي أش على المدينة وعلى ما يجاورها من غياض وبساتين • نهرها ماؤه النقي ألذ على الظمأ من السلافة للنديم وحصاه لؤلؤ وفيروز ومرجان ترتاع الصبايا الغرائر عند تلمحها إذ يتوهمن أن عقودهن انفرطت فيتلمسن نحورهن كما وصفت الشاعرة الأندلسية حمدة بنت زياد ذلك الوادي الوارف حين كانت تختلف إليه وقد تستحم في غدرانه هي ورفيقاتها • وذلك في الأبيات الرشيقة الرقيقة المنسوبة اليها والتي يحلو دائماً ترديدها :

وقانا لفحة الرمضاء واد	سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا	حنوّ المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا	ألذ من المدامة للنديم
تروع حصاه حالية العذارى	فتلمس جانب العقد النظيم
يصدّ الشمس أنى واجهتنا	فيحجبها ويأذن للنسيم

ولد ابن الطفيل في إحدى السنوات العشر من (٤٩٥ هـ ـ ١١٠١ م) الى (٥٠٥ هـ ـ ١١١١ م ؟) وتوفي في نحو الثمانين من العمر (٥٨١هـ ـ ١١٨٥م) • ونشأ محباً للعلم والثقافة فدرس اللغة والأدب والشعر والفقه وبقية العلوم

الدينية كما درس العلوم العقلية واشتهر خاصة بالطب والرياضيات والفلك والموسيقى والفلسفة وتأثر ببحوث أبي بكر بن الصائغ المعروف بابن باجه معاصره وإن لم يلق شخصه كما تأثر بأمثال ابن باجه من فلاسفة المغرب والمشرق • وألف بعض الرسائل الفلكية والفلسفية ولكن الزمان والفتن أتت عليها ما عدا واحدة منها تبوأت مكانة كبيرة في عالم الفكر وكان لها أثر عميق في قرّائها بأصلها العربي أو بترجماتها المتعددة ، وهي رسالة « حي بن يقظان » التي هي موضوع هذا البحث • كذلك قرض الشعر وقد وصلنا من شعره القطع الصغيرة التي تنمّ على تمكن من النظم وعلى سليقة طبيعية طيبة وعلى اتجاه فلسفي وروحيّ عميقين •

ومن شعره هذه القطعة الرقيقة المؤثرة الموجهة :

يا باكياً فرقة الأحباب عن شحط … هلا بكيت فراق الروح للبدن
نور تردد في طين الى أجل … فانحاز عُلْواً وخلّى الطين للكفن
يا شدّ ما افترقا من بعد ما اعتلقا … أظنها هدنة كانت على دَخَنِ
ان لم يكن في رضا الله اجتماعهما … فيالها صفقة تمت على غَبَنِ

وقد نبه أمره وعلا شأنه في عهد دولة الموحدين التي أطلقت حرية الفكر وشجعت البحوث الفلسفية الى أن صار طبيب الأمير يوسف أبي يعقوب بن عبد المؤمن ونديمه ووزيره • رأس هذا الأمير دولة الموحدين بين ٥٥٨ هـ — ١١٦٣ و ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م • وكان ابن طفيل في سن الستين من عمره أو تجاوزها ، وقد اكتمل معرفة وحكمة • وهكذا نجد أن الحكم هذه المرة يمد يده الى الحكمة فيتعاونان ويتشاوران • وما أصوب اللغة العربية حين اشتقت الحكم والحكمة من أصل واحد • بل الحكم في الأصل الأول معناه الحكمة • ومن الطبيعي أن يقرب ذلك الأمير رجل عصره في الطب والفلسفة فلقد كان له ولع بتقريب أهل العلم وبجمع الكتب المتنوعة •

ذكر عبد الواحد المراكشي عنه في كتابه « المعجب في أخبار المغرب » أنه لم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر الى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب •

وكان ابن طفيل مثل مليكه في محبة المفكرين والعلماء والفلاسفة وتقريبهم من القصر والعناية بهم • كان من جملة من قربهم من الأمير وعرّفه بفضلهم ومواهبهم الفيلسوف الكبير القاضي ابن رشد (٥٢٠/١١٢٦ – ٥٩٤/١١٩٨) •

قال عبد الواحد المراكشي في كتابه « المعجب » عند كلامه على ابن طفيل متحدثاً عن علاقته بالملك الموحدي : « ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبهه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم • وهو الذي نبه على أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد • فمن حينئذ عرفوه ونَبُهَ قدره عندهم » •

تقريب ملك الموحدين لابن رشد مهم جداً في تاريخ الفلسفة الانسانية وفي تاريخ انتقال الحضارة الى أوربة • فلا بأس في أن نقف بعض الشيء عند هذه المرحلة ذات الشأن والخطورة ، ولا بأس في أن نتبين مكانة ابن رشد فيها • تتابع المراكشي ينقل كلام تلميذ ابن رشد أبي بكر بندود بن يحيى القرطبي واصفاً لقاء أستاذه لأمير الموحدين • وكان هؤلاء يطلقون على ملوكهم لقب أمير المؤمنين : « قال : سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرة : لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبا بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما • فأخذ أبو بكر يثني عليّ ويذكر بيتي وسلفي ، ويضم بفضله الى ذلك أشياء لم يبلغها قدري • فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال لي : ما رأيهم في السماء – يعني الفلاسفة – أقديمة هي أم حادثة ؟ فأدركني الحياء والخوف • فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة • ولم أكن أدري ما قرّر معه ابن طفيل • ففهم أمير المؤمنين مني الرَّوْعَ والحياء • فالتفت الى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها ، ويذكر ما قاله أرسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ، ويورد احتجاج أهل الاسلام عليهم • فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين في هذا الشأن المتفرغين له • ولم يزل يبسطني حتى تكلمت ، فعرف ما عندي من ذلك • فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنية ومركب • »

ويضيف المراكشي أيضاً :

« وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه قال : استدعاني أبو بكر بن طفيل

يوماً فقال لي : سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطو طاليس أو عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غموض أغراضه ، ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرّب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لقَرُبَ مأخذها على الناس • فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل • وإني لأرجو أن تفي به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك الى الصناعة • وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كَبرة سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي الى ما هو أهم عندي منه • قال أبو الوليد : فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطو طاليس • »

كان ابن رشد في الثامنة والثلاثين لما بويع أبو يعقوب يوسف الأول ، أي في تمام القوة والتبحر في العلوم وتحفز الفكر • قد ألف كتاب «الكليات في الطب» الى جانب علومه الواسعة في اللغة والفقه والحديث وعلم الكلام والفلسفة • فلما عهد ملك الموحدين اليه في تفسير كتب أرسطو المعلم الأول وتلخيصها وشرحها أقبل عليها وهو الكفيّ القدير على ذلك. وهكذا كانت رغبة الملك في الازدياد من العلم هي التي حملت أبا الوليد على تلخيص ما لخص وشرح ما شرح من كتب الحكيم اليوناني كما روى هو عن نفسه •

ولما عكف ابن رشد على تلخيص كتب أرسطو المترجمة وجد أن آراءه قد امتزجت بغيرها مما جاء في الفلسفة الأفلاطونية والفلسفة الأفلاطونية الحديثة أو في شروح أرسطو نفسه • لذلك عمد الى تجريد أقواله تجريداً دقيقاً والى شرحها فكان أكبر الشراح فهماً لأرسطو وايضاحاً لآرائه • وشروحه هذه ثلاثة أنواع : فهي اما جوامع واما تلخيصات واما شروح مطولة • في الجوامع يهمل النص ويعرض موضوع الكتاب وبحوثه • وفي التلخيصات يورد النص الأصلي بشكل واضح ويعرض آراء المفسرين ويناقش ويرجح. وفي الشروح المطولة يورد النص الأصلي مستقلاً ثم يفسره ويعلق عليه ويناقش المسائل التي يثيرها النص ، ويعرض فيها رأيه الخاص • وقد ترك في ثنايا شروحه نظاماً عقلياً متماسكاً هو الفلسفة الرشدية ، لها خصائصها ، تقف الى جانب الفلسفة الأرسطوطاليسية وتشدّ أزرها • ونظراً لهذه الشروح الدقيقة دعي ابن رشد بالشارح وأحياناً بالشارح الكبير •

أشد ما تتسم به فلسفة ابن رشد اتجاهها العقلي • وقد ترجم أكثر كتبه الى اللاتينية • بدأت ترجمتها منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي • فانتقلت آراؤه الى الغرب وفهمها الذين ينشدون العلم والفلسفة كل حسب استيعابه وميوله • فنشأ في ذلك الوقت تيارات فكرية وسمت بالرشدية اللاتينية • وهي وان انتسبت الى ابن رشد لم تكن التعبير الدقيق عن آرائه • بيد أنها تدخل في نطاق الفلسفة الأرسطوطاليسية • وكان الغرب في حاجة اليها لاتجاهها العقلي فأفاد منها الكثير من علماء ومفكرين • بل انتحلوا قسماً منها. وكان لها أثر عميق في يقظة الغرب كما كانت حافزاً على البحث والتمسك بالبرهان • يضاف اليها طرائق الملاحظة والاستقراء والقياس والتجريب التي امتازت بها الحضارة العربية الاسلامية •

* * *

ويطيب لنا الآن أن نلخص قصة حي بن يقظان ثم نعلق عليها تعليقات مناسبة. ونحافظ في التلخيص على أكثر عبارات المؤلف •

* * *

حي بن يقظان انسان تكوّن أو نشأ في جزيرة من جزائر الهند التي تحت خط الاستواء • في تكونه ونشوئه روايتان :

الأولى أنه ولد من غير أب ولا أم • وذلك « أن بطناً من أرض تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين حتى امتزج فيها الحار بالبارد والرطب باليابس امتزاج تكافؤ وتعادل في القوى . وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة جداً • وكان بعضها يفضل بعضاً في اعتدال المزاج والتهيؤ لتكوّن الأمشاج • وكان الوسط منها أعدل ما فيها وأتمه مشابهة بمزاج الانسان • فتمخضت تلك الطينة وحدث فيها شبه نفاخات الغليان لشدة لزوجتها ، وحدث في الوسط منها نفاخة صغيرة جداً منقسمة بقسمين بينهما حجاب رقيق ممتلئة بجسم لطيف هوائي في غاية من الاعتدال اللائق به • فتعلق به عند ذلك الروح الذي هو من أمر الله وتشبث به تشبثاً يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل ، اذ قد تبين أن هذا الروح دائم الفيضان من عند الله عز وجل وأنه بمنزلة نور الشمس الذي هو دائم

الفيضان على العالم ... فلما تعلق هذا الروح بتلك القرارة خضعت له جميع القوى وسجدت له بأمر الله في كمالها . فتكوّن بازاء تلك القرارة نفاخة أخرى منقسمة الى ثلاث قرارات بينها حجب لطيفة ومسالك نافذة وامتلأت بمثل ذلك الهوائي الذي امتلأت منه القرارة الأولى إلا أنه ألطف منه ... وتكون بازاء هذه القرارة من الجهة المقابلة للقرارة الثانية نفاخة ثالثة مملوءة جسماً هوائياً إلا أنه أغلظ من الأولين وسكن في هذه القرارة فريق من تلك القوى الخاضعة وتوكلت بحفظها والقيام عليها فكانت هذه القرارات الأولى والثانية والثالثة أول ما تخلّق من تلك الطينة المتخمرة على الترتيب الذي ذكرناه » .

يشرح ابن طفيل في هذا النص نشوء المضغة وتخلّقها ويستمر في بيان تكوّن مختلف الأعضاء من قلب ودماغ وكبد متضامناً بعضها مع بعض بحيث يتكفل القلب بالحرارة والدماغ بالحس والكبد بالغذاء . وانما حصل هذا التضامن بنشوء مسالك وطرق بعضهما أوسع من بعض بحسب ما تدعو اليه الضرورة فكانت الشرايين والعروق وارتبط بعض الأعضاء ببعض على شكل مراتب من رئيس ومرؤوس .

ولما كمل خلق هذا الكائن على حسب ما وصف الطبيعيون خلقة الجنين في الرحم وتمّت أعضاؤه وصار في حد خروج الجنين من البطن بعد أن جللته أغشية انشقت تلك الأغشية بشبه المخاض وتصدع باقي الطينة إذ كان لحقه الجفاف . « ثم استغاث ذلك الطفل عند فناء مادة غذائه واشتداد جوعه فلبته ظبية فقدت طلاها » .

نلاحظ في هذا الوصف كيفية نشوء الحياة الانسانية على وجه الأرض وهي تعاون ما كانوا يسمونه الأركان الأربعة وهو امتزاج الحار (النار) والبارد (الهواء) والرطب (الماء) واليابس (التراب) في سبيل اعتدال المزاج والتهيؤ لتكون الأمشاج كما يتصور الأطباء الطبيعيون القدماء ، ثم اتصل الروح كشعاع الشمس الفائض بذلك المزاج وتلك الأمشاج . وعند هذا الاتصال والتعلق استجابت جميع القوى التي سلف ذكرها وخضعت للروح وكأن تلك القوى كانت بمنزلة الملائكة التي سجدت لأبينا آدم .

الرواية الثانية في ولادة حي بن يقظان أنه « كان بازاء تلك الجزيرة جزيرة عظيمة متسعة الأكناف كثيرة الفوائد عامرة بالناس يملكها رجل منهم شديد الأنفة والغيرة • وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر فعضلها ومنعها الأزواج إذ لم يجد لها كفواً • وكان له قريب يسمى يقظان فتزوجها سراً على وجه جائز في مذهبهم المشهور في زمنهم ، ثم إنها حملت منه ووضعت طفلاً • فلما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها وضعته في تابوت أحكمت زمّه بعد أن أروته من الرضاع وخرجت به في أول الليل في جملة من خدمها وثقاتها الى ساحل البحر وقلبها يحترق صبابة به وخوفاً عليه ثم إنها ودّعته ••• ثم قذفت به في اليم فصادف ذلك جري الماء بقوة المد فاحتملته من ليلته الى ساحل الجزيرة الأخرى •••

فأدخله الماء بقوته الى أجمة ملتفة الشجر عذبة التربة مستورة عن الرياح والمطر محجوبة عن الشمس تَزَاوَرُ عنها إذا طلعت وتميل إذا غربت • ثم أخذ الماء في النقص والجزر عن التابوت الذي فيه الطفل وبقي التابوت في ذلك الموضع ••• فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث وعالج الحركة فوقع صوته في أذن ظبية فقدت طلاها ••• فحنّت الظبية وحَنَت عليه ورئمت به وألقمته حلمتها وأروته لبناً سائغاً وما زالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه الأذى » •

وإذا اختلفت الروايتان في نشأة حي فهما تتفقان بعد ذلك في معنى التربية وسيرورتها . ذلك أن الظبية التي تكفّلت به وافقت خصباً ومرعى أثيثاً فكثر لحمها ودرّ لبنها حتى قام بغذاء ذلك الطفل أحسن قيام وكانت معه لا تبعد عنه إلا لضرورة الرعي • وألف الطفل تلك الظبية التي كان بحيث إذا أبطأت اشتد بكاؤه فطارت إليه •

ولم يكن بتلك الجزيرة شيء من السباع العادية فتربى الطفل ونما واغتذى الى أن تم له حولان وتدرج في المشي وأثغر فكان يتبع تلك الظبية وكانت هي ترفق به وتحمله الى مواضع بها شجر مثمر فكانت تطعمه ما تساقط من ثمراتها الحلوة النضيجة ، وما كان منها صلب القشر كسرته له بطواحنها ، ومتى عاد الى اللبن أروته ، ومتى ظمىء الى الماء أرْوَته ، ومتى ضحا ظللته ، ومتى خصر أدفأته ، وإذا جن الليل صرفته الى مكانه الأول ، وجللته بنفسها وبريش كان هناك

مما مليء به التابوت أولاً • وكانا في غدوهما ورواحهما قد ألفهما ربرب يسرح ويبيت معهما حيث مبيتهما •

وعلى تلك الحال حكى الطفل نغمة الظبية بل جاوزها الى حكاية جميع ما يسمعه من أصوات الطير والحيوان ولاسيما أصوات الظباء في الاستصراخ والاستئلاف والاستدعاء والاستدفاع فألفته الوحوش وألفها ولم تنكره ولا أنكرها • ومع ذلك كان يميل الى بعض منها دون بعض •

ورأى جميع الحيوانات كاسية بالوبر والشعر والريش كما رأى ما لها من العدو والبطش وما لها من القرون والأنياب والحوافر والمخالب ووجد نفسه عارياً عديم السلاح ضعيف العَدْو قليل البطش ففكر في ذلك وطال همه وهو قد قارب سبعة أعوام فاتخذ من أوراق الشجر العريضة ما يستر به بدنه وعمل من أغصان الشجر عِصِيّاً له هشّ بها على الوحوش المنازعة له ، فعلا بذلك قدره عند نفسه • ثم رأى أن ليديه فضلاً على أيديها إذ كان يتصرف بها كما يريد • ولقد صادف في بعض الأيام نسراً ميتاً فقطع جناحيه وذنبه صحاحاً كما هي وسلخ عنه سائر جلده وفصله على قطعتين ربط إحداهما على ظهره والأخرى على سرته وما تحتها وعلق الذنب من خلفه وعلق الجناحين على عضديه ، فأكسبه ذلك ستراً ودفئاً ومهابة في نفوس الوحوش •

ثم أسنّت الظبية وضعفت فكان يرتاد بها المراعي الخصبة ويجتني لها الثمرات الحلوة ويطعمها ، حتى أدركها الموت فسكنت حركاتها بالجملة وتعطلت أفعالها فجزع الصبي جزعاً شديداً وكادت نفسه تفيض أسفاً عليها •

كان يناديها بالصوت الذي اعتاد أن تجيبه عند سماعه ويصيح بأشد ما يقدر عليه فلا يرى حركة ولا تغيراً فشرع يستطلع سبب ما حصل ويبحث جميع أعضائها دون أن يرى آفة فيها الى أن اهتدى الى عضو في جانب الصدر ألا وهو القلب فنظر فلم ير فيه آفة ظاهرة ولكنه ألفى فيه تجويفين أحدهما من الجهة اليمنى مملوء بعلق منعقد والآخر من الجهة اليسرى خال لا شيء فيه ، فحدس أن الساكن في ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه وتركه وهو بحاله وتحقق أنه أحرى ألا يعود اليه ، وصار الجسد كله عنده خسيساً لا قدر له بالاضافة الى ذلك

الشيء الذي ارتحل عنه • وتشتت فكره في ذلك كله وعلم أن أمه التي عطفت عليه وأرضعته وتعهدته إنما كان ذلك الشيء المرتحل وأن الجسد بجملته كالآلة وبمنزلة العصي التي اتخذها هو لمآرب شتى • وفي خلال ذلك نتن ذلك الجسد وقامت منه روائح كريهة نفرته عنه • ثم سنح لنظره غرابان يقتتلان حتى صرع أحدهما الآخر ميتاً • ثم جعل الحي يبحث في الأرض حتى حفر حفرة وارى فيها ذلك الميت بالتراب. فحفر هو حفرة وألقى فيها جسد أمه وحثا عليها التراب •

وبقي على ذلك برهة يتصفح أنواع الحيوان والنبات ويطوف بساحل تلك الجزيرة فلم يجد لنفسه شبيهاً ووجد لكل واحد من أشخاص الحيوان والنبات أشباهاً كثيرة • وكان يرى البحر محدقاً بالجزيرة من كل جهة فظن أنه ليس في الوجود أرض سوى أرض جزيرته تلك ، واتفق أن انقدحت نار في أجمة قصب أجوف على سبيل المحاكّة فهاله منظرها • فوقف يتعجب فيها ملياً ثم دنا منها ومد يده فلما باشرها أحرقت يده ، فاهتدى الى أن يأخذ منها قبساً لم تستول النار على جميعه فأخذه بطرفه السليم وحمله الى موضعه الذي يأوي إليه وهو جُحْر استحسنه للسكن قبل ذلك •

ثم ما زال يمد تلك النار بالحشيش والحطب ويتعهدها ليلاً ونهاراً • وكان يزيد أنسه بها ليلاً لأنها كانت تقوم له مقام الشمس في الضياء والدفء فعظم بها ولوعه واعتقد أنها أفضل الأشياء التي لديه ورآها تتحرك الى جهة فوق وتطلب العلو • وألقى فيها على سبيل الاختبار شيئاً من أصناف الحيوانات البحرية فسطع قتاره وحرك القتار شهوته اليه فأكل منه شيئاً استطابه فاعتاد بذلك أكل اللحم وصرّف الحيلة في صيد البر والبحر •

وزادت محبته للنار لما رأى من حسن آثارها وقوة اقتدارها • ثم وقع في نفسه أن الشيء الذي ارتحل من قلب أمه الظبية كان من جوهر هذا الموجود أو من شيء يجانسه ، وأكد ذلك في ظنه ما كان يراه من حرارة الحيوان الحي وما كان يجده من شدة الحرارة عند صدره بازاء الموضع الذي كان قد شق عليه من الظبية.

ثم دفعته الرغبة الى البحث عن سائر أعضاء الحيوان وترتيبها وأوضاعها وكمياتها وكيفية ارتباط بعضها ببعض وكيف تستمر لها الحياة من تلك الحرارة

التي في القلب فتتبّع ذلك كله بتشريح الحيوانات الأحياء والأموات · ولم يزل ينعم النظر فيها ويجيل الفكرة حتى بلغ في ذلك كله كبار الطبيعيين · فتبين له أن كل شخص من أشخاص الحيوان وان كان كثيراً بأعضائه وتفنن حواسه وحركاته فانه واحد بذلك الروح الذي مبدؤه من قرار واحد وانقسامه في سائر الأعضاء منبعث منه ، وأن جميع الأعضاء خادمة له أو مؤدية عنه · وهو يصرفها كأنها آلات أنحاء من التصريف بحسب ما تصلح له كل آلة وبحسب الغايات التي تلتمس بذلك التصريف · فاذا عمل بآلة العين كان فعله ابصاراً ، واذا عمل بآلة الأذن كان فعله سمعاً ، واذا عمل بآلة الأنف كان فعله شماً ، واذا عمل بآلة اللسان كان فعله ذوقاً ، واذا عمل بالجلد واللحم كان فعله لمساً ، واذا عمل بالعضد كان فعله حركة ، واذا عمل بالكبد كان فعله غذاءً واغتذاءً · ولا يتم لشيء من هذه فعل الا بما يصل اليها من ذلك الروح على الطرق التي تسمى عصباً ، وتستمد الأعصاب الروح من بطون الدماغ ، والدماغ يستمد الروح من القلب · فان خرج الروح بجملته عن الجسد أو فني أو تحلل بوجه من الوجوه تعطل الجسد كله وصار الى حالة الموت · وقد انتهى حي الى هذا الحد من النظر على رأس أحد وعشرين عاماً من منشئه ·

وفي خلال هذه المدة تفنن في وجوه حيله واكتسى بجلود الحيوانات التي كان يشرحها واحتذى بها واتخذ الخيوط من الأشعار ولحاء القصب والخبازى والقنب وكل نبات ذي خيط ·

وكان بتلك الجزيرة خيل برية وحمر وحشية فاتخذ منها ما يصلح له وراضها حتى كمل بها غرضه ·

ثم بعد ذلك أخذ في مأخذ آخر من النظر فتصفح جميع الأجسام من الحيوان والنبات والمعادن وأصناف الحجارة والتراب والماء والبخار والثلج والبرد والدخان واللهيب والجمر فرأى لها أوصافاً كثيرة وأفعالا مختلفة وأنعم النظر في ذلك فكشف خصائصها وتعرف طبائعها فرأى حقيقة وجود كل منها مركبة من الجسمية ومن شيء آخر زائد على الجسمية اما واحد واما أكثر من واحد · فلاحت له صور الأجسام على اختلافها وهو أول ما لاح له من العالم الروحاني اذ هي صور لا تدرك بالحس وانما تدرك بضرب ما من النظر العقلي ولاح له أن الروح الحيواني

الذي مسكنه القلب لا بد له من معنى زائد على جسميته يصلح به لأن يعمل تلك الأعمال الغريبة من ضروب الاحساسات وفنون الادراكات وأصناف الحركات . وذلك المعنى هو صورته وفصله الذي يفصله عن سائر الأجسام ويميزه منها وهو الذي يعبّر عنه بالنفس الحيوانية .

ومثلها النفس النباتية التي هي صورة النبات وفصله المائز له . وكذلك للجمادات شيء يخصها وهو صورتها وفصلها ، ويعبّر عنه بالطبيعة .

وهكذا تجاوز جسمية الأجسام الى صورها وخصائصها التي ينفصل بعضها بها عن بعض . فتأمل بالتفصيل تلك الخصائص والصور التي تميز أنواع الحيوان والنبات والجماد .

وبالتدرج انتهى الى أبسط ما قدر عليه من قلة التركيب وهو الأرض والماء والنار والهواء ، ثم الى الصورة التي تلبس المادة والى المادة أو الهيولى العارية عن الصورة جملة . ولما انتهى نظره الى هذا الحد وأشرف على تخوم العالم العقلي حن الى ما ألفه من عالم الحس فتأمل صور الأركان الأربعة من أرض وماء ونار وهواء . فالماء مثلاً اذا أفرط عليه التسخين استعد للحركة الى فوق وصلح لها فذلك الاستعداد هو صورته . وعلى العموم صلوح الجسم لبعض الحركات دون بعض هو استعداده وصورته . ولاح له مثل ذلك في جميع الصور فتبين له أن الأفعال الصادرة عنها ليست في الحقيقة لها وانما هي لفاعل يفعل بها الأفعال المنسوبة اليها .

فلما لاح له من أمر هذا الفاعل ما لاح على الاجمال دون تفصيل حدث له شوق حثيث الى معرفته على التفصيل . فتصفح جميع الأجسام فلم ير منها شيئاً بريئاً عن الحدوث والافتقار الى الفاعل المختار . فاطرحها كلها وانتقلت فكرته الى الأجسام السماوية . وكان ذلك على رأس ثمانية وعشرين عاماً من عمره .

فعلم أن السماء وما فيها من كواكب أجسام لأنها ممتدة في الأقطار الثلاثة : الطول والعرض والعمق ، وانها جميعاً متناهية . ورأى أن الفلك بجملته وما يحتوي عليه كشيء واحد متصل بعضه ببعض وأن جميع الأجسام كالأرض والماء والهواء والنبات والحيوان وما شاكلها هي كلها في ضمنه وأنه كله أشبه

شيء بشخص من أشخاص الحيوان • ومافيه من الكواكب المنيرة هي بمنزلة حواس الحيوان ، وما فيه من ضروب الأفلاك المتصل بعضها ببعض هي بمنزلة أعضاء الحيوان ، وما في داخله من عالم الكون والفساد هو بمنزلة ما في جوف الحيوان من أصناف الفضول والرطوبات •

فلما تبين له أنه كله كشخص واحد في الحقيقة قائم محتاج الى فاعل مختار تفكر في العالم بجملته هل هو شيء حدث بعد أن لم يكن وخرج الى الوجود بعد العدم ؟ أو هو أمر كان موجوداً فيما سلف ولم يسبقه العدم بوجه من الوجوه • فتشكك في ذلك ، وانتهى بعد التشكك في قدم العالم أو حدوثه الى أنه لا بد على كلا الوجهين من وجود فاعل غير جسم ولا متصل بجسم ولا منفصل عنه ولا داخل فيه ولا خارج عنه ، اذ الاتصال والانفصال والدخول والخروج هي كلها من صفات الأجسام وهو منزه عنها • واذن فالعالم كله بما فيه من السماوات والأرض والكواكب وما بينها وما فوقها فعله وخلقه ، وهو متأخر عنه بالذات وان كان غير متأخر بالزمان في وجه من الوجهين اللذين سلف ذكرهما • وعندئذ تصفح الموجودات مرة جديدة تصفحاً على طريق الاعتبار في قدرة فاعلها والتعجب من غريب صنعته ولطيف حكمته ودقيق علمه • وتبين له في أقل الأشياء الموجودة فضلاً عن أكثرها من آثار الحكمة وبدائع الصنعة ما قضى منه كل العجب ، وتحقق عنده أن ذلك لا يصدر الا عن فاعل مختار في غاية الكمال وفوق الكمال • وكل شيء له حسن أو بهاء أو كمال أو قوة أو فضيلة من الفضائل هو من فيض ذلك الفاعل ومن جوده ومن فضله • وانتهت به المعرفة الى هذا الحد على رأس خمسة وثلاثين عاماً من منشئه ، وقد رسخ في قلبه من أمر هذا الفاعل ما شغله عن الفكرة في كل شيء إلا فيه • وذهل عما كان فيه من تصفح الموجودات والبحث عنها حتى صار بحيث لا يقع بصره على شيء إلا ويرى فيه أثر الصنعة فينتقل بفكره على الفور الى الصانع حتى اشتد شوقه اليه وانزعج قلبه بالكلية عن العالم الأدنى المحسوس وتعلق بالعالم الأرفع المعقول •

فلما حصل له هذا العلم بهذا الموجود الرفيع الثابت الوجود أراد أن يعلم بأي شيء حصل له هذا العلم وبأي قوة أدرك ذلك الوجود ، فتصفح حواسه كلها وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس فرأى أن الحواس لا تدرك إلا جسماً أو

ما هو في جسم • وقد تبين أن هذا الموجودالواجب الوجود بريء من صفات الأجسام من جميع الجهات ولا تعلق له بوجه من الوجوه بالأجسام ، كما تبين أنه أدركه بذاته ، وأن ذاته التي أدركه بها أمر غيرجسماني ولا يجوز عليها شيء من صفات الأجسام ، وأن كل ما يدركه من ظاهرذاته من الجسميات فانها ليست حقيقة ذاته • وإنما حقيقة ذاته ذلك الشيءالذي أدرك به الموجود المطلق الواجب الوجود • فلما علم أن ذاته الحقيقيةليست هذه المتجسمة التي يدركها بحواسه ويحيط بها جلده هان عنده بالجملةجسمه وجعل يتفكر في ذاته الحقيقية الشريفة التي أدرك بها ذلك الموجودالشريف الواجب الوجود • ورأى أن الذات التي أدرك بها ذلك الموجودالشريفالواجب الوجود لا يمكن تصور فسادها وأنها إذا أدركته وتعرّفته تعلقت بهوحنت إليه • وتبين له أن كمال ذاته ولذتها إنما هو بمشاهدة ذلك الموجودالواجب الوجود على الدوام مشاهدة بالفعل أبداً حتى لا يعرض عنه طرفةعين لكي توافيه المنية وهو فيحال المشاهدة بالفعل فتتصل لذته دون أن يتخللها ألم • ثم جعل يتفكر كيف يتأتى له دوام هذه المشاهدة بالفعل حتى لا يقع منه إعراض • فغدا معرضاً عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية ، مجتمع الهمّ والفكرة في الموجود الواجب الوجود وحده دون شركة • فمتى سنح لخياله سانح سواهطرده عن خياله جهده وراض نفسه على ذلك ودأب عليه • وفي شدة مجاهدته هذهربما كانت تغيب عن ذكره وفكره جميع الذوات إلا ذاته • فانها كانت لا تغيبعنه في وقت استغراقه بمشاهدة الموجود الحق الواجب الوجود • ولكنه ما زاليطلب الفناء عن نفسه والاخلاص في مشاهدة الحق حتى تأتى له ذلك ولم يبقإلا الواحد الحق • واستغرق في حالته هذه وشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعتولا خطر على قلب بشر • ثم لما أفاق من حالته تلك التي هي شبيهة بالسكر عادالى ملاحظة الأغيار وخطر بباله أنه لا ذات له يغاير بها ذات الحق تعالى ،وأنحقيقة ذاته هي ذات الحق ، وأن الشيء الذي كان يظن أولاً أنه ذاته المغايرةلذات الحق ليس شيئاً في الحقيقة ، بل لس ثمّ شيء إلا ذات الحق ، وأن ذلكبمنزلة نور الشمس الذي يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها • فانهوإن نسب الى الجسم الذي ظهر فيه فليس هو في الحقيقة شيئاً سوى الشمس• وإن زال ذلك الجسم زال نوره وبقي نور

الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مغيبه • ومتى حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور قبله ، فاذا عدم الجسم ذلك القبول لم يكن له معنى • وتقوّى عنده هذا الظن بما قد كان بان له من أن ذات الحق عز وجل لا تتكثر بوجه من الوجوه ، وأن علمه بذاته هو ذاته بعينها • فلزم عنده من هذا أن من حصل عنده العلم بذاته فقد حصلت عنده ذاته • وقد كان حصل عنده العلم فحصلت عنده الذات • وهذه الذات لا تحصل الا عند ذاتها ونفس حصولها هو الذات • فاذن هو الذات بعينها •

لقد كتب ابن طفيل هنا صفحات ممتعة محاولاً ما استطاع التدرج العلويّ بحيّ والتحليق معتمداً على تشبهات ثلاثة :

١ ـ تشبه بالحيوان غير الناطق • جعله هذا التشبه يعيش في الاغتذاء عيشة اعتدال دون اضرار ولا استئصال وبحسب ما يسد عنده خلة الجوع وفي الحين بعد الحين دفعاً للضعف وامساكاً للرمق •

٢ ـ تشبه بالاجرام السماوية • وكانوا يظنون تبعاً لفلسفة أرسطو أن لها طبيعة خامسة مطهرة غير مادية • ولما رآها تجري في نظام دقيق يتعهد الحياة على وجه الأرض ألزم نفسه اتباع ذلك النظام وأن يتعهد متطلبات الحياة عامة • فجعل يبذل وسعه في عون الحيوان والنبات وفي اتساق القوى الطبيعية على الأرض وهو ما نستطيع قوله في التعابير الحديثة اليوم من دفع التلوث والفساد في جزيرته • وكذلك العناية بنفسه نظافة وطهارة ثم ملازمة الفكرة في ذلك الموجود الواجب الوجود وفي حكمته وسننه التي تجري بمقتضاها تلك الأفلاك •

٣ ـ تشبه بالموجود الواجب الوجود وصفاته • وقد تبين له أن تلك الصفات على ضربين : اما صفات ثبوت كالعلم والقدرة والحكمة واما صفات سلب ترجع كلها الى التنزه عن الجسمية • فأخذ يطرح عن ذاته أوصاف الجسمية ما عدا ما لا بد منه من الحركة والاعتناء بأمر الحيوان والنبات والرحمة لها وازالة عوائقها وأعرض عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية وغدا مجتمع الهم والفكرة في الموجود الواجب الوجود وحده دون شركة واستغرق في مجاهدته كما شرحنا ذلك آنفاً حتى غاب عن نفسه في مشاهدة الحق •

يتلامح من وراء هذا الترتيب ودرجات التشبه روح النهج الاسلامي الشرعي ثم الاتجاه الصوفي الحقيقي الرفيع • وهكذا يصل ابن طفيل بحيّ الى ذروة الحكمة المشرقية والتصوف في الفلسفة الاسلامية •

وقد ألح المؤلف على كيفية تعرف حي بن يقظان لذاته الانسانية الحقيقية الشريفة وأن من حصّل العلم بذاته فقد حصلت عنده ذاته ، ونفس حصولها هو الذات . ويظهر من ذلك أن الذات هي التي أشار اليها التنزيل الكريم : « **قل الروح من أمر ربي** » وانها خالدة ، وأن حديث المؤلف عنها يصلح أن يكون مقدمة واضحة أو موحية لكوجيتو الفيلسوف الفرنسي ديكارت الذي أطلقها بعد نحو خمسة قرون : « أنا أفكر اذن أنا موجود » وأن مثل هذا الحديث هو الذي جعل ديكارت أيضاً يمنع أن يكون للحيوان روح أو نفس ـ هذا مع جواز أن يكون في الفلسفة الاسلامية أيضاً مواضع أوحت بذلك الكوجيتو أو يسّرت له كما أشار الى ذلك المفكر الايطالي فُرلاني G. Furlani في مقال نشره عام ١٩٢٧ في مجلة Islamica بعنوان « ابن سينا ومقولة ديكارت » معتمداً على نص للشيخ الرئيس باسم « الرجل الطائر » ورد في كتابه « الشفاء » .

ومهما يكن من أمر فان مؤلف حي بن يقظان حين وصل بحيٍّ الى تلك الذروة من الحكمة ومن التأمل والاستغراق شعر بضيق المجال وبخطر التحكم بالألفاظ على أمر ليس من شأنه أن يلفظ ، بل باستحالة التعبير عن تلك الحالة اذ لا سبيل الى التحقيق بما في ذلك المقام الا بالوصول اليه .

ثم أراد المؤلف أن يمتع القارىء بتمام خبر حي . وليس تمام الخبر بأقل شأناً من الخبر ذاته . وذلك لبيان اتفاق الحكمة مع حقيقة الشريعة وأن الناس ليسوا سواءً في تفهم حقيقة كل من الشريعة والحكمة . ولهذا يقحم المؤلف حياً وقد وصل الى قمة المعرفة والعرفان في مجتمع انساني ليتدبر وجوه الواقع وأصناف الناس ويتبين مزايا المتألهين ورفعتهم وسجايا المؤمنين الصادقين وضلال الدهماء الذين هم كسوام الانعام لا يتمسكون الا بالدنيا ، قد تغشّتهم ظلمات الحجب . فقد ذكروا أن جزيرة قريبة من تلك التي نشأ بها حي انتقلت اليها ملّة من الملل الصحيحة المأخوذة عن بعض الأنبياء . وكان قد ترعرع بتلك الجزيرة فتَيان من أهل الفضل والرغبة في الخير . أحدهما اسمه أبسال أو أسال واسم الآخر سلامان . وكلاهما انتحلا هذه الملّة وقبلاها أحسن قبول والتزما جميع شرائعها وأعمالها واصطحبا على ذلك . فأما أبسال فكان أشد غوصاً على الباطن وأكثر عثوراً على المعاني الروحانية وأطمع في التأويل . وأما سلامان فكان

أشد احتفاظاً بالظاهر وأشد بعداً من التأويل ، وأوقف عن التصرف والتأمل . وكان في تلك الشريعة أقوال تحمل على العزلة والانفراد وتدل على أن الفوز والنجاة فيهما . وأقوال أُخَر تحمل على المعاشرة وملازمة الجماعة . فتعلق أبسال بطلب العزلة ، وتعلق سلامان بملازمة الجماعة .

وكان أبسال قد سمع عن الجزيرة التي تكونّ ابن يقظان بها وعرف ما بها من الخصب والمرافق والهواء المعتدل . فأجمع أمره على الانفراد بها وارتحل اليها وبقي بها يعبد الله عز وجل وأقام على هذه الحال مدة وهو في أتم غبطة وأعظم أنس بمناجاة ربه .

واتفق أن خرج حيّ لالتماس غذائه ، وأبسال قد ألمّ بتلك الجهة فوقع بصر كل منهما على الآخر فأما أبسال فلم يشك في أنه من العباد المنقطعين وصل الى تلك الجزيرة اعتزالا للناس ، فآثر احترام اعتزاله وعدم التعرض له . وأما حيّ فلم يدرِ ما هو لأنه لم يره على صورة شيء من الحيوانات التي كان قد عاينها قبلا . فوقف يتعجب منه ملياً . وولى أبسال هارباً منه خيفة أن يشغله عن حاله . فاقتفى حيّ أثره لما كان في طباعه من البحث عن حقائق الأشياء . فلما رآه يشتد في الهرب توارى له حتى ظن أبسال أنه قد انصرف عنه . وشرع أبسال في الصلاة والقراءة والدعاء والبكاء والتضرع . فجعل حي يتقرب منه قليلا قليلا حتى دنا منه بحيث يسمع قرءاته وتسبيحه ويشاهد خضوعه وبكاءه . فسمع صوتاً حسناً وحروفاً منظمة لم يعهد مثلها من شيء من أصناف الحيوان . ونظر الى أشكاله وتخطيطه فرآه على صورته ، فزاد في الدنو حتى أحس به أبسال ، فاشتد في العدو واشتد حيّ في أثره حتى التحق به ، ففزع منه . ولكن حياً شرع يؤنسه بأصوات تعلمها من بعض الحيوانات ، ويجر يده على رأسه ويمسح أعطافه ويظهر البشر والفرح به حتى سكن جأش أبسال وعلم أنه لا يريد به سوءاً . وكان أبسال قد تعلم أكثر الألسن ومهر فيها ، فجعل يكلم حياً ويسأله عن شأنه بكل لسان يعلمه ويعالج افهامه فلا يستطيع ، وحيّ يتعجب مما يسمع ولا يدري ما هو عليه ، فاستغرب كل واحد منهما أمر صاحبه . ورأى حيّ أن يقيم مع أبسال حتى يقف على حقيقة شأنه . فالتزم صحبته . ولما رأى أبسال أنه لا يتكلم أمن من غوائله على دينه ، ورجا أن يعلمه الكلام والعلم

والذين زلفى عند الله فشرع في تعليمه الكلام أولا بأن يشير له الى أعيان الموجودات وينطق بأسمائها ويكرر ذلك عليه ويحمله على النطق بها حتى علمه الأسماء كلها ودرّجه قليلا قليلا حتى تكلم في أقرب مدة . فجعل أبسال يسأله عن شأنه ومن أين صار الى تلك الجزيرة فأعلمه حيّ أنه لا يدري لنفسه ابتداءً ولا أباً ولا أماً أكثر من الظبية التي ربته، ووصف له شأنه كله، وكيف ترقى بالمعرفة الى درجة الوصول . فلما سمع أبسال منه وصف تلك الحقائق والذوات المفارقة لعالم الحس العارفة بذات الحق عزّ وجلّ ووصف ذات الحق تعالى وجل بأوصافه الحسنى ووصف ما أمكنه وصفه مما شاهده عند الوصول من لذات الواصلين وآلام المحجوبين لم يشك أبسال في أن جميع الأشياء التي وردت في شريعته من أمر الله عزّ وجلّ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره هي أمثلة هذه التي شاهدها حي بن يقظان . فانفتح بصر قلبه ، وانقدحت نار خاطره ، وتطابق عنده المعقول والمنقول ، وقربت عليه طرق التأويل ، ولم يبق عليه مشكل في الشرع الا تبين له ولا مغلق الا انفتح ولا غامض الا اتضح وصار من أولي الألباب . وعند ذلك نظر الى حي بعين التعظيم وتحقق عنده أنه ولي من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فالتزم خدمته والاقتداء به . وجعل حي ، وكانت سنه اذ ذاك خمسين عاما يستفصحه عن أمره وشأنه . فجعل أبسال يصف له شأن جزيرته وما فيها من العالم وكيف كانت سِيَرُهم قبل وصول الملة اليهم ، وكيف هي الآن بعد وصولها ووصف له جميع ما ورد في الشريعة من وصف العالم الالهي والجنة والنار والبعث والنشور والحشر والحساب والميزان والصراط . ففهم حيّ هذا كله ولم يرفيه شيئاً على خلاف ما شاهده في مقامه الكريم . فعلم أن الذي وصف ذلك وجاء به محق في وصفه صادق في قوله ، رسول من عند ربه ، فآمن به وصدقه وشهد برسالته . ثم جعل يسأله عما جاء به من الفرائض والعبادات فوصف له الصلاة والزكاة والصيام والحج وما أشبهها من الأعمال الظاهرة . فتلقى ذلك والتزمه . الا أنه بقي في نفسه أمران كان يتعجب منهما ولا يدري وجه الحكمة فيهما .

أحدهما لم ضرب هذا الرسول الأمثال للناس في أكثر ما وصفه من أمر العالم الالهي وأضرب عن المكاشفة حتى وقع الناس في التجسيم واعتقاد أشياء في ذات الحق هو منزه عنها ، وكذلك في أمر الثواب والعقاب ؟

والأمر الآخر لم اقتصر على هذه الفرائض ووظائف العبادات ، وأباح اقتناء الأموال والتوسع في المآكل حتى يفرغ الناس للاشتغال بالباطل والاعراض عن الحق ؟

وكان رأيه هو ألا يتناول أحد شيئاً الا ما يقيم به الرمق . وأما الأموال فلم يكن لها عنده معنى . وكان يرى ما في الشرع من الأحكام في أمر الأموال كالزكاة وتشعبها والبيوع والربا والحدود والعقوبات ، فكان يستغرب ذلك كله ويراه تطويلا ويقول : ان الناس لو فهموا الأمر على حقيقته لأعرضوا عن هذه البواطل وأقبلوا على الحق واستغنوا عن هذا كله ، ولم يكن لأحد اختصاص بمال يسأل عن زكاته أو تقطع الأيدي على سرقته أو تذهب نفوس على أخذه مجاهرة .

وقد سبق ظنه الى أن الناس كلهم ذوو فطر فائقة وأذهان ثاقبة ونفوس حازمة ، وما درى ما هم عليه غالباً من البلادة والنقص وسوء الرأي وضعف العزم وأنهم كالأنعام السائمة .

فاشتد اشفاقه عليهم وطمع أن تكون نجاتهم على يديه ، ففاوض في ذلك صاحبه أبسال ، وطمع هذا أن يهدي الله على يدي حي طائفة من معارفه . فالتزما البحر . وكان أن سفينة ضلت مسلكها وقربت من البر ورأى أهلها الرجلين على الشاطىء فدنوا منهما وحملوهما معهم الى الجزيرة التي قصداها . وكان رأس الجزيرة سلامان صاحب أبسال وملازم الجماعة ومحرم العزلة ، فشرع حي في تعليمهم وبث أسرار الحكمة اليهم فجعلوا ينقبضون منه ويتسخطونه في قلوبهم . وما زال كذلك حتى يئس من اصلاحهم . وتصفح الناس بعد ذلك فرأى أن كل حزب بما لديهم فرحون ، قد اتخذوا إلههم هواهم ، وتهالكوا في جمع حطام الدنيا . وأما الحكمة فلا سبيل لهم اليها . ولا تمكن مخاطبتهم بطريق المكاشفة . وحظ أكثر الجمهور من الانتفاع بالشريعة انما هو في حياتهم الدنيا ليستقيم لكل منهم معاشه ولا يتعدى على سواه . ولا يفوز منهم بالسعادة الأخروية الا الشاذ النادر .

فانصرف حي الى سلامان وأصحابه واعتذر عما تكلم به معهم وتبرأ اليهم منه ، وأعلمهم أنه قد رأى مثل رأيهم واهتدى بمثل هديهم ، وأوصاهم بلازمة

ما هم عليهم من التزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة والاقتداء بالسلف الصالح والترك لمحدثات الأمور ، وأمرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من اهمال الشريعة والاقبال على الدنيا • وعلم هو وصاحبه أبسال أن هذه الطائفة المريدة القاصرة لا نجاة لها الا بهذا الطريق ،وأنها ان رفعت عنه الى يفاع الاستبصار اختل ما هي عليه ولم يمكنها أن تلحق بدرجة السعداء • وهي ان دامت على ما هي عليه حتى يوافيها اليقين فازت بالأمن وكانت من أصحاب اليمين • وأما السابقون فأولئك المقربون • (يتذكر ابن طفيل هنا سورة الواقعة وما جاء فيها من تصنيف الناس يوم القيامة) •فودعاهم وانفصلا عنهم وتلطفا في العود الى جزيرتهما • وطلب حي بن يقظان مقامه الكريم بالنحو الذي طلبه أولا حتى عاد اليه واقتدى به أبسال وعبدا الله بتلك الجزيرة حتى أتاهما اليقين •

تلك خلاصة رسالة « حي بن يقظان» • يقول المؤلف في ختام الرسالة : « ولم نُخل مع ذلك ما أودعناه هذه الأوراق اليسيرة من الأسرار عن حجاب رقيق وستر لطيف ينهتك سريعاً لمن هو أهله ،ويتكاثف لمن لا يستحق تجاوزه حتى لا يتعداه » •

وهذه اشارة واضحة الى أن المؤلف أراد أن يسلك طريق الرمز والتغطية ولو بعض الشيء فيما يقصد • فلا بد من الاستفهام في حل تلك الرموز • فهل رمز بحي الى العقل الانساني وبيقظان الى الاله ؟ وهل قصد لما سلف آنفاً في التقاء حي بن يقظان وأبسال واتفاقهما الى التقاء النظر العقلي الفلسفي الحر والشرائع التي جاءت بها الرسل كما نوه بذلك من قبله الفارابي وابن سينا وكما أكده بعده ابن رشد أيضاً ؟ أثَمّ لا يدل اخفاق حي بن يقظان بين أهل الجزيرة الثانية على عجز جماهير الناس عن ادراك مقاصد الفلسفة وتجريداتها سواء أكانوا مؤمنين بالشرائع أم كانوا عُمْياً عن غاياتها ؟ أو لا يشبه تفاوت أبسال وسلامان تفاوت أهل الباطن أصحاب التأويل وأهل الظاهر الذي يتمسكون بالنصوص ؟ كل ذلك جائز ،بل هو شديد الرجحان • ولكنا نظن مع ذلك أن ثمة أموراً كان يعتقدها المؤلف وأراد أن يدل عليها ويلوح بها من بعيد وهي تنويهه بالفطرة السليمة وبالحكمة السديدة وتنديده بالمجتمع الذي كان

يعيش فيه ، كذلك فهمه لكنه الحياة وأصلها ولطبيعة الثواب والعقاب وما الى ذلك ٠

ولكن طريقة الرمز تمنع القطع في الحكم ، لأن الرمز جَفر' السر ، يقول ما لا يقال بغيره ٠ وهو كالقطعة الموسيقية لا تنحل مقاصدها بالسماع مرة واحدة ٠ بل تتجدد ايحاءاتها وتزداد معانيها بتجدد سماعها ٠ ولا شك في أن زيادة الايضاح في رموز ابن طفيل تستدعي زيادة دراسة العصر الذي عاش فيه والاطار الفكري للآراء والتلويحات من قبله ومن بعده ٠ وربما كان بعض التلويحات في رموزه تبدو بصورة أجهر وأقوى في كتابات مواطنه الفيلسوف الصوفي الكبير محيي الدين بن عربي الذي كان في سن العشرين حين مات ابن طفيل ٠

* * *

قصة حي بن يقظان تدخل في نطاق ما صار يدعى في العصور الحديثة بالطوباوية وهو لفظ يقابل لفظ أو توبيا ويوتوبيا في اللغات الأجنبية ٠ لا بد لنا من شرح أصول هذين اللفظين العربي والأجنبي ٠

الطوباوية أو الطوبوية ويستعمل بعض الكتاب لفظ الطوبائية مصدر صناعي من طوبى ٠

ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم مرة واحدة في الآية ٢٩ من سورة الرعد « **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** » ٠ جاء في تفسير « الكشاف » للزمخشري : « طوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى ٠ ومعنى طوبى لك أصبت خيراً وطيباً ٠ ومحلها النصب أو الرفع كقولك طيباً لك وطيب لك ، وسلاماً لك وسلام لك ، والقراءة في قوله وحسن مآب بالرفع والنصب تدلك على محليها ٠ واللام في لهم للبيان مثلها في سقياً لك ٠ والواو في طوبى منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها كموقن وموسر ٠ وقرأ مكوّرة الأعرابي طيبى لهم فكسر الطاء لتسلم الياء » ٠ قول الزمخشري : ان الواو في طوبى منقلبة عن الياء معناه أن الأصل طُيبى ٠ زدنا في الشرح لزيادة الايضاح ٠ على أن الرجوع الى كتب اللغة يزيدنا تعرّفاً لهذا اللفظ ٠ ففي هذه الكتب ، الطوبى : الطيب ، وجمع الطيّبة وهو من نوادر الجموع ، وتأنيث الأطيب ٠ ومن معانيها السعادة والغبطة

والخير والخيرة · وجاء عن النبي ﷺ أن طوبى شجرة في الجنة وهو علم عليها · وقيل طوبى فُعلى من الطيب والمعنى العيش الدائم الطيب · وقيل طوبى اسم الجنة بالهندية معربة عن توبى أو اسم الجنة بالحبشية ·

في « فيض القدير شرح الجامع الصغير » ثلاثون حديثاً نبوياً يبدأ بلفظ طوبى · أولها « طوبى للشام لأن أجنحة الملائكة باسطة أجنحتها عليه » أي لأن ملائكة البليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء تحفها وتحوطها بانزال البركات ودفع المهالك والمؤذيات · قال الهيثمي :« رجاله رجال الصحيح » ·

هذا واللفظ الذي تتبعناه وجدناه في الآرامية والعبرانية ونظن أنه في سائر اللغات السامية وهو يدل على الخير والسعادة والهناء كما يدل على المجتمع الرافه الوادع الرافل بالهدوء والطمأنينة والسعة ·

أما اللفظ الأجنبي فأول من استعمله الكاتب القس الانكليزي توماس مور أو موروس Morus كما لتّن اسمه (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥) وهو جزء من عنوان كتاب له ألّفه باللاتينية وهو De optimo reipublicae statu deque nova insula Utopia ألفه عام ١٥١٦ ولكن الكتاب شاع بعنوان يوتوبيا وترجم الى الانكليزية عام ١٥٥١ · ومع أن الكتاب والعنوان كليهما باللاتينية فان المؤلف يقال انه صاغ أوتوبيا من اليونانية (أو بمعنى لا ، وتوبيا بمعنى مكان) فيكون لفظ أوتوبيا أو يوتوبيا معناه لا مكان أو عديم المكان · وقد صور المؤلف حياة اجتماعية مثالية في جزيرة خيالية (يوتوبيا) يعيش سكانها في ظل نظام اقتصادي واجتماعي وسياسي يكفل لهم العدالة ويقدم لهم ما يحتاجونه من طعام وسلع ويفرض على كلٍّ منهم أداء عمل يدوي وهم سعداء هانئون كأنهم في جنة دنيوية · ومن مظاهر سعادتهم ازدراؤهم للذهب وكنز المال واقتناء الثروات ·

وقد اصطنع العرب المترجمون الحديثون المصدر الصناعي طوباوية للدلالة على ما يدل عليه اللفظ الأجنبي · وربما كان اللفظ العربي أفضل دلالة على المقصود وأكثر تفاؤلا وأقرب فحوى من اللفظ الأجنبي الذي يدل على عدم وجود المكان ·

بل نحن نذهب الى أن اللفظ العربي الوارد في اللغات السابقة التي كانت معروفة لدى المثقفين في عصر النهضة الأوربية ربما أوحى الى المؤلف الانكليزي باللفظ الذي صاغه من لغة لم يكتب كتابه بها • ثم انه يصعب على المؤلف أن يتخيل مجتمعاً ويكتب فيه كتاباً ثم يمنع امكان تحقيقه في مكان ما • ومع ذلك غدا لفظ الطوباوية أو اليوتوبيا يطلق على كل نظام مثالي لمجتمع انساني يتصوره مؤلف أو كاتب ويطمح الى تحقيقه أو يتمنى حصوله • وانما يعمد الكاتب أو المؤلف الى تصور ذلك النظام ضيقاً بالمجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه وتنديداً بحياة الناس وبؤسهم في المجتمع الراهن • فمثل هذه الكتب الفكرية أو الأدبية تصوير لأحلام مؤلفيها وطموح الى تحقيق تلك الأحلام في عصورهم أو في العصور التالية • وفيه أيضاً نزوع الى التغيير الاجتماعي الانساني • من أشهر المؤلفات « جمهورية أفلاطون » (٤٢٨ ـ ٣٤٧ ق٠م) و « رسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة » للفارابي (٢٥٩ هـ/ ٨٧٢ م ـ ٣٣٩/ ٩٥١) وكتاب « تدبير المتوحد » لمحمد بن يحيى بن باجه (توفي عام ٥٣٣/ ١١٣٩) الذي تأثر به ابن طفيل كما يمكن عدّ « رسائل اخوان الصفا » بما قصدوه من اصلاح الفرد والمجتمع من الطوباويات • وثمة طوباوية غريبة تختلف عن جميع ما سلف فهي نفسية خيالية صرف ينبه مؤلفها على طبيعتها هذه ولا تطمع الى التحقيق لأنها متحققة في عالم الروح والخيال • انها « أرض السمسمة » التي يورد الشيخ محيي الدين بن عربي (٥٦٠ هـ/ ١١٦٥ م ـ ٦٣٨/ ١٢٤٠) وصفها في كتابه المشهور « الفتوحات المكية » : « وفيها من العجائب والغرائب ما لا يقدر قدره ويبهر العقول أمره » • ينقل المؤلف قول بعض العارفين : « لما دخلت هذه الأرض رأيت فيها أرضاً كلها مسك عطر لو شمه أحد منا في هذه الدنيا لهلك لقوة رائحته تمتد ما شاء الله أن تمتد • ودخلت في هذه الأرض أرضاً من الذهب الأحمر اللين فيها أشجار كلها ذهب وثمرها ذهب فيأخذ الرجل التفاحة أو غيرها من الثمر فيأكلها فيجدمن لذة طعمها وحسن رائحتها ونعمتها ما لا يصفه واصف تقصر فاكهة الجنة عنها فكيف فاكهة الدنيا » • ثم يقول المؤلف : « واذا نظرت الى نسائها ترى أن النساء الكائنات في الجنة من الحور بالنسبة اليهن كنسائنا من البشر بالنسبة الى الحور في الجنان » ثم يقول : « وكل

ما أحاله العقل بدليله عندنا وجدناه في هذه الأرض ممكناً قد وقع » • وتذكّرنا الجملة الأخيرة ما جاء في المشهد الأخير من رواية « فاوست » الثانية للشاعر الألماني الشهير غوتي يقول ما ترجمته :« المستحيل على الوصف يقع هنا بالفعل » ولقد أعلى الشيخ محيي الدين شأن الخيال وجعله ركناً عظيماً من أركان المعرفة • يقول في الباب السابع والسبعين ومائة في معرفة مقام المعرفة من الفتوحات المكية : «ومن لا يعرف مرتبة الخيال فلا معرفة له جملة واحدة • وهذا الركن من المعرفة اذا لم يحصل للعارفين فما عندهم من المعرفة رائحة » (ج ٢ ص ٣١٣ دار الكتب العربية) • ولا عجب عندئذ أن يكون الخيال مصنعاً للطوباويات ومزرعة لا حدود لها ينمو فيها مختلف العوالم ممكنة ومتعذرة • لكن العجيب في هذا أن السمسمة بزرة صغيرة فضلت عن الطينة التي خلق منها سبحانه وتعالى سيدنا آدم • فسوّى من هذه الفضلة النخلة . فهي بهذا الاعتبار عمتنا . وبقي من طين هذه الفضلة مقدار ضئيل يعادل جرم السمسمة فصنع منه أراضي واسعة وعوالم لا تكاد يكون لها حدود سُميت أرض السمسمة • ذكرنا بعض ملامحها آنفاً • الفيلسوف الفرنسي الحديث غاستون بشلار (١٨٨٤ ــ ١٩٦٢) لم يطلع على ما كتبه ابن عربي • ولكن دبج بحثاً طريفاً في كتابه « شاعرية المكان » LA POETIQUE DE L'ESPACE « بعنوان الرسم المصغّر la miniature » أو النمنمة أورد فيه أمثلة من كتب مؤلفين أمثال شارل نوديي Charles Nodier وغيره تفتحت أخيلتهم عن احالات وغرائب لا تجد لها تحقيقاً الا في عالم الخيال • ولو اطلع بشلار على ما كتبه مؤلف الفتوحات لألفى فيه ضالة أي ضالة لموضوعه الطريف • وانما استطردنا هذا الاستطراد لنشير الى غنى التراث العربي الاسلامي الذي يحتاج الى التنقيب عن الجواهر الفريدة •

ومن الطوباويات « مدينة الشمس » للمفكر الايطالي كمبانيلا (١٥٦٨ ــ ١٦٣٩) نشرها باللاتينية عام (١٦٢٣) • ان هذا المفكر تصور مدينة فاضلة في مدينة تيروبانا التي هي اليوم جزيرة سيلان قريبة من خط الاستواء كأنه يتابع مؤلف حي بن يقظان • وهو يذكر في كتابه جمهورية أفلاطون ويوتوبيا توماس موروس • ومن تلك المؤلفات « أطلنطس الجديدة » لفرنسيس بيكون (١٥٦٠ ــ ١٦٢٦) كتبها بالانكليزية حوالي ١٦٢١ ، « والرحلة الى ايكاريا »

للمفكر الفرنسي ايتين كابي (١٧٨٨ ـ١٨٥٦) نشرها عام ١٨٤٥ وهو من ممثلي الاشتراكية الطوباوية ومن روادالاشتراكية الحديثة • حاول أن يؤسس مجتمعاً اشتراكياً مثالياً فسافر هو وأتباعه الى الولايات المتحدة الأمريكية وأنشأ على أرض منها ذلك المجتمع فنجح أول الأمر ثم عصفت به وبأتباعه نزعات الخلاف التي أدت الى الاخفاق • على أن أمثاله الذين تقدموه وحلموا بالاصلاح أصابهم الاخفاق أيضاً •• أما رسائل اخوان الصفا فقدكتم أصحابها أسماءهم. ولقد مات ابن باجه مسموماً • وقد ترجمت « أطلنطس الجديدة » الى اللاتينية ونشرت عام ١٦٢٧ بعد وفاة بيكون ، وكان هذا قد اتهم في حياته بالرشوة واختلاس مال الدولة • وتعرض كمبانيلا لصروف التعذيب وللسجن الطويل وللنفي • وحكم على موروس بالاعدام. وأخفق أفلاطون اخفاقاً ذريعاً في صقلية حين أنكر الفساد المتفشي في بلاط ملكها وأعرب عن آرائه الاصلاحية • فاعتقل وبيع رقيقاً ثم حرره مولاه •

على أنه قد يطلق لفظ الطوباوية بشيء من الزراية على مُثُل سياسية واجتماعية مشوقة وجذابة ولكن يتعذر تحقيقها على صعيد الواقع لبعدها من طبيعة الانسان وأحوال حياته • ومع ذلك فان كثيراً من آراء المفكرين والفلاسفة وسوانح رؤاهم المستقبلية كانت بداية لاصلاحات اجتماعية وتغييرات سياسية مهمة •

نلاحظ أن تلك الرؤى والآراء التي تتشوف نحو عالم مثالي وحياة انسانية فضلى كانت تظهر في ابان الفتن والقلق الاجتماعي والأزمات السياسية • فكان الفلاسفة يلجؤون الى تدبيج المؤلفات التي تتألق بأحلامهم المتوهجة ورؤاهم المتوهمة ، وهم يطمحون الى التغيير والاصلاح كما سلف ويتصورون الناس في حياتهم الاجتماعية المثلى •

وهكذا يمكن أن نعد حي بن يقظان من الكتب الطوباوية • ولكنها على خلاف جميع الكتب السالفة طوباوية فردية • فهي لا تتحدث عن نظام اجتماعي انساني وانما تعرض حياة طفل انساني عاش منفرداً واستطاع أن تكون معيشته بعد الجهد مثالية تعتمد على الذكاء والعقل كما تعتمد على الاكتفاء الذاتي ويصل

فيها بعد لأي ومشقة الى أعلى درجة يستطيع مفكر متوحد أن يصل اليها • وبهذا الاعتبار تختلف عن جميع المؤلفات الطوباوية •

يقول أرسطو في حقيقة الانسان : انه حيوان مدني أي اجتماعي، ولا يمكن تصور كائن يكتفي بذاته ولا يحتاج الى غيره ولا يشارك في مجتمع الا أن يكون وحشاً من الوحوش أو الهاً من الآلهة • ومع ذلك فحي قد استطاع أن يفعل ذلك بعد أن رئمته أمه الظبية ويقترب في مسالك حياته وتجليات تفكيره وآرائه في الخير والعبادة والتجرد من صفات الاله •

ان القسم الأخير من رسالة حي بن يقظان ذو شأن كالقسم الأول منها • نشعر أن ابن طفيل لم يكن راضياً عن المجتمع الذي كان يعيش فيه ولا عن غالبية الناس الذين كانوا يؤلفونه • يقول في بطله حي : انه ظن « أن الناس كلهم ذوو فطر فائقة وأذهان ثاقبة ونفوس عازمة ولم يكن يدري ما هم عليه من البلادة والنقص وسوء الرأي وضعف العزم وأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً » •

ولما جاء حي مع أبسال الى الجزيرة الثانية ورأى ما هم فيه من الضلال أشفق عليهم وطمع أن تكون نجاتهم على يديه • فتصفح طبقاتهم ورأى « أن كل حزب بما لديهم فرحون • وقد اتخذوا الههم هواهم ومعبودهم شهواتهم وتهالكوا في جمع حطام الدنيا • ألهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر • لا تنجح فيهم الموعظة ولا تعمل فيهم الكلمة الحسنة ، ولا يزدادون بالجدل الا اصراراً • وأما الحكمة فلا سبيل لهم اليها ولا حظ لهم منها • وقد غمرتهم الجهالة وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون « **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ». (سورة البقرة الآية ٧)

وفحوى ذلك أن الدين الذي انتحلوه لم ينفذ الى قلوبهم ولم يسطع نوره في أذهانهم وأن « حظ أكثر الجمهور من الانتفاع بالشريعة انما هو في حياتهم الدنيا ليستقيم له معاشه ولا يتعدى عليه سواه فيما اختص هو به ، وأنه لا يفوز منهم بالسعادة الأخروية الا الشاذ النادر • لقد فهم « أحوال الناس وأن أكثرهم بمنزلة الحيوان غير الناطق » فيئس من هدايتهم كما يئس مؤلف القصة من أهل زمنه •

أيتوقف ابن طفيل عند اليأس أم يجد منفذاً آخر للتأثير في الناس بعد أن لخص لهم في القسم الأول من رسالته قصة المعرفة الانسانية · لا شيء يفيد في رأيه سوى الفلسفة والحكمة ومخاطبة فطرة الانسان السليمة وضميره الحي والدعوة الى النظر والتأمل والحد من التهافت على جمع المال وكنز الذهب وارضاء الشهوات وسوى الحث على الرقي شيئاً فشيئاً بالتجرد والمكاشفة والمشاهدة. ولتكن تلك الدعوة والمخاطبة على شكل قصة رمزية لا باسداء النصائح وتقديم المواعظ · فالقصة تنويه بالحكمة وبانعام النظر في أغراض الشريعة البعيدة الموازية لأهداف الحكمة في ترقية النفس وتحسين المجتمع ·

* * *

عالج الباحثون تأثير رسالة حي بن يقظان في الآداب والأفكار الأوربية · وذلك أنها ترجمت الى لغات عدة · ترجمها الى اللغة العبرية موسى النربوني عام ١٣٤٩ · بعد حين ترجمها في انكلترة الى اللاتينية ونشرها مع النص العربي ادوارد بوكوك عام ١٦٧١ · ثم ترجمت الى الهولندية عام ١٦٧٢ باشراف الفيلسوف الهولندي اسبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) · ثم ترجمها عن اللاتينية الى الانكليزية جورج كيث عام ١٦٧٤ · وترجمها مرة ثانية عن اللاتينية الى الانكليزية جورج أشويل عام ١٦٨٦ · وترجمها ثالثة عن العربية الى الانكليزية سيمون أوكلي عام ١٧٠٨ وكان أستاذاً للغة العربية بجامعة كمبردج . ثم توالت الترجمات الى مختلف اللغات الأوربية · ومن أجودها ترجمة المستشرق الفرنسي ليون غوتيي لها عام ١٩٠٠ الى الفرنسية · ثم أعجب الفلاسفة والمفكرون الأوربيون بها ورحبوا ولا سيما الذين أشادوا بالحال الطبيعية للانسان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وخاصة الكاتب الفرنسي جان جاك روسو · ثم ظهرت طبعاتها العربية متأخرة · ومن أفضل هذه الطبعات ما نشره الدكتوران جميل صليبا وكامل عياد مع مقدمة ضافية عام ١٩٣٥ بدمشق · ثم حققها أحمد أمين ونشرها في دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٥٢ ومعها رسالتان احداهما لابن سينا بنفس العنوان والأخرى للسهروردي مقتول حلب بعنوان « الغربة الغربية » وترادفت طبعاتها في دمشق وبيروت والقاهرة

ولا غرو بعد نشر ترجماتها في القرن السابع عشر بأوربة أن يكون لها تأثير واسع وأن يستفيد من شكلها القصصي واتجاهها الروحي وسلاستها ويستوحيها مؤلفون ذاع صيتهم وشاعت كتبهم • عشاق الأدب المقارن يهمهم استبانة هذا التأثير • وبصرف النظر عن الترجمات وتتبع التأثير والتدقيق في ذلك الأدب فقد كانت اللغة العربية والثقافة العربية رائجتين بين العلماء في بلاد الغرب • فلا عجب أن يؤلف الأب اليسوعي الاسباني بلتازار غراثيان إي موراليس (١٦٠١ ـ ١٦٥٨) رواية بعنوان« النقاد El Criticon » نشر الجزء الأول منها عام ١٦٥١ والثاني عام ١٦٥٣ والثالث عام ١٦٥٧ وكل جزء يقابل احدى مراحل العمر الثلاث : الربيع يضم الطفولة والصبا ، والخريف يشمل سن النضج ، والشتاء يوازي الهرم •ومثل هذا التقسيم يحكي تقسيم ابن طفيل لمراحل حي بن يقظان في تدرج معارفه • وفي الجزء الأول مشابه لسيرة حي أيضاً • قرنيليو يركب متن الأسفار بحثاً عن زوجته المخطوفة • وتتعرض السفينة التي ركبها للغرق قريباً من ساحل جزيرة سانت هيلانة • وينقذه فتى كان يعيش هنالك عيشة الحال الطبيعية وهو يجهل أصله وأمه وأباه ولا يتكلم بلغه ما • فلقنه لغته وعلمه وسماه أندرنيوس وغدوا يتنقلان في أنحاء العالم ويواجهان الصروف المختلفة حسب مراحل العمر •

وثمة رواية بلغت أقصى الشهرة في العالم كله وهي روبنسون كروزو باللغة الانكليزية مؤلفها دانيال ديفو (١٦٦٠ ـ ١٧٣١) ظهرت عام ١٧١٩ بعد شيوع ترجمات رسالة حي بن يقظان اللاتينية والانكليزية • وهي وان أشبهت رسالة حيّ في بعض جوانبها تختلف عنها كسابقتها « النقاد » في الافاضة وفي تطويل التفاصيل • وقد غدت أصلاً في اللغة الانكليزية من أصول الرواية الحديثة التي تتجه نحو وصف الحياة الواقعية وان كانت تخيلاً مستفاداً من الرسالة العربية ومن قصة تروي طوراً من حياة الملاح الاسكتلندي ألكسندر سلكيرك •

وقد كثر الباحثون في بيان هذا التأثير وأمثاله مؤكدين له أو متحرجين • وأفرد له السيد حسن محمد عباس كتاباً في الدراسات المقارنة بعنوان «حي بن يقظان وروبنسون كروزو » يجدر الرجوع اليه عند تقصي هذا التأثير •

يرى علماء الاجتماع أن المجتمع الانساني وجد طفرة واحدة لأن الفرد من بني البشر يتعذر عليه أن يعيش متوحداً على الأرض • ويتصور بعض المفكرين أن آدم أبا البشر عليه السلام رمز الى ذلك المجتمع الانساني الأول • نحن هنا لا نناقش هذه الدعوى المحفوفة بالغيب ولكنا نشير اليها جملة لكي ننتقل الى تخيل كاتب لطفل انساني من بني نوعه تائه أو مقذوف في الطبيعة كيف يستطيع مغالبة المحيط الخارجي وحده مع ما قد يسعفه من رأم أنثى حيوان له •

رسالة حي بن يقظان رمزية • ويجوز في الرمز ما لا يمكن أن يتحقق في الواقع • ولكن قصة روبنسون كروزو تدعي الواقعية في أحداثها وأسلوب كتابتها • ويذكر الباحثون كما سلف في الأصول التي استقى منها ديفو روايته روبنسون كروزو قصة البحار ألكسندر سلكيرك كما مرّ آنفاً وقد وقع بينه وبين قبطان السفينة شجار فأنزله القبطان في احدى جزر خوان فيرنانديث الخالية في المحيط الهادي على مقربة من ساحل تشيلي عام ١٧٠٥ مع صندوق فيه ملابس وفراش وبندقية وبارود ورصاص • ثم التقطه بعد أربع سنوات وأربعة شهور القبطان روجرز فوجده في حالة زرية جداً قريبة من حالة البهائم لا يكاد يبين ، يتلفظ بأنصاف الكلمات ، فكتب القبطان روجرز قصته ونشرها عام ١٧١٢ •

وقد ذكرنا قبلاً كلام أرسطو في حال الفرد الذي يعيش متوحشاً حتى أبعد منه صفة الانسان • وقد درس ناقد من نقاد الرواية الانكليز بامعان أدب ديفو وهو إيان واط وكتب منكراً على المؤلف دعوى نجاح روبنسون كروزو في مقامه بتلك الجزيرة الخالية •

ننقل ما ترجمه عنه السيد حسن محمود عباس في كتابه « حي بن يقظان وروبنسون كروزو » : « في الجزيرة المذكورة يحوّل روبنسون كروزو حالة العزلة الى النجاح • وهذا زيف فاضح • فالمنبوذون الآخرون ومنهم سلكيرك نموذج ديفو الرئيسي كانوا قد انحدروا الى حالة من البدائية التامة في غضون سنوات قليلة • لقد كانوا يتضاءلون بسبب تأثير البيئة والخوف المقلق الى مستوى الحيوانات • وفي بعض الحالات الموثوق بها كانوا يفقدون القدرة على

الكـلام ، أو يصابـون بالجنـون ، أو يموتون جوعاً . وهناك كتاب لا بـد أن ديفو كان قد قرأه وهو « رحلات وأسفارجي ألبـرت دي ماندلسـو » يـروي لنا حادثتين مماثلتين : الأولى حادثـة الفرنسي الذي مـزّق ثيابـه اثر نوبـة من نوبات الجنون جاءته في أعقاب وجبـةغذاء من لحم سـلحفاة نيء وذلك بعـد عامين من اقامته في جزيرة موريشيوس . والثانية حادثة البحار الهولندي في جزيرة سانت هيلانة الذي أخرج جثة زميله من القبر واتجه الـى البحـر وهو يرتـدي الكفـن » .

ويعلق الباحث المترجم على ذلك : « أن ما ذكره واط يبين مدى الصعوبـة التي كانت تواجه ديفو وهو يحاول وضع بطل روايته في جزيرة مهجورة لما يـزيد على ثمانية وعشرين عاماً ثم يعيده بعـدذلك الى الوطن مكتمل العقل والبدن ، بل ذا تجربة فريدة في غناهـا . وهنـا نرجح أن تكون قصة « حي بن يقظـان » هي المثال الوحيد والنموذج الأمثل الذي حذا حذوه ديفـو واستلهمـه امكانيـة النجاح ، خصوصاً أن « حي بن يقظان » كانت دون سواها من الأعمال الفكريـة والأدبية تقدم تجربـة متكاملة لانسـان عاش حيـاة عزلة تامـة وخرج بتجربـة متكاملة فريدة في غناها ، كما تحقق لروبنسون كروزو من بعد » .

هذا فضلاً عن بعض التفاصيل في رواية روبنسون كروزو تتبّعها السيد عباس لبيان وجوه الشبه وأشكال التأثير الخفية مثل خلوّ القصتين من وجود المرأة بل من مجرد التفكير فيها ، ومن تصوير كل منهما لشخص هبط الجزيرة ومـن تعليم أحدهما الآخر لغته التي يتكلم بها ، ومن أمور أخـرى يستطيع القـارىء أن يتأملها في مقارنة القصتـين البديعتـين اللتين كأكثر الطوباويات تجري أحداثهما في جزيرة نائية ، مبتعدة عن المجتمعـات الانسانيـة .

لقد تفتّق الخيال الانساني عن أساطير قديمة لا يعدم بعضها شبهاً بقصـة « حي بن يقظان » مثل أسطورة الصنم والملك وابنته اذ عثر على تمثال عليـه كتابة تروي سيرة صاحب التمثال . وهي أن والدته كانت ابنـة ملك قوي جبـار تعلقت بابن الوزير الأكبر وحملت منه فخشيت افتضاحها . فلما ولدته صنعت

له صندوقاً وضعته فيه وألقته في اليم ٠فحمله الموج حتى ألقاه على شاطىء جزيرة خصبة لم تطأها قدما انسان ٠فالتقطته ظبية وأرضعته ورئمته ونما الطفل وجعل يتدبر أمور معاشه ويتفكرفي الحياة والكون ثم ساقت الظروف والده ابن الوزير الى الجزيرة ، فلقنهاللغة والمعارف ثم رجعا معاً الى الجزيرة المعمورة ٠

بل ان خيال الانسان تصور آلهةمتعددة في أوهامه وجعل ابني الاله مارس وهما روميولوس وريموس في الأساطيرالرومانية يُلقى بهما وهما طفلان في نهر تيبر بأيطاليا ، فقذفهما الموج الىالضفة وأرضعتهما ذئبة حتى نموا ووجدهما راع ، ثم كبرا وشبّا عنالطوق ورغبا في أن يبنيا بلداً تخليداً لنجاتهما ٠ وتنازعا وقتل روميولوسأخاه وشاد روما التي حملت اسمه وكان أول ملوكها !

ولم ينقطع خيال الانسان عن تصورالانسان الوحش حتى في العصر الحاضر . وفي حكايات « طرزان » تهاويل تصور حياته في الطبيعة مع الوحوش ٠ ولكن ذلك كله في جانب ورسالة حي بن يقظانالفلسفية المتقنة في جانب آخر ٠

* * *

لا غرو لمثل ابن طفيل وقد بلغ شأواً في الطب والفلسفة ونضج المعرفة أن يكون مستهدفاً لسؤالات الطلاب والأتراب عن حقيقة الانسان وشأنه في الحياة وأصله ومصيره في الكون ٠ والبحث فيهذه الأمور من شأن كل فلسفة أصيلة ٠

أبو بكر بن طفيل فيلسوف وصل الى الصفاء واليقين ٠ ولا عجب أن يكون معرضاً لمثل تلك التساؤلات ٠ ولم يكنله في طور نضجه الروحي الا أن يبسط ثراءه الفكري ومعارفه المتنوعة في رسالة محبوكة العناصر محكمة البيان متزنة الأداء ، تارة بالعبارة وطوراً بالاشارة ٠وقد مهد لرسالته بأن سائلا صفياً حميماً سأله أن يبث اليه ما يمكنه من أسرارالحكمة المشرقية التي ذكرها الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا ٠ ويرى ابنطفيل « أن من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بطلبها والجد في اقتنائها » ،وينوّه بأن من وصل اليها وانتهى الى حد من حدودها لا يستطيع أن يكتمأمرها أو يخفي سرها بل يعتريه من

الطرب والنشاط والمرح والانبساط ما يحمله على البوح بها مجملة دون تفصيل ٠ وذلك مبلغ هو من الغرابة بحيث لا يصفه لسان ولا يقوم به بيان ٠ فان كان السؤال عما يراه أصحاب المشاهدة والأذواق والحضور في طور الولاية فهذا يتعذر اثباته على حقيقة أمره اذ هو حال من الكشف ٠ ومع ذلك فقد يكتفي السائل بطلب التعريف بهذا الأمر على طريقة أهل النظر ٠ وهذا شيء يحتمل أن توضع فيه الكتب وتتصرف به العبارات وهو أندر من الكبريت الأحمر ٠

ثم يعرض ابن طفيل في مقدمة رسالته أسماء بعض الفلاسفة ممن حاول اقتحام هذا الموضوع ولكن لم يصل الى مبتغاه ولا تهيأ له الكمال والاحكام بسبب من الأسباب ، يذكر منهم معاصره ومواطنه وسميه أبا بكر بن باجه الذي يعجب به ويشيد بكتابيه « في النفس » و « تدبير المتوحد » ، وأبا نصر الفارابي في « رسالة أهل المدينة الفاضلة » و « شرح كتاب الأخلاق » ، وأبا علي ابن سينا الذي تكفل بالتعبير عما في كتب أرسطو طاليس سالكاً طريق فلسفته في كتاب « الشفاء » ولكن كان أكثر احساناً في كتابه « الفلسفة المشرقية » ، كما يذكر أبا حامد الغزالي ويراه يتخذ في كتبه مواقف متفاوتة بحسب مخاطبته للجمهور ٠ فهو يربط في موضع ويحل في آخر ، ويكفر بأشياء ثم ينتحلها ، وأكثر تعليمه رمز واشارة لا ينتفع بها الا من كان معداً لفهمها فائق الفطرة ٠ ويرى ابن طفيل أن الشيخ أبا حامد ممن وصل تلك المواصل الشريفة ولكن كتبه المضنون بها المشتملة على علم المكاشفة لم تصل الى الأندلس ٠ ويذكر ابن طفيل أنه مع ذلك هو نفسه استفاد من كتب أولئك الفلاسفة ومن الآراء التي نبغت في زمانه حتى استقام له الحق أولاً بطريق البحث والنظر ثم وجد الذوق اليسير بالمشاهدة فرأى نفسه أهلاً لكتابة الرسالة التي يتحف سائله بما عنده فيها ٠ ثم انه يشير الى أنه يعتمد أسماء حي بن يقظان وأبسال وسلامان وقد ورد الاسم الأول عنوان قصة لابن سينا وورد الآخران في بعض كتبه الأخرى يعتمدها رموزاً دون مضامين ما تدل عليه في تلك الكتب لتقصير تلك المضامين عن الشأو المراد ٠

أما الشأو المراد فكما رأيت أيها القارىء الكريم آنفاً وأول الأمر هو بيان أسرار الحكمة المشرقية ٠ وذلك أن علماء الاسلام ومفكريه قرروا أن السعادة

العظمى والمرتبة العليا للانسان هي معرفة الصانع بما له من صفات الكمال والتنزه عن النقصان بما صدر عنه من الآثار والأفعال في النشأة الأولى وفي الآخرة ، وبالجملة معرفة المبدأ والمعاد • والطريق الى هذه المعرفة من وجهين : أحدهما طريقة أهل النظر والاستدلال ، وثانيهما طريقة أهل الرياضة والمجاهدات • السالكون للطريقة الأولى ان التزموا ملة من ملل الأنبياء عليهم السلام فهم المتكلمون ، والا فهم الحكماء المشاؤون أصحاب النزعة العقلية الجارون على نسق فلسفة أرسطو •

والسالكون للطريقة الثانية ان وافقوا في رياضتهم ومجاهداتهم أحكام الشرع فهم الصوفية ، والا فهم أهل الحكمة المشرقية أو الحكماء الاشراقيون .

وهكذا تكون الحكمة المشرقية أو حكمة الاشراق من الفلسفة بمنزلة التصوف من العلوم الاسلامية ، كما أن الحكمة الطبيعية الالهية منها بمنزلة علم الكلام من تلك العلوم الاسلامية •

أراد ابن طفيل أن يجعل حي بن يقظان وهو متوحد في الجزيرة يسلك طريقة أهل النظر والاستدلال شيئاً فشيئاً ويترقى بقوته النظرية حتى يبلغ أعلى مرتبة فيها • ثم يشعر بقصورها بعض الشيء فيجعله المؤلف يسلك طريقة أهل الرياضة والمجاهدات ليشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ويدرك «أن ليس ثم شيء الا ذات الحق وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذي يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها » ويعلم أن ذلك من قبيل التشبيه وأن ما وصل اليه يعجز اللسان والبيان عن وصفه وايضاحه • ثم ينظر الى جميع الأشياء والكائنات في اشراق نور الحق •

وفي هذا غاية الفلسفة الصحيحة • ثم يشوّق المؤلف القارىء بما يسوقه من مزايا الفطرة السليمة ونقاوة الضمير وحب الخير لجميع الكائنات ومن بلوغ أعلى درجات الغبطة والسعادة في هذا السبيل ، ليعرّج بعد ذلك على ما في المجتمع الانساني من زيف وغرور وضلال ومن تهافت على جمع المال وحرص على المآرب الفردية والشهوات الشخصية • وذلك بجمل وألفاظ يستمدها من الشريعة لينقد غالبية أحوال الناس المتدينين الذين لم يتفهموا غاية الملة الحنيفية

ولم يستجيبوا لنداء القيم الرفيعة • بل ان الذي وصل بسلامة فطرته وطيب سريرته الى ما وصل اليه حي ويدري أسرار الدين وغايته وفحوى الحكمة حقيق أن يسبغ عليه صفة الولاية كما يتصورها علماء الدين •

عددنا آنفاً « حي بن يقظان » في الطوباويات الفكرية التي تقصد الى صلاح الفرد والمجتمع • انها طوباوية الفرد المتوحد الى جانب الطوباويات الاجتماعية المتعددة • ومن الطبيعي في تاريخ الفكر أن تبتعث تلك الطوباويات التي تتصدر الاصلاح وتتلألأ بالأمل نقائض لها وأضداداً • فينهض مؤلفون مرموقون ينقمون ما في المجتمعات من تقدم مادي هائل الى جانب التعسف والتحكم والطغيان فيصورون تطور هذه المجتمعات في المستقبل الى نظم جماعية محكمة الاعداد يسخرون منها باسمين أو حانقين •

هل نذكر في العصور الحديثة التي طغى فيها الاتجاه المادي واتسعت سيطرة الحكومات الصارمة كتاب « العالم الطريف » أشهر مؤلفات الكاتب الانكليزي ألدوس هكسلي (١٨٩٤ ـ ١٩٦٣) الذي نشره عام ١٩٣٢ •

هو يوتوبيا مستقبلية تقنية متشائمة • فهو اذن يوتوبيا عكسية أو مضادة • يخاف المؤلف على حياة الناس في المستقبل من سيطرة العلم في عالم جديد هو عالم العقاقير والآلات يزول فيه الأدب والشعر والفن والدين • كل شيء فيه آلي مخطط له ومرسوم أو محفوظ في قوارير • لا حاجة الى الزواج للنسل لأن الأجنة تتكون في القوارير بطريقة علمية لا في الأرحام • والأطفال الناشئة طبقات يُعدّ تكوينهم بمقتضى الحاجة اعداداً دقيقاً حسب كميات الاكسجين التي تبذل لكل طبقة • هو عالم ينكر الفردية • شعاره الجماعة والتشابه والاستقرار يكفي فيه أن تضغط على زر أو تدير مقبضاً لكي تنال ما تريد • الكتاب في شكل رواية ينقد حياة الانسان الحديثة . وهو سلبي يهدم ولا يبني •

أم نذكر كتاب « ١٩٨٤ » للمؤلف الانكليزي جورج أورويل (١٩٠٨ ـ ١٩٥٠) نشره عام ١٩٤٩ وهو أشد اكتئاباً من « العالم الطريف » ، شعارات العالم المقبل عنده ثلاثة • وهي من الغرائب ولكنها شعارات العالم المقبل : الحرب هي السلم • والحرية هي العبودية • والجهل هو القوة •

فالكتاب نقد مريرولاذع وساخر أي ساخر لنظام الحكم المطلق وللسيطرة السياسية الصارمة التي تتحكم في جميع مظاهر الأمة وطاقاتها المنتجة •

لم يكن لنا بد في سياق حديثنا عن طوباوية ابن طفيل من أن نستطرد هذا الاستطراد الذي يبرز عبقرية ابن طفيل حين يلح في رسالته على سلامة الفطرة وحرية الفكر • بيد أن ثمة شؤوناً أخرى تزيد في ابراز قيمة هذه الرسالة •

* * *

عاش ابن طفيل في صدر دولة الموحدين كما سلف في باكورة هذا الحديث . دولة الموحدين قامت على أنقاض دولة المرابطين • أنشأها أبو عبدالله بن تومرت عام ٥١٥/١١٢٨ وهو من قبائل المصمودة البربرية. ولما توفي عام ٥٢٤/١١٣٠؟ تلاه على رأس المصامدة صاحبه القائد المخلص عبدالمؤمن بن علي الكومي • وكومة قبيلة بربرية • أو هو من نسل قيس عيلان بن مضر وولد في قبيلة كومة كما كان يقول • وتلاه أبناؤه وخلفاؤهم حتى سنة ٦٦٨/١٢٦٩ • فاستمرت الدولة في الحكم منذ زمن عبدالمؤمن الى نهايتها نحو مائة وخمسين سنة •

ومن أهم ملوكها الذين كانوا يتسمّون بأمراء المؤمنين أبو يعقوب يوسف الأول بن عبد المؤمن الذي عاش ابن طفيل في كنفه وبلاطه طبيباً ووزيراً ونديماً ومستشاراً •

كانت أحوال الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين مختلة اختلالا مفرطاً • قام أعيان الجزيرة فاستبد كل منهم بضبط بلده • وكانت الجلالقة تتحين فرص ضعف المسلمين وتواكلهم وتنازعهم وتخاذلهم لانتزاع أطراف البلاد المجاورة لهم شيئاً فشيئاً • وكان عبدالمؤمن قد أرسل عام ٥٣٨/١١٤٣ الى الأندلس جيشاً سيطر به في غضون خمس سنوات على الممالك التي كانت بأيدي العرب • ثم اتجه نحو الشرق وبسط نفوذه على سواحل افريقية الممتدة من حدود مصر الى المحيط الأطلسي •

وكانت نشأت في الأندلس من قبل حضارة عربية اسلامية ازدهرت وازدهت وقل مثيلها جعلت اسبانيا في طليعة بلاد المعمورة عامة والبلاد الأوربية خاصة •

فقد احتفر العرب قنوات الري ودعموا الزراعة والاقتصاد وعملوا على تمتين أنواع الصناعة المتاحة في ذلك العصر ونشطوا العلوم بجميع أصنافها وحفزوا الناس من جميع النحل والطبقات على ورود مناهلها المترعة العذبة ، كما احتفلوا خاصة بالهندسة والعمارة والفلك الى جانب الفنون . كانت الأندلس تتلألأ أضواؤها الفريدة فتصل سناها الى قصي الجهات وتبلغ أخبارها بعيد الأماكن . وليس غريباً أن يُسحر أبناؤها بما بلغته من جمال ورفعة وطيب عيش ورغد حياة . يقول ابن خفاجة ٤٥٠/١٠٥٨ ـ ٥٣٣/١١٣٨ يخاطب أهلها بهذه الأبيات :

يا أهل أندلس لله درّكُم ... ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد الا في دياركم ... ولو تخيّرت هذي كنت أختار
لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقراً ... فليس تُدخل بعد الجنة النار

ولكن هذه الجنة مال سكانها الى النعيم وأخلدوا الى الترف وركنوا الى التخاذل ثم تبع ذلك التنازع والشقاق والاستئثار وقلة النسل على حين كان الجلالقة يتمتعون بذلك النعيم ويتعلمون الصنائع المدنية والعسكرية ويتكاثرون بسبب مستواهم الثقافي والمعاشي الذي كان أدنى من مستوى المسلمين كذلك تسرّب خلل وتشتت في آراء العلماء الذين كانوا يتقربون من الولاة والملوك ويوحون إليهم باتجاهاتهم الدينية وبتضييق الأمر على غيرهم . لقد عمل المرابطون على إذاعة مذهب الامام مالك في البلاد ، وجاء الموحدون فعملوا على محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة واهتموا حيناً بعلم الكلام ، ثم اتجه الاهتمام نحو الاقتصار على الأخذ بالكتاب والسنة والابتعاد عن علم الفروع جملة نظراً لتعدد المسائل وتشعبها . وبعد تقريب العلماء والفلاسفة في زمن أبي يعقوب يوسف الأول تغير الأمر في زمن خلفه أبي يوسف يعقوب الذي تولى الحكم بين ٥٨٠/١١٤٨ و ٥٩٥/١١٩٩ فتنكر للفلاسفة ولأهل الرأي ووقعت في زمنه محنة ابن رشد إذ أبعد من قرطبة شر إبعاد بل أمر الملك باحراق كتب الفلسفة كلها إلا ما كان من الطب والحساب وعلم الهيئة . هذا كله الى زيادة قوة الجلالقة وتربصهم ببلاد الأندلس . لقد كانت جيوش الفرنجة تتألف من بعض المسلمين ، وكانت جيوش المسلمين تتألف من بعض الفرنجة . فلم

يكن هنالك إلا منافع فردية عاجلة ولهاث وراء المال والذهب وحرص على التمتع بأسباب الرفاهية والمدنية • وكان اليهود يمالئون المسلمين لأن هؤلاء كانوا حماتهم ومعلميهم •

يقول المراكشي في كتاب «المعجب»: « إنما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وسنتنا والله أعلم بما تكنه صدورهم وتحويه بيوتهم» (ص ٣٠٥) • في هذه الآفاق المزدحمة بالتناقضات نحسب أن ابن طفيل وقف يتأمل الخلاف بين الدول وبين الحكومات وبين الناس أنفسهم الذين لم يفهموا أسرار الدين الحقيقية سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً ، ولم يتفطنوا الى ما قد يكون بينهم من روابط تدفعهم الى تأمل الحياة والطبيعة والموت والكون والى ما يتجاوز ذلك كله من آفاق الرفعة وبشائر السمو وملكوت التقديس ، ورأى أن الوعظ لا يفيد وأن النصح مردود وأن طريق الاصلاح مسدود فعمد الى أول الطرق وأكثرها أصالة وأعمقها أثراً وهو الاهابة بفطرة الانسان السليمة وبسريرته الانسانية الصافية التي لم تكدرها الأوهام ولم يصبها دنس المجتمع فنهد الى كتابة رسالته تلك •

أبرز ما في الرسالة حب واجب الوجود مع الغبطة الكبرى في هذا الحب ثم إسباغ المحبة والعطف والوفاء على جميع المخلوقات • فالظبية تعطف على الوليد وهو يقابلها بالعرفان حين كَبِرَ هو وأسنّت • ثم إن حياً «قد ألزم نفسه ألا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مضرة أو ذا عائق من الحيوان أو النبات وهو يقدر على إزالتها عنه إلا ويزيلها • فمتى وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب أو تعلق به نبات آخر يؤذيه أو عطش عطشاً يكاد يفسده أزال عنه ذلك الحاجب إن كان مما يزال ، وفصل بينه وبين ذلك المؤذي بفاصل لا يضر المؤذي ، وتعهده بالسقي ما أمكنه • ومتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه ضبع أو نشب به ناشب أو تعلق به شوك أو سقط في عينيه أو أذنيه شيء يؤذيه أو مسّه ظمأ أو جوع تكفّل بازالة ذلك كله عنه جهده وأطعمه وأسقاه • ومتى وقع بصره على ماء يسيل الى سقي نبات أو حيوان وقد عاقه عن ممره ذلك عائق من حجر سقط فيه جُرف انهار عليه أزال ذلك كله عنه » •

وهو في ذلك يعتني بنفسه • فمحبة النفس جزء من المحبة الشاملة فقد « ألزم نفسه دوام الطهارة وإزالة الدنس والرجس عن جسمه والاغتسال بالماء في أكثر الأوقات وتنظيف ما كان من أظفاره وأسنانه ومغابن بدنه وتطييبها ما أمكنه من طيب النبات وصنوف الأدهان العطرة، وتعهد لباسه بالتنظيف والتطييب حتى كان يتلألأ حسناً وجمالاً ونظافة وطيباً» •

* * *

كل فيلسوف ذو نهج فكري خاص به وبثقافته ومتأثر بملامح عصره • ويكاد أسلوبه في الكتابة يشف عن ذلك المنهج سهولة أو وعورة ، وضوحاً أو غموضاً ، هدوءاً أو استعجالاً • وفلسفة ابن طفيل ورسالته تطلع القارىء على الوصول السعيد بعد العنت والصبر والمراس ، كما تصف النضج والقلق في جوف الاطمئنان • إنها دوحة نشأت من الأرض وتغلبت على شتى العقبات ، وسمت بالملاحظة والقياس والتجربة ، وتفتحت أذهانها في صيف النضج على اليقين والانشراح مستندة الى ما في الفطرة السليمة من سداد والى ما في الشريعة من صحة ورشاد والى ما في الحكمة والتصوف من رفعة وعلو وقوة • إنها مغامرة الانسانية الرشيدة التي تقبل جانباً من الواقع وتحاول أن تبني جانباً آخر أعمق وأصل ، وهي توضح ضروب المساعي الانسانية وتنكر الباطل وتنشر المحبة والعطف وتحث في عالم مادي متنازع على تجاوز الأثرة والأهواء والميول والنزعات المادية وتحض على الأخلاق الحميدة وعلى بلوغ غبطة التأمل الحكيم وسعادة الذات الانسانية الشريفة التي تتميز بالخير والفوز والبركة • وهي تحيّي في سبيل سعادة الانسان فطرته السليمة وحسن تشوفه نحو القيم الرفيعة •

رسالة حي بن يقظان لؤلؤة من أجمل لآلىء الفكر العربي الاسلامي • هي سمفونية فلسفية إشراقية صوفية إصلاحية نفسية اجتماعية يعزفها مؤلفها أو قارئها على شكل حكاية بارعة رائعة •• إنها تلخص حسب ظن المؤلف أصل الانسان وإن كانت تهمل النظر في تسلسل مراتب المخلوقات في النشوء والتطور كما فعل مثلاً بعده ابن خلدون• وهي تسجل تاريخ المعرفة الانسانية وتتبين مراحل هذه المعرفة المتّئدة المستندة الى النظر والمشاهدة والقياس والتجربة والاستنباط والفكر ثم الحدس العلوي ، وإن كان ينقص هذه المعرفة

أثر اللغة والأثر الاجتماعي . إنهـا كماسلف في تلخيص الرسالـة تنوّه بأحداث الحياة والموت وتشيد ببعض مزايا خَلْق الانسان كالانتباه لشأن يـد الانسان في الذكاء الانساني ولشأو طاقـة النار في تحقيق شتى مآربه الضرورية ، كما تنوّه بطلاقة الفكر الحر الذي لا حدود له .كل ذلك ببيان راقٍ ورائق يتعادل فيـه المبنى والمعنى ويتساوق اللفظ والفكـر وتجري الحوادث بتقـدم منطقي مطّرد وراسخ وتوقل سامٍ ودقيق وإحاطة ذكية وشاملة . ومثل هذه الرسالـة كاف لأن تبوىء صاحبهـا وأمثـاله أعلى درجـات الفكر العالمي .

بل يمكن أيضاً النظر الى الرسالة على أنها رمز الى النوع الانساني وسؤاله لنفسه : ما أنا ؟ من أين أتيت ؟ ما شأني في الحياة ؟ ما الغاية ؟ ما المصير ؟ وكيف العمل على بلوغ السعادة ؟.

وهي في ذلك تبدو سناً حلواً ناعمـاً تتلمحه حالمـين في عصـر ازدحمت فيـه الحاجات ، وتنازعت المآرب ، وتضاربت المصالـح ، وضاقت في سبلها المساعي ، واستفحل شأن المال ، واشتد ظلام المادة .

ابن طفيل ـ فوق نثره الفلسفي الدقيق الطليّ ـ شاعر رقيق مبدع كمـا أشرنا الى ذلك في ريّق البحث وبدايته . أوليس لنا أن نحاول الاقتداء به فنأتي في الختام بأبيات مناسبة :

تنـازع النـاس في دنياهـم وغـدا ... مسعاهـم لاقتنـاص المـال والنشب
تخاصموا في انتهاب العيش واقتتلوا ... وكلهـم سـائـر يومـاً الـى العطب
لو خُيِّرَ النـاس في مـالٍ وفي أدب ... لكنت أختـار كنـز العـلم والأدب
حيّ بن يقظان ان حقّقْتَ في عمل ... رأيـت رتبتهـا في منتهـى الرتب
منـاقبٌ أبدعَـتْ تدبيـج آبـدة ... بريقهـا جـاوز الأحقـاب كالشهب
وفي العلـوم كنـوز كلهـا نِعَـمٌ ... أسـنى من النفط والدولار والذهب
كم من أوابـد أخـرى لا عداد لهـا ... تزداد وهجـاً لدى التنقيب والتعب
تنوّرتهـا عقـول الغـرب عن بُعْدٍ ... وأثبتتهـا عقـول العُرْبِ من كثب
أطل حيـاتـك في عـلم وفي كتـب ... فـلا حياة بغـير العـلم والكتـب
مـلاوة في ضيـاء الفكر لو قَصُرَتْ ... تبـدو لعيني في الآمـاد كالحقـب
مـال الزمـان بنـا لكـن نُعَدِّلُه ... بالعـلم والجـد والاتقـان والنصب
لا يدفـع الحيف عنـا غير وحدتنـا ... أقوى من الدهـر جلّت وحدة العرب

الحضور الصّوفي في الجزائر على العهد العثماني

د. مختار حبّار*

اتسم العهد العثماني في الجزائر بانتشار ظاهرة التصوف ، وسيطرتها على توجيه مسار الحياة السياسية والاجتماعية والروحية بوجه لم يسبق لهذه البلاد أن عرفت مثيلاً له ، رغم أنه كان منتشراً قبل وبعد هذه الفترة التي ندرسها . ولذلك لا يبدو عجيباً أن تتميز بداية هذه الفترة بنهاية حياة متصوف جزائري شهير ، هو عبدالرحمن الثعالبي (ت ٨٧٥ هـ)(١) ، وتنتهي ـ بعد مرور زهاء ثلاثة قرون ـ ببداية حياة مجاهد ومتصوف جزائري آخر شهير أيضاً هو الأمير عبدالقادر الجزائري (ت ١٣٠٠ هـ)(٢)، الذي قضى من عمره أربعاً وعشرين سنة في هذا العهد العثماني ، وبقية العمر في عهد الاحتلال الفرنسي . وكان اليد التي صافحت العثمانيين ، ومهدت لدخولهم الى الجزائر، هي نفسها اليد التي ودعتهم عند خروجهم منها ، وهي اليد الصوفية .

قد يعترض المؤرخون المتمسكون « بالرسميات » على هذا الطرح بادعاء أن الوجود العثماني الرسمي في الجزائر يبتدىء بالضبط سنة ٩٢٠ هجرية ، لمّا وطئت أقدام الأخوين: عروج وخيرالدين بربروس، بلاد الجزائر(٣) وينتهي سنة ١٢٤٦ هجرية ، عندما خرج هؤلاء، ووطئت أقدام الغزاة الفرنسيين أرض الجزائر(٤) . ان هذه أحداث تاريخية ثابتة لا جدال فيها ، لكن الاستعمار الفرنسي لمّا دخل الجزائر سنة ١٨٣٠ م ، لم يعمّ حينئذ القطر الجزائري بأكمله في تلك السنة ، بل ظل محاصراً في منطقة (متّيجة) أمداً طويلاً ، ويكفي أن نذكر أن الأمير عبدالقادر ظلّ مستقلاً بالجزائر الغربية زهاء سبع عشرة سنة ، عقد خلالها الجانبان (الأمير وفرنسا) معاهدات ، وتبادلا السفراء .

(*) ـ مدرس في معهد اللغة العربية وآدابها ـ جامعة وهران ـ الجزائر .

كذلك الأمر بالقياس الى العثمانيين فقبل وجودهم الرسمي بالجزائر سنة ٩٢٠ هجرية كانت أساطيلهم تجوب البحر المتوسط ، وكانت لهم علاقات جهادية مع أمراء وزعماء المدن والحصون المحاذية للبحر ، لأن المدّ الصليبي الأوروبي عامة كان يهدد مدن شواطىء شمال افريقيا بالسقوط والاحتلال ، قبل ذلك التاريخ بأمد طويل ، اذ يذكر بعض المؤرخين(٥) ان : « سقوط مرفأ عنابة (كان سنة ٨٦٧ هـ » قبل وفاة الثعالبي ، وقد سقط الى جانب مرفأ عنابة عدد من المدن الساحلية الأخرى : كالمرس الكبير ، ووهران ، وبجاية ، وغيرها ، وقد تكثفت الحملات الصليبية على الشواطىء المغاربية منذ « سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ »(٦) .

ولذلك فقد ألفينا بعض الباحثين(٧) يرون انه « من الخطا أن نبدأ تاريخ الجزائر العثمانية سنة ٩٢٠ هـ/١٥١٦ م ، كما تذهب معظم كتب التاريخ فالوجود العثماني في الجزائر ، وفي الحوض الغربي للبحر الأبيض اقدم من هذا التاريخ ، فهو يعود في الحقيقة الى أواخر القرن التاسع » ثم يقول : « وفي بعض النصوص المحلية وجدنا العثمانيين كانوا على صلة باهل المدن الساحلية الجزائرية ولا سيما رجال الدين يتعاملون معهم ، ويحاربون معهم العدو المشترك » .

ومما لا شك فيه أن عبدالرحمن الثعالبي الذي كان آنئذ (أي أواخر القرن التاسع) على رأس امارة « الثعالبة بمدينة الجزائر وسهول متيجة يحكم المنطقة حكماً ذاتياً(٨) قد عانى كثيراً من الهجمات الصليبية ، ولا يستبعد أبداً أنه كانت له اتصالات مع العثمانيين(٩) بحكم رئاسته لقبيلته ، وبحكم شهرته كرجل روحي كبير ، له كلمته المسموعة في الأوساط الشعبية ، ورؤساء القبائل المجاورة ، وهو ما نلمسه واضحاً في رسالته(١٠) التي وجهها الى نظيره محمد بن أحمد بن يوسف الكفيف ببجاية ، ومن أهم ما يمكن استنتاجه منها ، هو ذلك الفراغ السياسي ، وفقدان سلطة زمنية واحدة تجمع كلمة الأهالي ، والقبائل المنتشرة في ربوع هذه الأرض ، فلم يجد الثعالبي سلطاناً لهذه البلاد يوجه اليه خطاب الجهاد ، وحماية الشواطىء من مداهمة « بني الأصفر » لها — كما يسميهم — لمّا وجدناه فيها يشرح لنظيره «الكفيف» الخطة التي اتبعها والعدّة التي هيأها لمدافعة العدو وقتاله .

أما الربانيون الذين قيل في التاريخ ، انهم كانوا يحكمون من العاصمة تلمسان ، المغرب الأوسط ، أو « أهل الواسطة »(١١) — مقابل حكم المرينيين للمغرب الأقصى ، والحفصيين للمغرب الأدنى — فلم يكن لهم في حقيقة الأمر على هذه الربوع سلطان ، ولا حتى للحفصيين ، بدليل أن الثعالبي لم يستصرخ في رسائله(١٢) سلطاناً بعينه ، بل استصرخ فيها رؤساء القبائل ، مما يوضح لنا أن الحبل كان منقطعاً بين القبائل والسلطة الزيانيّة الرسمية ، وأنه لم يكن لأطراف هذه الأرض سلطان ، الا سلطان القبائل والعشائر تحكم نفسها بنفسها ، ولا تخضع في أغلبها ، لا لسلطان الحفصيين في الشرق ، ولا لسلطان الزيانيين في تلمسان ، الذين كانوا « نظرياً » يحكمون المغرب الأوسط وهم في الحقيقة لا يحكمون عملياً الا تلمسان وضواحيها ، وساحل البحر الى مقربة من مدينة الجزائر »(١٣) ، أما بقية البلاد الجزائرية ، فقد كانت تتبع النظام العشائري أو القبلي ، تخضع تارة عند الغزو والغلبة — للحفصيين أو المرينيين ، وتارة أخرى للزيانيين ، وفي أغلب الأحيان — وعندما تنتهي حملة الغزو — لا تخضع لأية سلطة ، الا لسلطة مشيختها ، أو رؤساء الاقطاع والأمراء .

ومـن أهم ما يمكن استخلاصه من رسالة الثعالبي أيضاً ، هو شيوع الروح الصوفية وتحكمها في توجيه الأهالي الى الجهـاد ، فمصدر رسالته في التحريض على القتـال واعـداد العدة الموصوفة لمواجهة « بني الأصفر » لم يكن كل ذلك من تدبيرعقل حكيم صقلته السياسة وحنكته تجارب الحرب، وانما كان مصدره « رؤيا »(١٤) من رؤى الشيخ الصوفية، أخبر بها أولاً: قومه وعشيرته الأقربين، ثم بعد ذلك عممها فراسل في شأنها من راسلهم ،وأكد لهم : ان ما يأمرهم به هو ما أتاه في « رؤياه » وأن العـدة التي وصفها لهـم : « دَرَق العُود »كذلك جاءت في الرؤيا ، ويذكر أن قومه أنفسهم – بدواً وحضراً – لم يجتهدوا في اعداد العدة الا لمّا علموا أن ما يمليه عليهم هو من قبيل الرؤيا ، لايمانهم العميق بكل ما يمت بصلة الى الغيب ،وثقتهم العمياء في أقطابهم من رجال التصوف ٠

ونستخلص من كل ذلك أن الأوضـاع السياسية للبلاد، كانت مضطربة، وخريطتها السياسية، لم تكن واضحة المعالم والحـدود ، فمثل الجزائر بمشيخة الثعالبة كان له ما يماثله من المشيخات والامارات في مناطـق أخرى مـن الوطن ، وظلت الذهنية الشعبية مرتبطة بالسلطة الروحية المتمثلة في « مشائخ الصوفيـة » أكثر مما كانت مرتبطـة بسلطة زمنية معينة تجمع شتات القبائل المتنافرة، فقد كان لكل مدينة رمزها الروحي ، الذي يؤلف بين القلوب ، فالثعالبي ظـلّ حيـاً – ثم ميتاً – يمثـل رمز السلطة الروحيـة في مدينـة الجزائر وأحواض متّيجـة ، وكان القطب الصوفي محمد الهواري يمثـل تلك السلطة في وهران ، وكانت وما زالت قسنطينة « مدينة سيدي راشد » وتدعى تلمسان – رغم وجـود سلطة زمنية بهـا آنئذ – « مدينة سيدي بومدين الغوث »(١٥) ، وفي معسكر كانت « الطريقـة القـادرية » التي أسسها سلف الأمير عبدالقادر هي التي تمثل تلك السلطة ، وفي أحواض شلَف وتنَس كان يمثلهـا آل أبهْلول المجاجي(١٧) ، وفي عنابة كانت المشيخة في عائلة « ساسي البوني » وفي غيرها مـن المـدن والجبال والسهول كان غيرهم من الرموز الروحيين ، الذين ما زالت آثارهم المتمثلة في الأضرحة والقبب تدل عليهم ، وتدل على ما كان لهم من سلطة روحانية على الأهالي ٠

والى جانب تلك الرموز الروحية ، كانت قائمة بعض الامارات الضيقة ، والمستقلة بعضها عن بعض ، فضلاً عن سلطة الزيانيين بتلمسان(١٨) الا أن الوجـود العثماني الفعلي والرسمي بالجزائر منذ بداية القرن العاشر الهجري عمل على تذويبهـا ، وجمـع شمل كثيـر مـن القبائل والامارات المتنافرة لتوحيدها تحت سلطته ، كما عمل العثمانيون على اعادة رسم خريطة جديـدة لأقطار المغرب العربي ، بقيت – مع بعض التعديلات الطفيفة – منذ ذلك التاريخ الى الآن ، ومنذ ذلك التاريخ أيضاً أصبحت الجـزائر تابعـة للخلافـة العثمانية مثلها في ذلك مثل جل الأقطار العربية ، بخـلاف المغرب الأقصى الذي ظـل مستقلاً عـن العثمانيـين(١٩) ٠

ولكي نعرف دور الصوفيـة السياسي وموقفهم من الوجود العثماني كسلطة بديلة ، لا بـد مـن الاشارة الى أن الحركة الصوفيـة بالجزائر كانت قـد انتشـرت بكامـل القطر قبـل مجيء العثمانيين(٢٠) ، واذا كان الحس « الوطني » كما نفهمه اليوم يكاد يكون منعدماً عنـد الخاصة بله العامة ، فان « الحس الروحي » المشوب بالتصوف هو الذي كان يجمع شتات القبائل والامارات تحت مظلته ، وبه كانوا يشعرون أن مصيرهم واحد ازاء الغزو الصليبي لهـم ، فرغم تفرقهـم وتناحرهم

أحيانا ، من أجل توسيع نفوذهم واكتسابهم لمزيدمن الاقطاعات ، الا أنهم سرعان ما توحدهم كلمة « الجهاد » في سبيل الذود عن حرمة الاسلام وحماه،وأن الصوفيــة في الغالب هم الذين كانوا يغذون تلك الوطنية الدينية » أو ما يمكن أن نطلق عليه« سلطة الصوفية » ٠

ففي تلمسان مثلاً عاصمة الغرب الجزائري الثقافية ، كان يغذي تلك السلطة الروحية كثيرون من أشهرهم عائلة ابن مرزوق ، وتلاميذها(٢١) ،وكــان « قطب زمانــه » الشيــخ أحمد بن يوسف الراشدي الدار والنسب ، دفين مليانة ، المتوفى سنة ٩٢٧ هـ(٢٢) يروج للطريقة الشاذلية ـ التي كان يرتدي خرقتها ـ في كامل القطر بعامة ، وفي الجهــة الغربية منــه بخاصــة(٢٣) وقــد اشتهر « بالقطبانيــة » و « الولايــة » في عهده ، وذاع صيته في الناس ، ونزل الى العامة يستميلهم اليه، فلقنهم « الذكر » ، فتبعه خلق كبير ، حتى النساء، وقيل له في ذلك : « أهنت الحكمة في تلقينك الأسماء للعامة حتى النساء ، فقال : قد دعونا الخلق الى الله فأبوا : فقنعنا منهــم بأن نشغل جارحــة مــن جوارحهم بالذكر »(٢٤) ٠

وكان من نتيجة نشاط الشيخ ابن يوسف ، أن انتشرت الطريقــة الشاذلية في كامــل القطر الجزائري ، فضلاً عن انتشارها في المغرب والمشرق قبله بواسطة مؤسسها أبو الحسن الشاذلي، وأتباعه، ونذكر مــن أتباع ابن يوسف الملياني في الجنوب الغربي من الجزائر : الشيخ ابن سليمان ، المعروف باسم : سيد الشيخ ، صــاحب « اليــاقوتــة » ،وتأسست في هــذه الجهــة زوايا كثيرة مــن أهمها زاويــة كرزاز ، وزاويــة عائلة ابن عبدالجبار الفجيجي(٢٥) ، والتي كانت كلهــا تتبع الطريقة الشاذلية، وقد لعبت هذه الطريقة ، ممثلة في شخص ابن يوسف المليــاني دوراً ريادياً في اعلاء « سلطة الصوفيــة » ٠ ولخطرها ، فقد اتصل العثمانيون بممثلها ، واستمالوه لجهتهم ، فما كان منه الا أن بارك وجودهم ، وتحالف معهم على محاربة العدو المشترك : الاسبان مــن جهــة ، وسلطة الزيانيين بتلمسان المتحالفة مع الاسبان على العثمانيين من جهــة أخرى(٢٦) ٠

وأما في قسنطينة التي كانت تابعة للسلطة الحفصية بتونس ، قبل الوجود العثماني بالجزائر، كان أمر « السلطة الروحية » فيها بيد أكثر مــن عائلة: أهمها عائلة الباديس، وعائلة آل عبدالمؤمن، وعائلة الفكون ، وهذه الأخيرة هي التي عمل معها العثمانيون نفس ما عملوه مع ابن يوسف الملياني في الغرب، فقد رحبت بالوجود العثماني ، وتحالفت معه ، فآل اليها مصير قسنطينة « الروحي » ، أما عائلة آل عبدالمؤمن التي كان بيدها الحل والربط والتي انتصرت للحفصيين ، فكان مآلها الخسران مع العثمانيين(٢٧) ، وفي الجزائر سبقت الاشارة الى أن صوفية الثعالبة تحالفوا مع العثمانيين، وعقدوا مع بابا عروج العثماني ، معاهدة لصد الاسبان الذين كانــوا متمركزين بصخرة « بنيــون » على مقربة مــن شاطىء المدينة(٢٨) ٠٠٠ وقــد خان سالم التومي ـ الذي كان يمثل السلطة الزمنية ـ المعاهــدة ، فخنقه الترك ، ولكن ثقتهم في رجال الدين بعامــة ، والصوفية بخاصــة ، بقيت على حالها ثابتة ، فقد عيَّن العثمانيون أبا عبدالله محمد بن علي الخروبي سفيراً لهــم مرتين على الأقــل ، يمثلهم لدى سلاطين المغرب الأقصى ، وكان الخروبي من رجال الدين والتصوف ، وهو من تلاميذ أحمد زروق ، قدم الى الجزائر من طرابلس ، فاستوطنها وتوفي بها سنة ٩٦١ هجرية(٢٩) ٠

وأما في عنابة ، فقد قصد العثمانيون عائلةساسي البوني ، التي كانت تمثل السلطة الروحية هناك ، فلم تخيب العائلة قصدهم ، بـل توطدتبينهم علاقة حميمة على مر الزمان ، وتتجلى هـذه العلاقة مـن خلال الرسائل(٣٠) المتبادلة بين محمد ساسي البوني ، ويوسف باشا (الجزائر) من جهة ، وبين أحمد بن قاسم البوني (الحفيد) ومحمد بكداشمن جهة أخرى · ويمكن النظر الى موضوع هذه الرسائل من جوانب ثلاثة :

الأول : يفيد تقرب السلطة العثمانية مـنالصوفيـة ، واضفاء هالة مـن التقديس الأعمى عليهم ، وايمانها العميق بهم كأولياء الله الروحيينفي الأرض ·

والثاني : يتمثـل في ما يمكـن أن نسميه « سلطة الصوفية » على كل من الحكام والرعية ، لخضوع الكل لمشورتهم عند العزم ·

والجانب الثالث الذي يمكـن أن نستشفه منهـا ، هو تعميق وترسيخ « التفكير الغيبي » في مقابل تعطيل التفكير العقلي ، وتهميش ممثليـهالذين تشتم منهم رائحة الاصلاح ·

وفي داخـل الوطن اقتفى كثير مـن مشايخ الصوفية أثر من سبق في تحالفهم مع العثمانيين ، فاتباع الملياني وتلاميذه اقتفوا في أغلبهم صنيعشيخهم ، نذكر منهم محمداً بن شاعـة الذي أعفـاه العثمانيون من الضرائب لموقفه الايجابي منهم(٣١)،ومن غير المستبعد أن يكون تلميذ الملياني : محمد بن عبدالجبار الفيجيجي المتوفى سنة ٩٥٠ هجرية قدتعاون مع العثمانيين اقتداءً بشيخه ، فقد كانت له زاوية بمنطقة تاسالة، جعلها وقفاً على المريدين الذاكرين(٣٢) ·

وفي ضواحي شلـَف كان يرابط الشيخ ابن المغوفل ، وهو من صلحائها الروحيين ، وكان له في قومه نفوذ ، لذلك كان أول من قصده العثمانيونفي هذه الجهة ، وطلبوا اليه مبايعتهم ، ومناصرتهم على الزيانيين ، ومباركة حملتهم عليهم ، فكان لهممنه ما أرادوا ، وجهـّز لهم حملة وبعث معهم ولديه بعـد أن اعتذر الشيخ عـن الذهاب معهم(٣٣) ·

وفي مجاجة قرب مدينة تنـَس ، كانت ترابطعائلة أبهلول المجاجي ، وقد أسست هـذه العائلة زاوية بمجاجة ، وكان من بين أهداف مؤسسيها : الجهاد في سبيل حماية الاسلام والأرض الاسلامية من الغزو الصليبي · وقـد تعاونت هذه العائلةـ لذلك ـ مع العثمانيين، وكان من أشهر رجالاتها لهذه الفترة ، الشيخ محمد بن علي أبهلول المجاجي(٣٤) ، وقـد ظلت هـذه الزاوية تؤدي دورها في الجهاد في العهد العثماني ، ولم ينقطع هـذا الدوربذهاب العثمانيين ، اذ برز أحفاد الشيخ كمجاهدين مـع الأمـير عبدالقادر الجزائري ، الذي تصـدىللغزو الفرنسي(٣٥) ·

ولقد تعمدت سوق هذه الطوائف من المتصوفةوالطرق الصوفية التي سطع نجمها ، وتزامن مـع الوجود الفعلي للعثمانيين بالجزائر لسببين :

الأول منهما ، هو أن الحركة الصوفية بهذهالبلاد كانت موجودة وشائعة قبل الوجود العثماني في الجزائر ، فليس العثمانيون هم الذين أوجدوها،أو جلبوها معهم ، كما قـد يتبادر الى كثير مـن الأذهـان ، بسبب أن فترتهم هي التي ذاع فيهـاالتصوف والطرق الصوفية أكثر من أي وقت آخر،

فلم يكن العثمانيون في حقيقة الأمر ازاء انتشار ظاهرة التصوف بشكل يبعث على الدهشة والتساؤل، الا كمصن يصب الوقود على النار(٣٦) ٠

وأما الثاني منهما ، فهو أن الشعور « بالوحدة الوطنية »(٣٧) سياسياً كان منعدماً ، بمعنى أن حلقات السلطة الزمنية «التي كانت تمثلها الدولة الزيانية بتلمسان كانت مفككة ، ولم تكن شيئاً مذكوراً في الواقع ، وان كانت نظرياً تقوم ببعض ذلك ، كما سبقت الاشارة ٠ والذي كان يقوم مقام تلك الوحدة هو «الدين» بعامة ، و «التصوف» بخاصة ، أو ما يمكن أن نسميه « بالسلطة الصوفية » ، التي كانت تغذي تلك الروح عن طريق « سلاسلها » و « طرقها » الصوفية ، التي كانت بمثابة الأحزاب في وقتنا المعاصر ، تشعر الأتباع ، والناس عموماً بالمصير المشترك كلما داهمهم خطر المد الصليبي، حتى اذا جاء العثمانيون ألفينا الصوفية هم الذين سارعوا في بادىء الأمر بحكم « سلطتهم الروحية » على الأهالي الى مبايعة العثمانيين ، والتعاون معهم ، ومباركة حركتهم الجهادية ، في حين ان ممثلي السلطة الزمنية مثل (الزيانيين) وبعض الأمراء مثل سالم التومي ، وغيره قد تنكروا للوجود العثماني وحاربوه ، بل تحالف بعضهم مع العدو (الاسبان) على أن يذعن للسلطة العثمانية(٣٨) ٠

ولقد شجع العثمانيون رجال التصوف ، وأهل الطرق الصوفية ، وذلك بانحيازهم في بادىء الأمر الى رجال الدين والتصوف ـ كما أسلفنا القول ـ وفيما بعد شاركوا مشاركة فعلية في بناء القبب والأضرحة والمزارات ، وفي « دار السجل »الوطني عدد كبير من الوثائق التي تدل على تلك المشاركة السخية ٠ وقد تولت (المجلة الافريقية) بنشر بعضها ، ويصادف المتصفح لها كثيراً من العبارات مثل « أما بعد فهذا ضريح الولي الصالح الزاهد الورع (كذا) سيدي عبدالله بن منصور أدركنا الله برضاه آمين(٣٩) ٠

ويجد القارىء أيضاً عبارات أو نصوصاً كثيرة تدل على مشاركتهم في تشييد القبت مثل : « أمر بتشييد هذه القبة المباركة مع التابوت أمير المسلمين السيد مصطفى باي أيده (كذا) الله ، ونفعه بذلك سنة ثمانية عشر بعد المائتين وألف »(٤٠) ٠ ومثل : « أما بعد أمر ببناء هذا المقام السعيد ، أمير المسلمين ٠٠٠ » الى آخر النص الذي يوضح أن صاحبه أمر بذلك ويقصد من وراء عمله « وجه الله ، ورجاء ثوابه »(٤١) ٠

كما ساعدوا « الصالحين » ببناء الزوايا والرباطات ، وأنفقوا في سبيل ذلك أموالاً سخية ، فرتبوا لبعضها أوقافاً خاصة(٤٢) وأعفوا المقربين منهم من الضرائب(٤٣) ومنحوهم حرمة وحصانة ، فالمستنجد بحماهم لا يلحقه أذى ما دام في حمى « الشيخ » ولو كان المستجير مجرماً !

وبذلك وجد التصوف المجال خصباً للنماء والانتشار والشيوع بين العامة والخاصة ، وتطعم بالمعتقدات الشعبية المحلية فانتشرت ـ لذلك ـ بجانبه الخرافة والايمان بالشعوذة، وعمت الطرقية، فلا نكاد نجد علماً من الأعلام المشهورين بعلم الظاهر أو الباطن غير منتسب لطريقة معينة أو لشيخ معين، وكيف لا، وحكمة أبي يزيد البسطامي القائلة : « من لا شيخ له فشيخه الشيطان »(٤٤)٠ كانت رائجة على كل لسان ، لذلك كان الناس يفخرون بانتسابهم الى هذه الطريقة أو تلك ، والى هذا الشيخ أو ذاك ، وكثيراً ما نجد في تراجم الأعلام لهذه الفترة عبارة مثل : فلان « أخذ » عن

الشيخ الفلاني « علم الظاهر » أو « علم الباطن »أو « هما معاً » ، وأما العامة من الناس ، وبخاصة منهم النساء ، فيكتفون غالباً بالاعتقاد الراسخ في « الشيخ » أو « الضريح » القريب منهم، ويلجأون اليه كلما أصابهم ضرّ أو ألمّت بهم مصيبة(٤٥) •وما تزال آثار هذه الاعتقادات سارية الى اليوم في بعض الأوساط الشعبية ، وأحياناً في أوساط المتعلمين (وحتى المثقفين منهم) •

ولقد أعطى ذلك التجاوب بين الصوفية والسلطة العثمانية ، نتاجاً ثقافياً غزيراً ، مشوباً في أغلبه بالتصوف ، والتفكير الباطني ، المعتمد على المجاهدة وتصفية النفس بالترك والزهد والتخلي للتحلي ، وقلّما نجد نتاجاً ثقافياً يعود الى هذه الفترة قد نجا من « حمّى » التصوف ، ذلك لأن أغلب الشيوخ المتصدين للافتاء والتدريس كانوا يجمعون بين علمي الظاهر والباطن ، كما أن المؤسسة التعليمية المفضلة كانت غالباً هي « الزاوية » وكانت المواد المدرسة في أغلبها دينية مشبعة بروح صوفية ، وكان التصوف من بين المواد المدرسة من خلال بعض الكتب المشهورة : كالرسالة القشيرية ، وحِكَم ابن عطاءالله ، واحياء علوم الدين للغزالي ، وقوت القلوب لأبي طالب المكي ، وغيرها من أمهات الكتب والتراجم •

وكانت «الزاوية» الى جانب قيامها بالتعليم، تقوم بوظائف أخرى مكملة لغرس بذرة « الفكر الباطني » في الطالب أو المريد ، والذي يغرس ذلك هو عادة « شيخ الزاوية » أو « مقدمها »(٤٦)، ففيها يتم أخذ « العهد » أو الطريقة ، وتعتبر الزاوية ، والشيخ ، والمريد ، والطريقة ، من أهم الأسس التي تعدّ الفرد في المجتمع الجزائري إبّان العهد العثماني اعداداً « باطنياً » وتجعله قابلاً لتلقي « المعرفة الوهبية » اذا « فتح » الله عليه ، وفي الوقت نفسه يتقلص تلقائياً بناء العقل فيه ، ويصبح دوره مقتصراً على الحفظ والتخزين والاعتقاد بلا انتقاد ، ما دام أن « العلم » الذي ينشده ليس من قبيل العلم الذي يتم ادراكه بالعقل ، فالعقل في نظر مجمل الصوفية يولد وهو يحمل معه عاهة قصوره ، يقول الكلا بادي(٤٧)« العقل محدث والمحدث لا يمثل الا نفسه » •

وان كنا لا نستطيع احصاء كل الزوايا التي كانت تقوم بتلك المهمة فاننا نحاول أن نذكر هنا أشهرها مع الاشارة الى أهم الطرق الصوفية ، ولا غرو أن أشهر طريقة من حيث الذيوع والانتشار ، كانت الطريقة القادرية ــ الشاذلية ،كما سلف القول ، ليس في الجزائر فحسب بل وفي العالم الاسلامي قاطبة(٤٨) •

وحسب بعض الروايات(٤٩) فان الطريقة القادرية التي تنتسب الى الشيخ عبدالقادرالجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ(٥٠) قد انتقلت الى الجزائربخاصة والمغرب بعامة عن طريق الشيخ أبي مدين التلمساني المتوفى سنة ٥٩٤ هجرية بتلمسان ،وتقول نفس الروايات : ان أبا مدين التقى بالجيلاني في موسم من مواسم الحج ، وفي الحرم المكي كان اللقاء ، وانه لمّا عاد الى وطنه أشاع الطريقة القادرية ونشرها في المغرب عموماً عن طريق مريديه وأتباعه ، وعن طريق هؤلاء انتشرت في كامل بلاد المغرب ، والمشرق ، وانتشرت معها وبها الزوايا والمشيخات •

وكان من تلاميذ أبي مدين عبدالسلام بن مشيش ، وكان هذا أستاذاً ومربياً لأبي الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية(٥١) والذي كان قد ولد سنة ٥٩٣ هـ باحدى قرى المغرب الأقصى بسنة واحدة قبل موت أبي مدين التلمساني ،وقد استقر أبو الحسن بمنطقة « شاذلة » بتونس،

فنسب اليها ، وظل يتردد بينها وبين الاسكندرية والقاهرة كلما طرأ طارىء ، وقد وسعت حركته وتنقلاته هذه ، معارفه وتلاميذه ، وكثر بذلك المنتسبون الى طريقته الشاذلية التي هي فرع من القادرية ، وقد توفي أبو الحسن الشاذلي سنة(٦٥٦ هجرية)(٥٢) ؛ ونريد أن نصل من كل ذلك الى أن أغلب الطرق في الجزائر « قادرية » الأصل ،رغم أنها تسمى « بالشاذلية » أو « باليوسفية » أو غيرها من الأسماء •

وقد يتساءل سائل عن سبب تسمية هذه الطرق بأسماء أصحابها من المشايخ دون الانتساب الى الأصل أي « القادرية » ؟ وأرى أن مرجع ذلك يعود الى أحد مبادىء الطريقة القادرية التي كان يبثها عبدالقادر الجيلاني في مريديه وهو «الانفصال»(٥٣) بمعنى أن المريد بمجرد أن يصل الى مستوى المشيخة ، ويجيزه الشيخ الذي أخذ عنه ،فهو في حل من أمره ، بل من المستحب والواجب عليه أن (ينفصل) عن شيخه ويصبح في عداد الشيوخ الذين يعتمدون على أنفسهم في اجتهاداتهم وسلوكهم، ويمكن لهم عندئذ أن يؤسسوا زواياهم،وأن يدعوا الى طرقهم التي تسمى غالباً بأسمائهم، كما هي الحال مع أبي الحسن الشاذلي الذي تنتسب اليه معظم الطرق الصوفية الموجودة بالجزائر ابّان العهد العثماني ، ولكن معظم تلك الزوايا ، تسمى بأسماء أصحابها أيضاً مثل (الزاوية البكرية التي أسسها الشيخ البكري بمنطقة تمنطيط ، وكان قادرياً ــ شاذلي المذهب ، وتوفي ١١٣٣ هـ)(٥٤) وقد سبقت الاشارة الى أن سيد الشيخ **الياقوتة** ، كان قادرياً ــ شاذلي المذهب ، كما أن عبدالكريم الفكون ، وأحمد بن عمار ، كانا مثله على الطريقة الشاذلية •

أما في الشرق الجزائري فقد اشتهرت في كل من الجزائر ، وقسنطينة ــ الطريقة الرحمانية ، التي أسسها عبدالرحمن الأزهري (مجاورة) وتأسست بها عدة زوايا من أهمها زاوية باش تارزي بقسنطينة التي أسسها عبدالرحمن باش تارزي ،والزاوية « العزوزية » بضواحي بسكرة التي أسسها تلميذهما ابن عزوز البرجي المتوفى سنة ١٢٣٣ هجرية ، وقد امتدت فروع هذه الزاوية الى تونس وطرابلس ، عن طريق أبناء ابن عزوز البرجي •

وكانت الطريقة التجانية التي أسسها أحمد التجاني المتوفى سنة ١٢٣٠ هجرية من أهم الطرق التي شدت انتباه الناس اليها ، لأنها كانت من بين الزوايا أو الطرق التي ثارت في وجه الوجود العثماني ، ولها عدة فروع في المغرب الأقصى والسينغال وغيرها من الدول الافريقية ، وفي منطقة القبائل نذكر الحسين الورثلاني المتوفى سنة ١١٩٣ هجرية(٥٥) الذي ورث الطريقة والزاوية عن جدوده اذ كانت لهم ببني ورثلان زاوية عامرة بالطلبة والمريدين •

وان كنا نفتقد الآن الى احصائيات رسمية لكل الزوايا ومذاهبها في الجزائر فان ذلك لا ينفي أن عددها كان كبيراً مع نهاية العهد العثماني ،ونذكر على سبيل المثال أن مدينة قسنطينة وحدها كان بها زهاء ست عشرة زاوية(٥٦) ومدينة تلمسان كان بها ما يزيد عن ثلاثين زاوية(٥٦) ، وأما بمنطقة القبائل وبجاية فقد كانت من أكثر جهات البلاد كثافة من حيث عدد الزوايا اذ بلغ عددها نحو الخمسين(٥٦) ، هذا في شمال البلاد ،أما جنوبها فلم تكن تخلو عشيرة منها ، بل لقد كانت الزاوية ترحل أحياناً مع الراحلين كما هو بالقياس الى زاوية سيد الشيخ ، الذي اضطرته الخلافات المذهبية الى التنقل بزاويته •

وفضلاً عما كانت تقوم به الزاوية من وظائف متعددة تحدثنا عن بعضها فانها كانت كذلك مخازن للكتب ، ومن أشهرها مكتبة زاوية الفيجيجي التي وصفها ابن عبدالسلام الناصري ، وأشار الى اعتناء آل الفيجيجي بها، ومباهاة غيرهم بما فيها من نفائس الكتب(٥٧) ، وكانت زاوية سيدي الهواري بوهران التي آلت الى تلميذه ابراهيم التازي ، تحتوي على مكتبة ضخمة(٥٨) . ومما لا شك فيه أن الاستعمار الاسباني قد انتهبها، وأكمل انتهابها الاستعمار الفرنسي بعده. وقد ذكر الكفيف في رسالته الى الثعالبي(٥٩) عنايته بمكتبته وتدبير أمر تهريبها خارج المنطقة الحضرية خوفاً عليها من الانتهاب لأن شواطىء بجاية كانت بدورها عرضة لهجمات الاسبان آنئذ. وكانت لعائلة الفكون مكتبة ضخمة وغنية بنفائس المخطوطات وكان اعتماد الفكون (الحفيد) في ثقافته الدينية والصوفية والأدبية عليها كبيراً وكانت مكتبة الفكون من ضمن المكتبات التي مسها الاحصاء أثناء الحملة الفرنسية على الجزائر(٦٠) كما كانت مكتبة عبدالرحمن باش تارزي من أشهر المكتبات بقسنطينة اذ ذكر تقرير الاحصاء الفرنسي أن بها ما يزيد عن خمسمائة مخطوط جلّها في الفقه والدين(٦١) وحسب هذا التقرير ، فلا تكاد تخلو زاوية أو مسجد من مكتبة .

ولقد ساعدت هذه المكتبات على نشر الثقافة الدينية في أوساط المريدين المترددين على مشائخها، ويذكر أحد التقارير(٦٢) أن المستوى الثقافي للجزائريين في نهاية العهد العثماني كان أفضل بكثير من مستوى الجنود الفرنسيين الذين كانوا في الجزائر أثناء حملتهم على العثمانيين بها ، اذ شهد شاهد من قواد الجيش الاستعماري يومئذ أن الأمية بين جنوده بلغت (٤٥٪) ، وبالمقابل كان عدد القادرين على القراءة والكتابة من الجزائريين يفوق بنسبة (٥٥٪) ، ولكن بعد أكثر من قرن من الاحتلال الفرنسي يقول تقرير آخر(٦٣) : ان الأمية وصلت بين الجزائريين ما بين (٧٠-٧٥٪) مما يدل على سياسة التجهيل التي انتهجتها فرنسا في الجزائر .

لكن اذا كانت هذه الاحصاءات تبين بعض جوانبها ارتفاع نسبة المتعلمين في العهد العثماني، فانها لم تكشف بذلك عن درجة وعي هؤلاء المتعلمين. لقد كان جلّ المتصوفة ــ الذين ندرس أثرهم ــ متعلمين ، بل ومؤلفين ، ولا أريد أن أشير هنا الى جلّ مؤلفاتهم(٦٤) ، ولكن أريد أن أشير الى أنها كانت أغلبها في الدين والتصوف ، والى أنها كانت حصيلة للفكر الباطني السائد الذي غذته المؤسسة التعليمية التي كانت غالباً « زاوية » أو مذهبها القائم على أساس « إعتقد ولا تنتقد » ، كما كان قائماً أيضاً على أساس « العلم الوهبي » المنافي للتحصيل القائم على العقل . ودوافع التأليف غالباً ما كانت قائمة على أساس غيبي ، أو خدمة للطريقة أو حباً لأولياء الله ، ورجاء كراماتهم ورضاهم .

ولنا أن نتخذ لذلك كتاب « البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان » لابن مريم » نموذجاً لمجموعة كبيرة من المؤلفات مشابهة له مضموناً ، لندرك أن الأساس الذي قام عليه تأليف كتابه ــ وهو في التراجم ــ لا يخرج عما ذكرنا آنفاً ، وفي معناه يقول في المقدمة « انه اذا كان مجرد حب الأوليات ولاية ، وثبت أن المرء مع من أحب ، فكيف بمن زاد على مجرد المحبة بموالاة أولياء الله تعالى وعلمائه . وخدمتهم ظاهراً وباطناً بتسطير أحوالهم ، ونشر محاسنهم ، في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، نشراً يبقى على مرّ الزمان . ويزرع المودة لهم ، والحب في صدور المؤمنين للاقتداء بهم بحسب الامكان(٦٥) .

واذا كان منطلق ابن مريم في تأليفه « لبستانه » منطلقاً باطنياً يخضع لروح العصر كما هو واضح من بعض مقدمة الكتاب ، وكذلك متنه ، فاننا نأتي - بالمقابل - بنموذج آخر ، مناقض له، يزعم فيه مؤلفه الشيخ عبدالكريم الفكون(٦٦)أنه سيشهر سيف العقل علىكل الباطنية والدجاجلة بوجه خاص ٠ وقد قسم الفكون كتابه الى مقدمة،وثلاثة فصول وخاتمة ، وبين في المقدمة أن الذي حمله على وضع هذا الكتاب هو ما كن يراه من انقلاب الأوضاع أمام عينيه : فالجهلة أصبحوا أدعياء للعلم ، والعلماء أصبحوا في موضعالخساسة ، وأهل الطريقة الحقة علاهم أهل الزندقة والبدع ، وبعد ذلك يقول « كل ذلك والقلب منييتقطع غيرة على حزب الله العلماء أن ينتسب جماعة الجهلة المعاندين الضالين المضللين لهم ، أن يذكروافي معرضهم ، وغيرة على جنب السادة الأولياء الصوفية أن تكون أراذل العامة ، وأنذال الحمقىالمغرورين أن يتسموا بأسمائهم »(٦٧) ٠

لكننا عندما نقرأ هذا الكتاب ، نجد سيفالعقل الذي سلّه الفكون حاداً في المقدمة ٠ مغلولاً في الفصول ، وأن هذا السيف بدوره لم يتحرر منروح العصر الصوفي الذي كان مسيطراً على الثقافة العامة ، وحتى لا نظلم الشيخ نعرض بعض ما جاءفي الفصل الأول الذي خصه « لمن لقيه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم ، ومن لم يلقهم ممن توفوا،ونقلت اليه أحوالهم وصفاتهم يعرف بهم ويذكر مناقبهم » وقد جعل على رأس هذه الطائفةعمر الوزان (ت ٦٩٥ هـ) وهو من أعيان قسنطينة الذين عاصروا الفكون (الجد) ، وقد وصفهالفكون(الحفيد) أي صاحب الكتاب ، بعدة أوصاف منها قوله: « شيخ الزمان » ومنها « العالم العارف باللهالرباني » ومنها «وله في طريق القوم اليد الطولى» ومنها « ويقال انه دعوة الشيخ الصالح القطبالغوث أبي العباس أحمد زروق » ومنها « ومن كراماته رضي الله عنه ٠٠٠ » ثم يذكر عدداً منها(٦٨) وللعلم فهو لا ينكر كلذلك بل يشيد به٠

واذا واصلنا فحص كتاب الفكون محاولة منا لمعرفة المقياس الذي يحكم به ما صح عنده من التصوف ، وما هو من قبيل البدع ، نجده يتناقضأحياناً مع نفسه فما نسبه الى الطائفة التي جعلها في فصل المغضوب عليهم(٦٩) نجد له نظيرهأو أكثر منه بدعة أحياناً مما نسبه الى الطائفة التي جعلها في فصل الذين رضي الله عنهم (٧٠) ،فينكر ذلك عمن سبق ، ولا ينكره عمن لحق ، بل كان يميل الى الاعتقاد به أكثر مما كان ينفر منه،فهو القائل : « وكرامات الأولياء مما يجب الايمان بها ، ورؤية الملائكة جائزة »(٧١) وكان ذلكتعليقاً منه على حكاية سمعها عن فقيه ، قيل له : أنه رأى « جبريل وميكائيل وبين يديهما ثلاثة أباعر » ، ولكنه بالمقابل يعيب على الشيخ محمد ساسي البوني أنه صار في « بلد بونة » أيعنابة « رئيس الباطن والظاهر » ويعتقد الناس في البلد ونواحيها أنه «وارث شيخه وخليفته»(٧٢)ثم ينكر عليه أنه «ادعى مقام الأكابر من الأولياء» ثم يذكر أنه كان شاعراً ، وينكر عليه أنه قد ملأشعره بعبارات « الحان والدنان » و « يزعم أنه شرب من كأس الصفوة » وأنه « جلس على بساطالقرب » وأنه « عرج به الى السماء وكشف له عن أحوال الملكوت »(٧٣) وكل هذه وغيرها مما يتهم به الفكون ، الشيخ البوني ، ويعتبر ذلكمن البدع ! وهو كما نرى من « شطحات » الصوفية ٠

وعندما حاول أن يضع مقياساً لتصديق مثلهذه الرؤى ، وخوارق الكرامات والشطحات الصوفية ، مرة ، وانكالها هي نفسها مرات أخرىنجد ذلك المقياس يتلخص في : أن لا انكار على من

ياتي بها أو يرويها عن نفسه وغيره ، اذا « كـان بالمثابة المثلى من طريق أتباع السنة والمعرفة بالله والحق أبلج والباطل لجلج »(٧٤) ٠

ومما يلاحظ على شيخنا الفكون ــ رحمه الله ــ أن ذلك المقياس ــ ان جاز تسميته كذلك ــ كان كثير التلجلج والاضطراب في يده ، ويبدو أنه كان يعيش نوعاً من القلق والاضطراب بين عقله وقلبه، فرغم أننا ألفيناه في (المقدمة) عازماً على تنصيب (العقل) ميزاناً للحكم على الأمور الغيبية بعامة والتصوف منهـا بخاصة ، لاسقاط سلطة العقل الباطن من عرشه، الا أن الشيخ ــ وكما يبدو لي ــ قـد أخفق في ذلك اخفاقاً كبـيراً ، وانتصر عليـه « قلبه » انتصاراً خطيراً ، لأنه لانَ أمامه واستسلم له ، ولم ينكر ما ينسب الى التصوف من علم لدني، وولاية ، وكرامـة ، وما الى ذلك مـن المغيبات ، ولكنه أنكر على مـن يرتدي ذلك مدعياً أو ليس أهـلاً له ، ومن ثمّ بات التصوف في نظر الشيخ مثل « الجبّة » أو « الخرقة » يلبسها أحدهم فتزينه، وهي نفسها يلبسها آخر فتشينه ، **لا لعيب فيها ، بل في من يلبسها ٠**

وهكذا نلاحظ أن لا الفكون ولا غيره استطاع أن ينفلت انفلاتاً كلياً **من طوق التصوف الذي كان يحوط العهد العثماني** في الجزائر بطوقـه ،ويطبعه بطابعه ٠ فظهر ذلك جلياً **في مؤلفات هذا العهـد** ، مثل مؤلف ابن مريم ، ومؤلف **الفكون** ،فضلاً عن مؤلفات أخرى **مثل رحلة الورثلاني(٧٥)** ورحلة ابن عمار(٧٦) ورحلة ابن حمادوش(٧٧) ورحلة العياشي(٧٨) وتراجم **الحفنـاوي(٧٩) التي كتبها بعـد العهـد العثماني** ، وغيرها ، وهي في أغلبها عبارة عن تراجم وأخبار ، **اعتنت بالحركة الصوفية ممثلة** في الشخصيات المترجم لهـا ، فاذا تصفحناها فاننـا نجـد **العبارات الصوفية مثـل (العـارف بالله)** و (الشيـخ الرباني) و (صاحب المكاشفات والكرامات) و **(من كشف له الغطاء) و (مجاب الدعوة) وغيرها** من الأوصاف التي لها علاقة (بالكرامة) و (الولاية) و **(القطبانية العظمى) هي** العبارات الرائجة أكثر من غيرها ٠

كما ظهر ذلك في النظم بعامة ، ومن أشهر المنظومات التي تعود لهذا العهد **منظومة عبدالرحمن الأخضري** المتوفى سنة ٩٥٣ هجرية(٨٠) وقد سماها« القدسية » وأطال نفَسَه فيها **فجاءت في حوالي** ثلاثمائـة بيت ، وقـد اعتز الفكون بالمنظومـة القدسية اعتزازاً كبـيراً ، وتمثل بهـا **في منشور** هدايته كثيراً ٠ لأنه يتفق مع الأخضري ٠ **في الحملة** على « الدجـالة » الذين ينتسبون الى **التصـوف لاستلاب الناس** أرزاقهم ، والأخضري في منظومته،مثل الفكون في منشوره ٠ لم **يكن ضد التصوف في حد ذاته** ــ لأنه مثل الفكون صوفي ــ ولم يكن ضد النعوت الصوفية في حد ذاتها **كالولاية والقطبانية وما اليهما** ، ولكنـه كان ضد الأدعيـاء الذين يخالفون نهـج الكتاب والسنّة ، **وأنه لم يقبـل** بغيرهما حكماً في الفصل بين الادعاء والصدق أو بين «الافك والصواب» كما يقول في القدسية(٨١) :

واعـلم بـأن الوالي الربَّـاني   لتـابـع السنّة والقــرآنِ

والفرق بـين الافـك والصواب   يعــرفُ بالسـنّة والكتــابِ

وفي بعض الأحيان نجده يعتمد على أقوال الصوفية المنصفين ، لاستنتاج بعض المقاييس التي

يمكن له بواسطتها أن يحكم على « صاحب الافك من صاحب الصواب » ، ومعرفة الحقيقة من الادعاء ، وفي معنى ذلك يقول(٨٢) :

وقال بعض السادة الصوفيّة مقالةً جليلةً صفيه°
إذا رأيت رجلاً يطير أو فوق ماء البحر يسيرْ
ولم يقف عند حدود الشّرع فانه مستدرجٌ وبدعيْ

ويبدو لنا أن الأخضري في قدسيته قد وفق الى تحديد المنهج الذي يجب أن يقوم عليه التصوف، ويتمثل في الحث على الرجوع الى الكتاب والسنّة لأن طريقة أهل السنّة أو السلف الصالح قائمة على اقامة الشريعة أساساً للوصول أو الترقي في سلّم الحقيقة ، وذلك هو ما يقابل عند الصوفية القيام بالمقامات أساساً للوصول أو الترقي في سلّم الأحوال المفضية بالسالك الى الحقيقة • وبذلك يترقى الولي أو السالك على بيّنة وشرعة، لا على الادعاء الباطل(٨٣) ، ومن أهم الأبيات التي يغمز بها الدعاة الذين يركبون الدين لابتزاز الناس قوله(٨٤) :

كفاكَ في جيعهم خيانةْ أن قتلوا العبادَ بالديانةْ

واذا كان الأخضري قد وظّف « قدسيته » لانتقاد أباطيل العصر، فان بعضهم الآخر قد وظّف النظم لنشر الطريقة الصوفية التي يعتنقها ، وهم الأغلب الأعم ، ومن هذه المنظومات « المنظومة الرحمانية » لعبدالرحمن باش تارزي المتوفى سنة ١٢٢٢ هجرية(٨٥) التي عرف فيها ناظمها بطريقته ومؤسسها ، وبيّن فيها شروط المريد الذي يسلك الطريقة الرحمانية ، وتكلم فيها عن آداب السلوك، وعلاقة المريد بالشيخ ، وعلاقة الشيخ بمريده ،كما بيّن فضائل الطريقة التي وصل الكثير من السالكين بفضلها الى الحقيقة ، حسب رأيه وتتضمن المنظومة فضلاً عن ذلك سلسلة الطريقة في الشريعة والحقيقة، وقد تولى شرح هذه المنظومة، الشيخ مصطفى باش تارزي ابن الناظم بعد وفاة والده وبعد الحاح كثير من محبي الطريقة كما يقول الشارح(٨٦) •

ومنها منظومة ابن عزوز البرجي المنتمي الى الطريقة الرحمانية ولذلك فمن غير المستبعد أن يكون البرجي قد تأثر بمنظومة أستاذه باش تارزي فألّف هو منظومة في التصوف خدمة للطريقة ولمريديه ، وقد سماها « رسالة المريد في قواطع الطريق وسوالبه وأصوله وأمهاته » وقد اتخذتُ منها نموذجاً لمنظومات هذا العقد ، وألحقتها بسفر للتراجم والمختارات الشعرية ، لنعرف من خلالها اللون الثقافي السائد الذي كان يروّج له أغلب أصحاب المنظومات لهذا العهد(*) •

وظهر ذلك بخاصة في الشعر الصوفي ، عندما يجد المتصوف بعض القدرة على صياغة الشعر ونظمه • وتعتبر مجمل القصائد التي وقع عليها اختيارنا(*) صوراً صادقة لما كان يسود العصر العثماني ـ الذي صنعته الصوفية ـ من اعتقاد راسخ بالأولياء والصلحاء والأقطاب ، وبكراماتهم

(*) مخطوط عندي ، لم يطبع ، بعنوان : مختارات الشعر الصوفي في الجزائر على العهد العثماني • جمع وتحقيق وتخريج ، صاحب هذا المقال •

وخوارقهم، والتوسل بهم ورجاء بركتهم، ورحمتهم،ومنهم عليهمبالفتح عليهم، كما فتح علىأوليائهم، والتقرب بهـم ، وجعلهم « وسطاء » بينهم وبينمن ترجى شفاعته ، ومن يتقى غضبه وعقابه ، وترجى رحمته ورضاه ومنّـه .

ولقد لمست عند تعاملي مع شعر هؤلاء ، أن أغلب **الصوفية كانوا يعتبرون القصيدة المتدينة** بعامة ، والمتصوفة بخاصة ، من أقدس المقدسات التعبيرية ، بعد القـرآن والحديث ، فقد فسحوا لهـا المجال واسعاً ، لتدخل المساجد مـن أبوابها الواسعة، ولتتوّج بحضورها محافل المآدب والمناسبات الدينية ، وبخاصة منها المدائح النبوية التي ينظرفيها منشئها الى النبي (ﷺ) نظرة روحية خالصة، ولذلك فان قصائد المـدح النبـوي هي من أكثر الشعر انشاءً وانشاداً في هذا العهد ، تليها مـن حيث الكثرة والأهمية، قصائد الاستغاثة والتوسل بالأولياء، ومشائخ الطرق، الأموات منهم والأحياء، ثم تأتي بعض الأغراض الأخرى التي لهـا صلـة بالتصوف ، كالوقوف على الأطـلال ، والغزل ، والرحلة ، هذا فضلاً عن بعض القصائد الأخرى كالاخوانيات والمراثي ، ووصف الطبيعـة ، التي **لا تخلو في عمومها من النفحات الروحية أو الصوفيـة .**

ولقد بنيت أغلب قصائد المديح النبوي ـ التي اطلعت عليها ـ على نظرية «الحقيقة المحمدية» التي يسري سريانها من قصائد السلف الى قصائد الخلف ؛ وقد نقل الينا ابن عمـار في رحلته(٨٧) صوراً عميمة عـن الاحتفال بالمـولد النبـوي في الجزائر إبّان العهـد العثماني ، ممثلة في بعض الأخبار ، وفي بعض المولديات ، والمدائح النبوية، التي تحتفل بسريان « النور المحمدي » في الوجود ؛ وقد يختلف شكل التعبير عن ذلك من القصيدة الى الموشح ، الى السمطية ، لكن الفكرة تظل واحدة ، وهو ما حاولنا دراسته في كتـاب مـن جزئـين :أحـدهما ، دراسة عرفانيـة ، وآخرهما دراسة أسلوبيـة .

وخلاصة القول في هذا المقال ، هو أن الجزائر العثمانيـة ، قـد تحولت في آخر المطـاف الى « ورشـة » لصناعة طرق « علم الباطن » ، وقدطغى ضجيجها ، وعـمّ عجيجهـا أطراف البلاد ، وطمس بعض الأصوات التي كانت تحاول ـ عبثاً ـ صنع « علم الظاهر » . ولا عجب بعد ذلك ان خاطب المحتل الفرنسي أعيان البلاد في منشوره(٨٨) الذي وزعه على الأهالي عشية الاحتـلال ، بلغـة « أهل الباطن » وكان مما جاء في الخطاب « يا أيها أهـل الاسلام ، ان كلامنا هذا صادر عن الحب الكـامـل » !

□ الحواشـي :

١ ـ أنظر : محمد الحفناوي ـ تعريف الخلف برجال السلف: مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٥ ـ ص ١ـ٧٠ .

٢ ـ أنظر : ديوان الأمير عبدالقادر الجزائري (جمع وتحقيق د. زكريا صيام) ديوان م.ج. الجزائر ١٩٨٨ ـ ص ٥٥ .

٣ ـ أنظر : أ. عبدالرحمن الجيلالي ـ تاريخ الجزائر العام: دار الثقافة ـ بيروت ١٩٨٢ ـ ص ٣ـ٣٧ .

٤ ـ أنظر : المرجع السابق ـ ص ٣ـ٤٠٣ .

٥ ـ احمد توفيق المدني ـ حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ـ المؤسسة و. ك. ـ الجزائر ـ ط ٣ ـ ١٩٨٤ ص ٩٦ .

٦ ـ د. عبدالرزاق قسوم ـ عبدالرحمن الثعالبي والتصوف ـ الشركة و.ن.ت ـ الجزائر ١٩٧٨ ـ ص ١٣ .

٧ ـ د٠ ابو القاسم سعدالله ـ تاريخ الجزائر الثقافي ـ ص ١ـ١٣١ ٠

٨ ـ انظر : د٠ عبدالرزاق قسوم ـ عبدالرحمن الثعالبي والتصوف (هامش) ص ٢٥ ٠

٩ ـ انظر : وليم سبنسر ـ الجزائر في عهد رياس البحر ـ تعريب : د٠ عبدالقادر زبادية ـ ص ٣١ ٠

١٠ـ حقق الرسالة ونشرها : د٠ ابو القاسم سعدالله ـ ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر ـ ص ١ـ٢٠٨ ٠

١١ـ مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار ـ تحقيق : احمد توفيق المدني ـ ص ٨٥ ٠

١٢ـ ذكر في رسالته التي بين أيدينا الجهات التي وجه اليها رسائله ٠

١٣ـ انظر : المرحوم توفيق المدني ـ حرب الثلاثمائة سنة ـ ص ٩٣ـ٩٥ ٠

١٤ـ انظر : نص الرسالة : ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر ـ ص ١ـ٢٠٩ (سبقت الاشارة اليهـا) ٠

١٥ـ انظر : د٠ قسوم ـ عبدالرحمن الثعالبي والتصوف ـ ص ٢٥ ٠

١٦ـ انظر : الشيخ المهدي البوعبدلي ـ الجزائر في التاريخ ـ ص ٤ـ١٢٩ ٠

١٧ـ انظر : الجزائر في التاريخ ـ ص ٤ـ١٢١ ٠

١٨ـ انظر : حرب الثلاثمائة سنة ـ ص ٩٣ـ٩٥ ـ وتاريخ الجزائر الثقافي ـ ص ١٣١ـ١٣٣ ٠

١٩ـ انظر : تاريخ الجزائر الثقافي ـ ص ١ـ١٣١ ، وانظر: الجزائر في التاريخ ـ ص ٤ـ١٢٦ ٠

٢٠ـ انظر : تاريخ الجزائر الثقافي ـ ص ١ـ٤٦٤ ٠

٢١ـ انظر : رحلة القلصادي ـ هامش ٩٦ ، وابن مريم ، البستان في ذكر الأوليـاء والعلماء بتلمسان ـ ص ٧٤ ٠

٢٢ـ انظر : تعريف الخلف برجال السلف ـ ص ١٠٣ـ١٠٤ ٠

٢٣ـ انظر : ميلاد عيسى ـ الياقوتة (باللغة الفرنسية) المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر ١٩٨٦ ـ ص ٦ ٠

٢٤ـ تعريف الخلف برجال السلف ـ ص ٢ـ١٠٦ ٠

٢٥ـ انظر : الجزائر في التاريخ ـ ص ٤ـ١٨١ ٠

٢٦ـ انظر : تاريخ الجزائر الثقافي ـ ص ١ـ٤٧٠ ٠

٢٧ـ انظر : محمد بن علي شغيب ـ أم الحواضر في الماضي والحاضر ، تاريخ قسنطينة ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، ص ١٣٣ـ١٣٤ (١٩٨٠) ٠

٢٨ـ انظر : الجزائر في عهد رياس البحر ـ ص ٣١ ٠

٢٩ـ انظر : تعريف الخلف برجال السلف : ٢/٤٨٩ـ٤٩٠، وانظر : الجزائر في التاريخ ٤ـ١٣٨ ٠

٣٠ـ حققها ونشرها : د٠ ابو القاسم سعدالله ـ مجلة الثقافة (الجزائرية) عدد ٥١ ـ سنة ١٩٧٩ ـ ص ٢١ـ٢٩ ٠

٣١ـ انظر : تاريخ الجزائر الثقافي ـ ص ١ـ٤٧١ ٠

٣٢ـ انظر : البستان لابن مريم ـ ص ٢٨٧ـ٢٨٨ ٠

٣٣ـ انظر : تاريخ الجزائر الثقافي ـ ص ٤٧١ ٠

٣٤ـ انظر : ترجمته وشعره الصوفي في تعريف الخلف برجال السلف ٠

٣٥ـ انظر : تاريخ الجزائر الثقافي ـ ص ١ـ١٩٨ ٠

٣٦ـ انظر : المرجع السابق ـ ص ١ـ٤٦٤ ٠

٣٧ـ بدات ملامح الشعور بالوطنية تظهر في كتابات بعضالجزائريين اثناء العهد العثماني ، قال الورثلاني : « وصلنا الى مدينة قسنطينة وهي مدينة في وطننا ٠٠ » الرحلةالورثلانيـة ـ ص ٦٨٥ ٠

٣٨ـ أنظر : عبدالقادر المشرفي الجزائري ـ بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين ـ تحقيق : محمد ابن عبدالكريم ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت (د٠ت) ص ٨ـ١٣ ٠

وانظر : حرب الثلاثمائة سنة ـ ص ٣١٠ـ٣٠٢ ٠

٣٩ـ المجلة الافريقية ـ عدد ٣١ ـ السنة السادسة جانفي ـ ١٨٦٢ ـ ص ١٦ ٠

٤٠ـ المرجع السابق ـ ص ١٦ ٠

٤١ـ المرجع نفسه : ١٧ ، والرسالة مؤرخة بسنة ١١٧٤ هـ ٠

٤٢ـ أنظر : تاريخ الجزائر الثقافي ـ ص ١/٨٤ـ٨٥ وغيرها ٠

٤٣ـ مثل عائلة الفكون بقسنطينة ٠

٤٤ـ د٠ عامر النجار ، الطرق الصوفية في مصر ـ دار المعارف بمصر ـ ط ١٩٨٦/٣ ، ص ٤٢ ٠

٤٥ـ أنظر : تاريخ الجزائر الثقافي ـ ص ١ـ١٨٣ ٠

٤٦ـ المقدم : هو المريد الذي يقدمه الشيخ على غيره من المريدين لينوب عنه في القيام بكل ما يخص شؤون المشيخة أو الزاويـة ٠

٤٧ـ التعرف لمذهب أهل التصوف : مكتبة الكليات الأزهريةبالقاهرة ـ ط ٢ ، ١٩٨٠ ـ ص ٧٨ ٠

٤٨ـ أنظر : سميح عاطف الزين ـ الصوفية في نظر الاسلام ـ دار الكتاب اللبناني ـ ط ٣ ، ١٩٨٥ ـ ص ٤٤٥ ٠

٤٩ـ رواية ابن مريم في : البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ـ ص ١١٠ وما بعدها ، ورواية د٠ عامر النجار : الطرق الصوفية في مصر ـ دار المعارف بمصر ـ ط ٣ ، ١٩٨٦ ـ ص ١١٥ ٠

٥٠ـ أنظر : الصوفية في نظر الاسلام ـ ص ٥٤٤ ٠

٥١ـ أنظر : الطرق الصوفية في مصر ـ ص ١١٤ ٠

٥٢ـ أنظر : الصوفية في نظر الاسلام ـ ص ٥٤٦ـ٥٤٨ ٠

٥٣ـ أنظر : الطرق الصوفية في مصر ـ ص ١١٧ ٠

٥٤ـ أنظر : فرج محمد فرج : اقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ـ ص ١١٢ ٠

٥٥ـ أنظر : ترجمته في الرحلة الورثلانية ٠

٥٦ـ أنظر : تاريخ الجزائر الثقافي ـ ص ١/٢٦١ ـ ٢٦٤ ـ ٢٦٦ ٠

٥٧ـ أنظر : أبو القاسم بن عبدالجبار الفجيجي ـ الفريد في تقييـد الشريـد وتوطيـد الوبيـد ـ تحقيق وتقديم : د٠ عبدالهادي التازي ـ مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء ـ المغرب ـ سنة ١٩٨٣ ـ ص ١٨ ٠

٥٨ـ أنظر : تاريخ الجزائر الثقافي ـ ص ١ـ٢٨٧ ٠

٥٩ـ نص الرسالة في : أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ـ ص ١ـ٢٠٨ (سبقت الاشارة اليها) ٠

٦٠ـ أنظر : الفكون ـ منشور الهداية في كشف حـال من ادعى العلم والولاية : ١١ ، وانظر : تاريخ الجزائر الثقافي ص ١ـ٢٨٧ ٠

٦١ـ أنظر : المرجع السابق ـ ص ١ـ٣١٢ ٠

٦٢ـ أنظر : د٠ اسماعيل العربي ـ الدراسات العربية في الجزائر ـ ص ٦٧ ٠

٦٣ـ أنظر : الدراسات العربية في الجزائر ـ ص ٦٧ ، وانظر : عبدالملكمرتاض ـ فنون النثر الأدبي ـ ص ٣٣ ٠

٦٤ـ لأن المقام لا يتسع لهـا هنـا ٠

٦٥ـ البستان : تحقيق : د٠ محمد بن أبي شنب ـ المطبعة الثعالبية ـ الجزائر ـ ١٩٠٨ ـ ص ٦ ٠

٦٦ـ في مؤلفه : منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية ـ تحقيق : د• أبو القاسم سعدالله ـ دار الغرب الاسلامي ـ بيروت ـ ط ١ـ١٩٨٧ •

٦٧ـ منشور الهداية : ٣٢ •

٦٨ـ المصدر السابق ـ ص ٣٥ـ٣٧ •

٦٩ـ الفصل الثالث من المنشور ـ ص ١١٧ •

٧٠ـ الفصل الأول من المنشور ـ ص ٣٥ •

٧١ـ المصدر نفسه ـ ص ١٤٧ •

٧٢ـ يقصد (بشيخه) : الشيخ طراد وكان قد تحدث عنه الفكون وعن علاقته مع محمد ساسي البوني ووصفه « بكبير المتلصصة » ، منشور الهداية ـ ص ١٦١ وما بعدها •

٧٣ـ العبارات التي بين قوسين كلها للفكون : منشور الهداية ـ ص ١٦٤ـ١٦٥ •

٧٤ـ المصدر السابق ـ ص ١٤٧ •

٧٥ـ نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار •

٧٦ـ نحلة اللبيب بأخبار الرحلة الى الحبيب •

٧٧ـ حققها ونشرها : د• ابو القاسم سعدالله ـ المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ـ الجزائر ١٩٨٣ •

٧٨ـ لعبدالله العياشي ـ طبع حجري ـ فاس ١٣١٦ هـ (مغربي الأصل ، من تلاميذ الفكون) •

٧٩ـ تعريف الخلف برجال السلف (سبقت الاشارة اليه) •

٨٠ـ انظر : منشور الهداية ـ ص ١١٨ •

٨١ـ المصدر نفسه ـ ص ١٢٢ ، وانظر : الجزائر في التاريخ ـ ص ٤ـ١٨٠ •

٨٢ـ منشور الهداية ـ ص ١٢٢ •

٨٣ـ راجع أبياتا في ذلك ـ منشور الهداية ـ ص ١٢٤ وغيرها •

٨٤ـ المصدر السابق ـ ص ١٣٢ •

٨٥ـ انظر : ترجمته في تعريف الخلف برجال السلف •

٨٦ـ مصطفى باش تارزي ـ المنح الربانية ، شرح المنظومة الرحمانية ـ طبعة تونس ١٣٠٨ هـ •

٨٧ـ نحلة اللبيب باخبار الرحلة الى الحبيب •

٨٨ـ انظر : المنشور كاملا في مذكرات الحاج احمد الزهار ـ ص ١٧٦ (وكان شاهد عيان) •

★ ★ ★

رسائل عمر بن الخطاب في تدبير الجيش

د. إحسان هندي

من المعلوم أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، كان من أعدل الخلفاء وأجرأهم في نصرة الحق واغاثة المظلوم ، ولكن الشيء غير المعلوم عنه ، أو الذي لا يعلمه الا نـدرة من الباحثين ، هو موهبته العسكرية ، بل الستراتيجية اذا صح التعبير ، لأنه كان يسيّر جيوشه لتحقيق أهداف معينة ضمن خطة استراتيجية محددة .

واذا كانت الدولة العربية في زمنه تضاعفت مساحتها عما كانت في زمن سلفه أبي بكر ، واذا كانت المعارك التي خاضها العرب في عهده أغلبها ــ اذا لم نقل جميعها ــ معارك ظافرة ، فان السبب في ذلك لا يرجع الى عبقرية قادة جيوشه فقط ، وانما الى خططه الرائعة ووصاياه الحكيمة والشاملة أيضاً التي تنم عن ذهنية موسوعية وقادة .

فالى جانب وصيته في (القضاء) التي ما زالت مبادؤها صالحة للتطبيق حتى اليوم في مجال أصول المحاكمات والاثبات والبيّنات ، هناك وصايا مشهورة له في مجال تدبير الجيش ، ويأتي على رأس هذه الوصايا ثلاث :

١ ــ وصيته الى سعد بن أبي وقاص عندما وجهه لفتح العراقين في أصول التعبئة والمسير باتجاه العدو .

٢ ــ وصيته الى أبي عبيدة بن الجراح في قوانين الحرب الواجب التقيد بها في مجال التعامل مع العدو .

٣ ـ وصيته الى قادة الفتوح عند تسليمهم الأعلام بخصوص أخلاقيات الجند ·

وها نحن نثبت نصوص هذه الوصايا الثلاث مع شرح ما غمض منها ·

★ ★ ★

أولاً ـ وصية عمر الى سعد بن أبي وقاص في التعبئة :

يقول عمر بن الخطاب في رسالته الى سعد بن أبي وقاص لما وجهه الى فتح العراقيين سنة ١٣ هـ :

« وترفق بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيراً يُتعبهم ، ولا تُقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم يُنقص من قوتهم ، فانهم سائرون الى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع[١] ، وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يُحيون فيها أنفسهم ويرُمون(*) أسلحتهم وأمتعتهم[٢] · ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من ثثق بدينه، ولا يرزأ(**) أحداً من أهلها شيئاً فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيراً[٣] ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح[٤] ·

وإذا وطئت أرض العدو فأذك(***) العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم[٥] · وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن الى نُصحه وصدقه ، فان الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه ، والغاش عين عليك وليس عيناً لك[٦] · وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم[٧] وتنق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل فان لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك[٨] واجعل أمر السرايا الى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، لا تخص بها أحداً بهوى فيضيّع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك[٩] · ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غَلَبَة أو ضيعة أو نكاية[١٠] · فاذا عاينت العدو

(*) رمه : أصلحه · (**) رزاه ماله : أصاب منه شيئا · (***) أذكى عليه العيون : أرسل عليه الطلائع ·

فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع اليك مكيدتك وقوتك[١١] ، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تُبصر عورة عدوك وتقاتله[١٢] وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصُنعه بك[١٣] ، ثم أذكِ أحراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جُهدك[١٤] ، والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم وهو المستعان »[١٥] .

☐ حواشي الوصية الأولى :

١ ـ يطلب عمر من سعد في بداية الوصية أن يترفق بالمسلمين في السير ، وذلك خيفة على جند المسلمين وعلى روحهم المعنوية حيث إن المسافة بين الحجاز والعراق طويلة (نحو ١٥٠٠ كم) والغاية من هذا هي وصول المسلمين الى عدوهم وهم على أحسن حال من النشاط وموفور القوة ، لأن السفر الطويل دون راحة يجعلهم أقل قدرة على القتال من العدو المقيم في أرضه والذي غالباً مايكون قوياً بجنده وعتاده « حامي النفس والكراع » .

٢ ـ ثم يوصي عمر سعداً بأن يعسكر بجنده مدة يوم وليلة والمقصود هنا نهار وليلة أي ٢٤ ساعة) في كل أسبوع ، وذلك لكي يعتني الجند بنظامهم وصيانة أسلحتهم ، وهذا نظر صائب فيما نعتقد ، ولاسيما إذا أخذنا في الحسبان المشقة التي كان يسببها السفر في تلك الأيام وتلك الظروف . وبالطبع ليس هناك ما يمنع من اختصار مدة الراحة هذه اذا دعت لذلك أسباب مهمة ، كما حصل لخالد بن الوليد عندما انطلق بجنده من العراق الى الشام ، فقطع المسافة بمدة أسبوع دون أي توقف .

٣ ـ ويوصي عمر قائده بأن يُبعد أماكن عسكرة جنده عن قرى أهل الصلح (وهم من ارتبطوا بعهد صلح مع المسلمين يسمح بنشر الدعوة الاسلامية في بلادهم مقابل حماية المسلمين لهم وعدم المساس بحريتهم في عقيدتهم وتأدية مراسم عباداتهم) . والغاية من ذلك تجنب اعتداء أحد أفراد جند المسلمين على واحد من أهالي دار الصلح في شخصه أو ماله أو عرضه . وإذا اضطر قائد الجيش الاسلامي لارسال بعض جنده الى بلدة من بلاد أهل الصلح فيجب أن يختار لذلك من يثق الثقة التامة في دينه ، لأن عقد الصلح ينشىء حقوقاً وواجبات

متبادلة ، وفي هذا يقول عمر : « فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيراً » .

وهذه العبارة في وصية عمر مشتقة من الآية الكريمة : « **إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فأتموا إليهم عهدهم الى مدتهم إن الله يحب المتقين** » (سورة التوبة ـ الآية رقم ٥) .

٤ ـ وأما عبارة « ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح » فتحوي مبدأ يشكل واحداً من أهم مبادىء القانون الدولي في هذا العصر ، إذ إنه لايجوز لقائد الجيش الاسلامي أن يضحي بأرواح سكان دار الصلح أو بأموالهم أو حتى بحقوقهم المعنوية في سبيل التمكن من الانتصار على سكان دار الحرب (دار الحرب هي الأقطار المتاخمة لدار الاسلام التي لم يرض أهلها الدخول في الاسلام ولا عقد صلح مع المسلمين ، فاذا عقدوا مثل هذا الصلح أصبحوا دار صلح ، وإذا لم يرضوا ذلك بقوا دار حرب ، وإذا فتحت دار الاسلام أراضيهم عنوة يصبحون جزءاً من دار الاسلام) .

وهذا المطلب الأخلاقي يستند بلا ريب الى الأحكام الأساسية في الاسلام ولا سيما الى الآية الكريمة : « **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا** » (سورة الاسراء ـ الآية رقم ٣٤) .

٥ ـ ثم يوصي عمر قائد جيشه بأن يعمل بمجرد دخوله أرض العدو الى بث عناصر الاستخبارات (إذكاء العيون) وذلك لئلا يخفى عليه من أمر عدوه شيء . وينصح عمر في هذا المجال بالاستعانة بمدير استخبارات من المسلمين أو حتى من أبناء المنطقة المفتوحة « أهل الأرض » بشرط أن يكون من الموثوقين .

٦ ـ ولكي يكون عنصر الاستخبارات موثوقاً ينبغي أن يكون صادقاً ، فهو إذا كان كاذباً أو غاشاً فان ضرره لا بد أكثر من نفعه لأنه قد يكون عندئذ عيناً للعدو أكثر من أن يكون عيناً للصديق ، أو كما يقول عمر نفسه : « **الغاش عين عليك وليس عيناً لك** » ، وبهذا يكون عمر قد فطن منذ ذلك الوقت الى احتمال وجود عملاء الاستخبارات المزدوجين DOUBLE - AGENTS ممن يعملون لنا وللعدو في الوقت نفسه .

٧ ـ ثم يوصي عمر سعداً بالاكثار من الحذر عند الدنو من جيش العدو ، وذلك بالاكثار من الطلائع والسرايا وهي الوحدات المتقدمة من الجيش • ومهمة (الطلائع) تختلف جزئياً عن مهمة (السرايا) وذلك أن المهمة الرئيسية للطلائع هي الاستطلاع لمعرفة الثغرات الموجودة في جيش العدو « وتتبع الطلائع عوراتهم » •

وأما السرايا فمهمتها الرئيسية هي الاشتباك مع العدو ، ولا سيما القضاء على « إمداداته ومرافقه » قبل وصولها اليه •

٨ ـ وبما أن لوحدات الطلائع مهمات خاصة لذا يجب انتقاء « أهل الرأي والبأس » لها ، وهذا يعني اختيار جندها من الأقوياء الشجعان ذوي التدبير والحيلة، حتى إذا اصطدم بهم العدو كانت هذه العناصر الجيدة ، المتمرسة هي أول ما يصطدم به من القوات الصديقة ، وهذا نظر صائب وسليم ، وحكمة لا تزال حتى اليوم واجبة التنفيذ •

٩ ـ ويجب انتقاء عناصر السرايا بالعناية نفسها ، حيث ان هؤلاء يلزم أن يكونوا من « أهل الجهاد والصبر على الجلاد » ، كما يجب أن تُسند قيادتهم الى أحد الشجعان الميامين • وعلى أمير الجيش أن يتحاشى محاباة أحد أقاربه أو رجال خاصته فيعينه لهذه المهمة اذا لم يكن أهلاً لها ، وذلك لأن الضرر الذي سيسببه هذا التعيين يفوق بكثير المنفعة التي يمكن أن تحققها المحاباة والمصلحة الخاصة اللتان دفعتاه لهذا التعيين •

١٠ ـ واذا كان أفراد وحدات الطلائع والسرايا من المتمرّسين في شؤون الجهاد والجلاد ، فهذا لا يعني أن بوسع الأمير أن يلقي بهم الى التهلكة ، بل عليه أن يتجنب ارسال طليعة أو سرية في مهمة تتعرض فيها الى الهزيمة أو الضياع كما يقول عمر في وصيته :

« ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية » •

١١ ـ وعند حدوث التَمَاس مع العدو ينصح الخليفة عمر أمير جيشه بأن يعمل على تجميع قواته وتقليل جبهة انتشارها ، وذلك لئلا يستفرد العدو بسرية منعزلة في المقدمة أو المجنبة فيقضي عليها بسهولة ، وكذلك للتمكن من حشد كامل القوى الصديقة وزجها في المكان المناسب من جهة أخرى •

١٢ ــ وينصح عمر سعداً بألا يبدأهو مُناجزة العدو ــ أي مقاتلته ــ وبأن يترك للعدو مهمة البدء بالخطوة الأولى. والغاية من ذلك ليس ترك المبادهة للعدو ــ كما قد يتبادر الى الذهن ــ وانمالكي يبصر الأمير « عورة عدوه ومقاتله » ــ أي نقاط ضعفه ــ فيوجه قوته الضاربة باتجاهها.

ويبقى للأمير مع ذلك حق البدء بمناجزة العدو « اذا استكرهه قتال » ، أي اذا دعت لذلك ضرورة قتالية معينة ، كأن يستغل فرصة سانحة لمفاجأة العدو وأخذه على حين غرة ، وقديماً قيل « **الهجوم خير وسائل الدفاع** ».

١٣ ــ ومن الطبيعي أن الهجوم على العدو يجب ألا يتم الا حسب خطة حربية معينة ، وهذه الخطة يتم وضعها دوماً بمراعاة عدة عناصر أهمها عدد العدو وتسليحه ، وعدد الصديق وتسليحه ، والهدف من المعركة ، والوقت الذي تتم به ، وطبيعة الأرض. وقد ركز عمر في وصيته على هذا العامل الأخير فنصح سعداً بأن « يعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها » ، وذلك لكي تأتي خطته الحربية متلائمة مع المعطيات التي تكفل نجاحها.

١٤ ــ وأخيراً ينصح عمر قائده أن يأخذ حذره من المفاجآت الليلية : « ويتيقّظ من البيات جهدك » ، ويكون ذلك بأخذ الحيطة والاكثار من العسس (الحرس الليلي) وبث الكمائن حول معسكر المسلمين.

١٥ ــ وينهي الخليفة عمر وصيته بالدعاء لسعد بن أبي وقاص بأن يكون الله وليه ــ أي نصيره ــ وولي جنده الذين معه ، وبأن يقودهم الى النصر على العدو وعند لقائهم به ، وقد تمّ هذ النصر بالفعل في معركة القادسية عام ١٤ للهجرة.

★ ★ ★

ثانياً ــ وصية عمر في شريعة الحرب وقوانينها :

وفي هذا المجال نجد عمر بن الخطاب يوصي قائده أبا عبيدة بن الجراح لما وجّهه الى فتح بلاد الشام بما يلي :

« بسم الله وعلى عون الله[١] ، وامضوا بتأييد الله بالنصر وبلزوم الحق والصبر[٢] ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله[٣] ولا تعتدوا ان الله لا يحب

المعتدين(٤) • لا تجبنوا عند اللقاء(٥) ،ولا تمثلوا عند القدرة(٦) ، ولا تسرفوا عند الظهور(٧) ، ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً(٨) ، وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان وعند حُمّة النهضات(٩) ، وفي شن الغارات(١٠) ، ولا تَغُلّوا عند الغنائم(١١) ، ونزّهوا الجهاد عن غرض الدنيا(١٢) ، وأبشروا بالرباح في البيع الذي بايعتم به(١٣) ، وذلك هو الفوز العظيم »(١٤) •

ـ هذا ومن الجدير بالذكر أن عُمراً فاه بوصيته تكاد تماثل هذه في الأحكام والألفاظ أمام الجيش المتوجه الى العراق حين قال :

« بسم الله وبعونه(١) ، انطلقوا في رعاية الله فانه لا نصر الا منه ومن التمسك بالحق والصبر(٢) ، قاتلوا في سبيل الله أعداء الله(٣) ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين(٤) • لا تجبنوا(٥) ، ولا تمثلوا(٦) ،واذا لقيتم النصر فلا تتعدوا الحدود(٧) ولا تقتلوا شيخاً ولا امرأة ولا صبياً(٨) •

* * *

حواشي الوصية الثانية :

١ ـ يبدأ عمر وصيته لقائده الأمير على جيش الفتح بأن تكون عمليات الجهاد « **بسم الله وعلى عون الله** » لأن هذه النية بالذات هي التي تميز « الجهاد الاسلامي » عن الحروب الأخرى، لأن الحروب العادية قد تستهدف العدوان أو التوسع أو الانتقام أو كسب الشهرة ، في الوقت الذي لا يُسمى فيه الجهاد « جهاداً » الا اذا كان في سبيل الله وباسمه •

٢ ـ فعندما يكون الجهاد في سبيل الله ونصرة كلمته ، يكون النصر محتّماً ، ولكن بشرط لزوم الحق والصبر •وأهمية الصبر هنا تنبع من أن القتال كريهة ، والكريهة تحتاج الى صبر وجلد حتى يتم النصر (ليس من قبيل المصادفة أن تكون كلمات الجلَد والجلاد والتجلّد والمُجالدة من اشتقاق واحد في اللغة العربية) •

٣ ـ ولما كان القتال في سبيل الله فيجب أن يكون ضد من كفر بالله حصراً ، ولهذا لا يجوز قتال المسلم للمسلم الا استثناء ، كحالة قمع العصيان وتأديب قاطعي الطريق ، والقضاء على أعمال الردّة والفتنة •

٤ ـ ويوصي عمر قادة جنده بعدم الاعتداء ، لأن الله تعالى لا يحب المعتدين (هناك عدة آيات في القرآن الكريم تمنع العدوان وتأمر بدفعه وتنص على معاقبة المعتدين) • واذا طبقنا هذه القاعدة على الحروب المعاصرة نستنتج منها ما يلي :

إنَّ القرآن يأمر بالدفاع عن النفس: « **وقاتلوا الذين يقاتلونكم** » ، ولكنه يربط ذلك بمنع الاعتداء : « **ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحب المعتدين** » ، ومن هنا يمكن الاستنتاج بأن الاسلام يحث على القيام بالحرب الدفاعية وبالحرب الوقائية (وهي الحرب التي نهاجم فيها العدو في عقر داره لكي نُفشل هجومه قبل القيام به) ولكنه لا يجيز الحرب الهجومية إلا إذا كان في ذلك مصلحة للدعوة الاسلامية ككل •

وأما بالنسبة للحروب العدوانية **LES GUERRES AGRESSIVES** وهي التي يكون هدفها الوحيد هو التقتيل والتخريب، أو التوسع وتحقيق المجد الشخصي ، أو السلب والنهب ، فقد منعها الاسلام بنصوص صحيحة في القرآن والسنة النبوية ، قبل أن تمنعها أحكام القانون الدولي المعاصر عبر القرار الصادر عن الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بخصوص تعريف العدوان في عام ١٩٧٤ •

٥ ـ ويوصي عمر بعد ذلك باظهار الشجاعة عند لقاء العدو : « ولا تجبنوا عند اللقاء » لأن الشجاعة هي الطريق الى النصر ، وهي أمر معروف لدى العرب منذ الجاهلية ، وبعد الاسلام •

٦ ـ والمُثلة ـ أي التمثيل بالجرحى والقتلى ـ أمر يأباه الاسلام والأخلاق العربية ، ولذا نجد أن الرسول ﷺ قد نهى عنه بقوله : « إياكم والمُثلة ولو بكلب عقور » وهذا ما يؤكد عليه عمر في وصيته ، خيفة من أن تدفع شهوة الانتقام بعض المسلمين للتمثيل بالجرحى والموتى من أفراد العدو •

وهكذا يمكن القول ، بل التأكيد ، إن الاسلام منع التمثيل بالقتلى والجرحى **(MUTILATION)** وعدَّه جريمة ، قبل أن تمنعه اتفاقيات جنيف ولاهاي باثني عشر قرناً على الأقل •

٧ ــ ويوصي عمر المسلمين «بألا يسرفوا عند الظهور» ، ومعنى هذا ألا يتعدوا حدود التواضع بعد تحقيق النصر ، لأن هذا النصر من عند الله من جهة ، ولأنه ليس من المصلحة إيغال صدور جند العدو بالتكبر والتعالي والزهو عليهم عند النصر ، من جهة ثانية ٠

٨ ــ إن الحرب بين دولتين ليست الغاية منها أن تبيد إحداهما الأخرى إبادة كاملة ، وإنما الغاية منها قهرها عسكرياً فحسب ، لذا فان مبادىء وقواعد القانون الدولي الانساني المعاصر تميز بين (المحاربين LES BELLIGÉRANTS وهم جند العدو وقواته العسكرية وشبه العسكرية و (غير المحاربين) ٠٠ وهم أفراد العدو غير المحاربين من كهول ونساء وأطفال ٠

وقد ميزت شريعة الحرب الاسلامية بين المحاربين وغير المحاربين ، ودعت الى التمسك بالروح الانسانية ، حتى تجاه العدو ٠

ومن أقوال الرسول ﷺ في ذلك : « **أنا نبي المرحمة وأنا نبي الملحمة** » وهذا القول يلخص أفضل تلخيص بنية (القانون الدولي الانساني) الذي يقوم على التوفيق بين الضرورات الحربية (الملحمة) والروح الانسانية (المرحمة) ٠ وبما أن عنصر غير المحاربين يتمثل في المدنيين المسالمين ، ولا سيما الشيوخ والنساء والأطفال ، فقد نهى سيدنا عمر عن قتل هؤلاء صراحة بالقول: «ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً » ٠

٩ ــ وإذا كان قتل الشيوخ والنساء والأطفال ممنوعاً صراحة في هذه الوصية ، فان المقصود في ذلك هو «القتل المتعمد» بعد انتهاء المعركة ، وأما قتل هؤلاء عن غير قصد أثناء العمليات الحربية فهو أمر لا يمكن الحيلولة دونه ، حيث إن القذائف التي يرميها المسلمون على جيش العدو ومعسكراته وأهدافه العسكرية لا يمكن التحكم فيها بشكل تصيب به المحاربين دون غيرهم ، ولهذا اكتفى عمر بالقول : « واتقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات » أي عند لقاء العدو واشتداد حدة القتال ٠

١٠ ــ والتوقي من قتل الشيوخ والنساء والأطفال يجب أن يتوخاه المسلمون ليس فقط « إذا التقى الزحفان » ، ولكن إذا قام المسلمون بتنفيذ إغارات على

معسكرات العدو وتجمعاته أو كما يقول عمر « وفي شن الغارات » ، ويبقى « التوقي » هنا أخف من « النهي والمنع » الذي تحدثنا عنه في الفقرة (٨) .

١١ ـ يوصي عمر جنده بعد ذلك « بألا يغلوا عند الغنائم » ، ومعنى ذلك عدم ارتكاب جريمة « الغلول » ، والغلول هو الاحتفاظ بجانب من الغنيمة وعدم تقديمه الى القسمة الشرعية والتي تكون عادة بمعدل الخمس لبيت المال وأربعة الأخماس الباقية لجملة المحاربين الذين شاركوا في المعركة .

هذا ومن الجدير بالذكر ، أن قانون الحرب المعاصر لم يعد يجيز أخذ الغنائم الشخصية ، وبقي من الجائز أخذ الغنائم من الجيش المحارب باسم دولته ، إذا كانت هذه الغنائم ذات طابع عسكري (عتاد حربي ، خرائط ، خيول ...) ، أو يمكن أن تؤثر في المجهود الحربي » .

١٢ ـ ويوصي عمر جنده بعد ذلك « بأن ينزهوا الجهاد عن غرض الدنيا » وذلك لمنع التجاوزات التي يمكن أن تحدث عندما يكون الهدف من الجهاد غرضاً دنيوياً زائلاً . وهكذا إذا كان قانون الحرب الاسلامي يبيح الغنائم فانه لا يحلل القيام بحرب في سبيل الحصول على هذه الغنائم فحسب ، لأن جميع الحروب التي لا يكون الهدف منها رفعة الدين والدفاع عن المقدسات تُعد ذات أغراض دنيوية زائلة ، ولهذا لا تكتسب طابع الجهاد ولا تأخذ حكمه .

١٣ ـ وإذا كان المسلمون يخسرون « فوائد مادية » معينة عندما ينزّهون الجهاد عن الأغراض الدنيوية الزائلة ، فانهم يربحون بالمقابل فائدة دينية كبيرة ، هي الربح الحقيقي ، وفي هذا يقول عمر : « وابشروا بالرباح في البيع الذي بايعتم به » .

١٤ ـ وأخيراً ينبه عمر رضي الله عنه الى القيام بفريضة الجهاد المكرس لخدمة الله تعالى ودعوته ، والمنزه عن أي هدف من الأهداف الدنيوية فيه الفوز العظيم للانسان ، لأن الآيات القرآنية والسنة النبوية قد أجمعت على فضل الجهاد في سبيل الله ، والثواب الذي يحصل عليه الانسان عند أداء هذه الفريضة على وجهها الشرعي .

الوصيـة الثالثة :

وهي وصية كان عمر بن الخطاب يحرص على قراءتها على مسامع قادة الجند عند تسليمهم الأعلام ، وهي تنص خصوصاً على التمسك بالتقوى وعلى أهمية هذه التقوى في ربح المعركة ، ويقول فيها : « أما بعد ، فاني آمرك[1] ومن معك بتقوى الله على كل حال فان تقوى الله أفضل العدة على العدو[2] ، وأقوى المكيدة على الحرب[3] ۰ وآمرك ومن معك من الأجناد بأن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم فان ذنوب الجند أخوف عليهم من عدوهم[4]، وانما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة[5] لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعُدتهم[6]، فان استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة[7] ، وألا ننتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا[8] ۰ واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم[9] ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله[10] ، ولا تقولوا ان عدونا شر منا فلن يُسلط علينا ، فرُب قوم سُلط عليهم شرٌ منهم كما سلط على بني اسرائيل لما عملوا بمعاصي الله كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً[11] ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم[12] ، اسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم » ۰

حواشي الوصية الثالثة :

١ ـ يخاطب عمر قائد الجيش بلهجة « الأمر » ، وليس بصيغة النصيحة أو الوصية فحسب ، فيقول : « اني آمرك ومن معك بتقوى الله » ۰ وجاء الأمر بتقوى الله لأن تقوى الله عامة شاملة يمكن أن تتفرع عنها جميع قواعد قانون الحرب وآداب القتال في الاسلام ، وهكذا تشمل التقوى فيما تشمل : العدالة، منع الظلم، منع الفساد والاعتداء على الأعراض ، معاملة العدو بروح انسانية ۰۰۰ الخ ۰

٢ ـ لمس عمر كبر الحقيقة عندما رأى في تقوى الله أسّ الأسس التي يجب أن يتمسك بها المسلمون في حربهم ، لأنها « أفضل العدة على العدو » وهي أساس التماسك والروح المعنوية في الجيش الاسلامي ۰

٣ ـ ويرفع عمر « التقوى » من حيث أهميتها في القيادة نحو النصر ، الى منزلة المكائد الحربية التي يقوم بها كل جيش في سبيل الايقاع بالعدو ٠

٤ ـ بل ان عمر يأمر قائد الحملة والأجناد الذين معه بأن يكونوا أشد احتراساً من المعاصي من احتراسهم عند لقاء العدو ، لأن قلة الاحتراس عند لقاء العدو يمكن استداركها لاحقاً ، وأما المعاصي فهي وباء يصعب اقتلاعه اذا استشرى في قلب الجند ٠

٥ ـ ويتابع عمر وصيته فيبين لقائد الحملة وأفرادها أن ارتكاب العدو للمعاصي هو السلاح الأساسي الذي يمكّن جند المسلمين من الانتصار عليه ، وأنه لولا هذا الأمر لكانت الغلبة له ٠٠٠

٦ ـ لأن المسلمين لم يكونوا مساوين للعدو في القوة سواءً نظرنا الى الأمر من زاوية « العدد » أم من زاوية العتاد « العُدة » ٠

٧ ـ وعلى هذا فان النصر لن يكون حليفاً لجيش المسلمين اذا تساوى مع جيوش الكفار في معصية الله ٠

٨ ـ واذا كانت القوة الاسلامية ليست كافية للوقوف في وجه القوة المعادية ، فان تمسك المسلمين بالفضيلة هو السلاح الذي سيمكنهم من النصر عليهم ٠

٩ ـ يجب ألا يخامر المسلمين المقاتلين أي شك في وجود « رقابة عليا » عليهم وعلى تصرفاتهم ، فهناك « حفظة من الله يعلمون كل ما يفعلونه ويقومون به » ، ولهذا يجب أن يخجل هؤلاء المقاتلون من القيام بأي عمل لا يأتلف مع التقوى الاسلامية والأخلاق الاسلامية ٠

١٠ ـ ويستخدم عمر هنا سلاح المنطق فيقول : لا يُعقل في جند يحارب في سبيل الله أن يرتكب معصية تغضب الله لأن في هذا قضاء كاملاً على الثواب الذي يحلم به ٠

١١ ـ ولا يعفى المسلمون من التقيد بمبادىء الفضيلة والتقوى في حالة منازلتهم لعدو ظالم يرتكب المعاصي ،لأن الله سبحانه وتعالى قد يبلو الظالم بمن هو أشد ظلماً منه ، وذلك كما فعل ببني اسرائيل لما ارتكبوا المعاصي فسلط عليهم من هو أظلم منهم وهو نبوخذنصّر الذي فتك بهم (من المعروف أن الكلدانيين كانوا يعبدون النار ولذلك يشير عمر اليهم باسم المجوس) •

١٢ ـ ويربط عمر رضي الله عنه أخيراً في وصيته هذه بين نوعي الجهاد : **الجهاد الأصغر** بمنازلة العدو والانتصار عليه **والجهاد الأكبر** بالتغلب على نزوات النفس وشهواتها فيقول : «اسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم » ، ولا يستثني نفسه من هذا الدعاء حيث يتوجه الى الله تعالى بقوله : « **أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم** » •

★ ★ ★

جلال الدين السيوطي*

إضاءات تحليلية في سيرته

د. عبد الإله نبهان

وسمت هذا البحث بجلال الدين السيوطي : اضاءات تحليلية في سيرته ، وكانت النية متجهة الى انشاء بحث بعنوان (السيوطي في الميزان) ولكنني رأيت العنوان الثاني أجدر بكتاب ، فعدلت عنه الى العنوان الأول، لا لأتحدث عن سيرة السيوطي ، فهذا أمر نهض به السيوطي نفسه (١)، وكتبه عنه غيره(٢) ، كما أنه سبق لي أن كتبت في الموضوع المذكور وحمت حوله في أكثر من موضع(٣) ،ولكن لأتحدث عن أهم العوامل الموجهة لمسيرة السيوطي في سيرة حياته ، بدءاً من طفولته ووفاة أبيه ، وانتهاء بتصدره للتدريس والتصنيف وادعائه الاجتهاد وتجديد أمر الدين ، ولأضع اليد على مفتاح هذه الشخصية التي شغلت وما زالت وستشغل بآثارها عشرات الباحثين ، وقد نيل بتحقيق آثارها ودراستها عدد كبير من رسائل الماجستير والدكتوراه .

دفع جلال الدين الى طلب العلم منذ البدايات الأولى ، فقد ذكر أنه عندما توفي والده كان له من العمر خمس سنين وسبعة أشهر ، وكان قد وصل في حفظه القرآن الكريم الى سورة التحريم(٤) ، وتولاه أصحاب أبيه ، وهم من علماء العصر ـ بعنايتهم ، فقد طلبه كمال الدين بن الهمام(٥) بعد وفاة أبيه وقرره في وظيفة أبيه بالشيخوخة(٦)، وكان والد السيوطي مدرساً للفقه بالجامع الشيخوني ، وهكذا تحدد مسار الفتى قبل أن يملك ارادة التوجه أو حرية الاختيار ، وأسعفته في هذه السبيل ذاكرة قوية وحافظة نادرة ،

(*) قدّم هذا البحث الى ندوة السيوطي في جامعة مؤتة بالكرك بالأردن ٤-٦/١٠/١٩٩٤ .

وهما مما يقوّي الثقة ويعززها بالنفس، ومما يُمنح صاحبها شعوراً بالتفوق على الآخرين، خاصة أن التحصيل آنذاك كان المعوّل فيه على الذاكرة، زد على ذلك أن الفتى طبع على الدأب والمثابرة، وأوتي جلداً وصبراً، فلم يتسلل الملل الى نفسه، ولم تصرفه صوارف الحياة وشواغلها عما هو فيه.

وكان ذكر والده الشيخ أبي بكر، وما اتسم به من صلاح، وما ناله من مكانة، يتردد على أسماعه من شيوخه الذين هم أصدقاء أبيه أصلا، وأخذت نفسه تمتلىء اعتزازاً بأبيه، وما عرفه عن صلته الوثيقة بالخليفة العباسي المستكفي بالله، أبي الربيع سليمان بن المتوكل(٨)، وأنه - أي والده - كان اماماً للخليفة، وهو الذي كتب له نسخة العهد(٩)، وللخلفاء العباسيين في القاهرة مكانة جليلة في نفس السيوطي(١٠)، فكانت مكانة والده التي ربما بالغ جلال الدين في تخيلها وتضخيمها واسباغ الأهمية عليها هي القدوة المثلى للجلال، فاجتمع له بذلك من الاستعدادات الطبيعية والعناية التربوية والتسهيلات العلمية والاجتماعية والوظيفية مالا يجتمع لغيره الا نادراً، وهي كلها عوامل ولدت عنده رغبات جامحة الى التفوق، ولم يكن أمامه من مجال الا العلم، تدريساً وتصنيفاً، لذلك رأيناه بعد أن حصّل أشياء من العلم، كحفظ بعض المتون الفقهية وما اليها، قد بدأ يجرّب قلمه في التأليف(١١)، واستوعبت هذه التجربة حياته كلها وهو يصنف ويكتب، بحيث يمكننا أن نعدد أسماء كتبه ونقول: هذه سيرة حياته، لذلك نراه عندما كتب سيرته الموجزة في (حسن المحاضرة)، وسيرته المبسوطة في (التحدث بنعمة الله) يخصص الجزء الأكبر من السيرة لتعداد مؤلفاته، ويذكرها بتباه وفخر، ويقول: هذا عدا ما غسلته ورجعت عنه. فالحياة عنده هي التصنيف في ضروب المعرفة التي أحاط بها خبراً، كالتفسير والحديث والفقه والتاريخ والنحو والمعاني والبديع وما اليها مما يدور في فلكها. وكان جلال الدين قد رسّخ العلوم الأساسية في ذهنه بحفظه للمتون التي تضبط أصول العلم على طريقتهم في ذلك العصر، (احفظ المتون تجمع لك الفنون)، فبعد أن ملأ صدره بالقرآن الكريم قام بحفظ عدة متون، فحفظ (عمدة الأحكام)(١٢) و (منهاج النووي)(١٣) و (ألفية ابن مالك)(١٤) و (منهاج البيضاوي)(١٥)، وقال: انه عرض المتون الثلاثة الأولى عام (٨٦٤ هـ) على شيخ الاسلام،

علم الدين البُلْقيني[١٦] وعلى شيخ الاسلام شرف الدين المُناوي[١٧] ، وعلى قاضي القضاة ، عز الدين الحنبلي[١٨] ،وعلى شيخ الشيوخ ، أمين الدين الأقصرائي[١٩] ٠

واني لا أستبعد أن يكون جلال الدين قد حفظ كل هذه المتون ، فمن أتم حفظ القرآن في الثامنة كان على اتمام حفظ هذه المتون في الخامسة عشرة أقدر ، ومن سار هذه السيرة المباركة في طلب العلم كان جديراً أن تتفتح أمامه سبله لا جهة ميسرة ، ولا سيما أن عيوناً ترعاه ،وقلوباً تحنو عليه ، واخواناً لوالده ما زالوا على العهد ، يأخذون بيده ويقيلون عثراته ٠ وفي هذا العام نفسه (٨٦٤ هـ) أجيز جلال الدين بحفظ ألفية ابن مالك ، وفي العام التالي قرأها قراءة دراية من أولها الى آخرها على الشيخ محمد بن موسى الحنفي[٢٠] ، وأجيز بالافتاء والتدريس عام (٨٦٦ هـ)[٢١] ، وكان يحضر عدة مجالس علم في اليوم الواحد ، ويقرأ على عدة شيوخ[٢٢] ، حتى ليخيل الى الناظر في سيرته أن الرجل لا يكاد ينام ، وخاصة أنه شرع يكتب مسودات لبعض التصانيف ، فقد كتب شرحاً منثوراً للآجرومية ، أتبعه بشرح منظوم ، وشرح كتاب الجمل للزجاجي ، ووضع شرحاً على الكافية الكبرى لابن مالك[٢٣] ٠٠٠ الخ ، ثم غسل كل ذلك ، فربما كان يجرب مقدرته على التصنيف ويدرب قلمه على التأليف، ولا شك أن همته كانت تمور بالمطامح ليكون مؤلفاً يذكره التاريخ في أعلام رجاله ، وليكون في المستقبل حديث الكتب ، كالشيوخ الذين يقرأ كتبهم ٠ وتدل أسماء مؤلفاته التي غسلها[٢٤] على توجهاته ، وعلى الطريقة التي سيتبعها في التأليف ، وهذه المؤلفات أنبأت أنه سيتجه اتجاهات علماء عصره ، الى وضع الحواشي ، والى وضع المتن وشرحه ، والى جمع الكتب وترتيب موادها ، والى اختصار الكتب الكبيرة ،وهكذا ٠٠٠

وتابع جلال الدين قراءة الفقه من شوال عام (٨٦٥ هـ) ، ولزم دروس شيخه قاضي القضاة ، علم الدين صالح البُلْقيني ، وكان يقرأ من كل كتاب قسماً أو قطعة ، والفقه هو العلم الذي يؤهل صاحبه للافتاء والقضاء ، ويمنحه امتيازاً في المجتمع، ولم يلبث جلال الدين، كما قدمنا ، أن أجيز ، وهو في السنة الثامنة عشرة عمره ، وتأهب لشغل منصبه مكان أبيه ، مدرساً للفقه بالجامع

الشيخوني ، ودعا شيخ الاسلام البُلْقيني ليحضر عنده في أول يوم تشريفاً ، واحتفل جلال الدين بدرسه الأول احتفالاكبيراً ، وأعدّ له عدته ، وكانت نفسه مفعمة بالرهبة من جلال الموقف ، خاصةأن بعض الناس ممن حوله كذبوه لما أخبرهم بنيّة شيخ الاسلام حضور درسه،قال (فلم يصدق أكثر الحسدة)[٢٥] . . وذهب الجلال وزار مقام الامام الشافعي[٢٦] ، وتوسل به ودعا ربه أن يأخذ بيده.

وفي يوم الثلاثاء ، التاسع من ذي القعدةعام (٨٦٧هـ)حضر شيخ الاسلام البُلْقيني، ومعه نفر من الشيوخ ، وجمهور من طلبة العلم ، وأضاف السيوطي أن فيهم جمهوراً من الحسدة ، ليشهدوا أول درس لجلال الدين . . . ولم يكد السيوطي لانشاد خطبة أو تجهيز كلمة ، بل وجد أن من أصلح الطرق وأرضاهالشيخ الاسلام ومن معه أن يفتتح درسه بخطبة الامام الشافعي التي صدّر بها كتابه العظيم« الرسالة »[٢٧] ، وهي خطبة اشتملت نفيس الكلام وبديع القول ، وصيغت باسلوب رائع وعبارة معجبة بليغة ، فلا بدع أن كانت تحفظ وتفتتح بها الخطب والدروس ، لذلك سار السيوطي على سنن شيخه البُلْقيني ، الذي سار بدوره على سنن أبيه وأخيه في الافتتاح بها . . . ولم يحدثنا جلال الدين عن وقع درسه في نفوس الحاضرين ، ويبدو أنه كان راضياً عما قدمه بين يدي شيخه،شيخ الاسلام .

ولم ينقطع جلال الدين عن نظامه الصارم في طلب العلم ، وحضور مجالس الشيوخ ، وكأن درسه الأول كان مجرد إشعار بكونه مجازاً ، ثم تابع الطلب والاشتغال على نفر من علماء العصر ،كقاضي طرسوس علاء الدين[٢٨] ،وشيخ الاسلام شرف الدين أبي زكريا يحيى بن محمد المُناوي[٢٩] قاضي القضاة ، وسيف الدين محمد الحنفي[٣٠] . ولزم دروس الشيخ محيي الدين محمد بن سليمان ابن سعد بن مسعود الكافِيَجي[٣١] ، الحنفي الرومي ، ولازمه أربعة عشر عاماً ، أخذ عنه فيها الفنون قراءة وسماعاً من تفسير وحديث وأصول فقه وعربية ومعان ، وسمع عليه (الكشاف) وحواشيه وكذلك المغني لابن هشام ، واستفاد من شيخه كثيراً ، قال : (ما دخلت اليه يوماً من الأيام الا استفدت منه ما لم أسمعه قبل ذلك من نفائس التحقيقات الجليلة[٣٢] ،وقد أجاز الكافِيَجي السيوطي بتدريس سائر الفنون وقرره مدرساً للحديث بالشيخوخة بعد وفاة الفخر المَقْسي[٣٣] .

كان الكافِيَجي المذكور من كبار علماء عصره بالمعقول ، وحاول أن يدفع بمريده السيوطي في طريق علوم المعقول، فطلب منه أن يشرح له كتابه (أنوار السعادة في علوم الكلام) ، وحاول ذلك جلال الدين ، لكنه أحجم عن الخوض في

هذا العلم ، فاعتذر من شيخه ، وقيمة هذا الخبر أنه يدل على انصرافه عن علوم المعقول ، هذا الانصراف الذي لم يلبث أن تحول الى عداء من غير ما سبب مقنع ، وكانت ثمرته أن ألف كتابه (صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام)(٣٤) ، وكأني بالعلوم النقلية من حديث وفقه وما إليها قد استغرقت السيوطي كلياً ، فلم يتقبل ذهنه ذلك الضرب من العلوم العقلية ، كالمنطق وعلم الكلام ، مع أن كبار الشافعية ممن يعدهم السيوطي، وبهم يأتسي ، كانوا من علماء الكلام والمنطق الى جانب الفقه وأصوله • ولا يذهبن بنا الظن الى أن السيوطي تفرغ للتلقي من شيخه الكافِيَجي ، لقد كان يطلب العلم موزعاً في كل اتجاه ، ويقرأ في علم الميقات والطب ، ويلازم الشمنّي(٣٥) ، ويقرأ عليه الحديث والعربية والمعاني ، كما أنه صنف شرحاً لألفية ابن مالك قرّظه له شيخه، واستمر ملازماً شيخه الشمنّي الى وفاته عام (٨٧٢هـ)، ورثاه بأربع قصائد(٣٦) •

ولما كانت الرحلة ولقاء العلماء والرواية عنهم من الأمور الحميدة عند السلف والخلف ، وفيها يجيز العلماء بعضهم بعضاً ، فقد قرّ عزم السيوطي على الرحلة ، واتجه الى مكة المكرمة عام (٨٦٩ هـ) لأداء فريضة الحج ، وألف كتاب (النحلة الزكية في الرحلة المكية)، وبعد عودته قام برحلة الى دمياط والاسكندرية وأعمالهما ، وصنف كتابه (قطف الزهر في رحلة شهر) ، وجلال الدين لا يهتم بما يهتم به الرحالة عادة ، ولا يذكر مشاهداته ولا يسجل انطباعاته ، فالرحلة عنده كلها سماع وقراءة ورواية واجازة ، وقد مدحه بعض من لقيهم في هذه الرحلة ، وشبهه أحدهم بالشيخ محيي الدين النووي(٣٧) ، وبابن الصلاح الشهرزوري(٣٨) ، وروى السيوطي الأبيات في سيرته معجباً بها(٣٩)، فرحاً بتشبيهه بهذين العَلَمين •

وعاد جلال الدين الى القاهرة ، ونصب نفسه للتدريس في شوال عام ٨٧٠هـ(٤٠) ، ويقول : ان الفضلاء قد توافدوا عليه وقرؤوا تصانيفه ، ومنهم من لزمه عشر سنوات ،وأقام بالقاهرة حتى وفاته ، ولم تكن له رحلة الى غير ما ذكرنا ، أي رحلة الحج ثم رحلة دمياط والاسكندرية ، ولا صحة لما أولع الدارسون المحدثون بذكره من رحلات الى الشام والمغرب والتكرور ، وليس لهم من دليل سوى عبارة تصحفت قراءتها وعُرّفت على يد محقق حسن المحاضرة ، فكانت سبب شيوع وهم كبير ، لاأدري متى سينقطع الدارسون عن ترديده(٤١)•

ومن بداية انصرافه للتدريس شرعت نفسه تحدثه أن يجدد أموراً يبرّز بها على معاصريه ويبدد بها أقرانه ، فماذا يفعل وهم يعملون جميعاً في مجال واحد ويطرقون موضوعات متشابهات ؟ ولم يلبث أن اكتشف درباً للامتياز والتفرد ، فعقد مجلساً لاملاء الحديث ، وكانت مجالس الاملاء[٤٢] قد انقطعت منذ عشرين سنة ، فبدأ السيوطي املاء الحديث عام (٨٧٢ هـ) ، ثم انقطع بسبب الطاعون ، وجدد الاملاء عام (٨٧٤ هـ) وأملى ثلاثين مجلساً ثم انقطع ، وفي هذه المرحلة كان يفتي ، وبدءاً من عام (٨٧١ هـ) ، وستتراكم هذه الفتاوى ليجمعها بعد ذلك في مجلدات ثلاثة .

لم أرد الحديث عن مؤلفات الرجل ، ولكن ما من ذلك بدّ ، لأني أمام رجل تكوّن مؤلفاته نسيج حياته ، وبها كان يحاول اثبات وجوده وابراز اسمه ، والا فبم نفسّر عقده لمجلس املاء الحديث سوى أنه كان يريد أن يتشبه بابن عساكر[٤٤] ، وظن الأمر سهلا ميسراً ، فعقد المجالس وتصدرها ، لكن هذه المجالس لم تلبث أن انقطعت ، وأظن أن السيوطي والناس الذين حضروا ، شعروا بعدم جدوى تلك المجالس التي انتهى أوانها بعد أن كانوا أقبلوا عليها تقليداً للسلف الصالح ، كما أني لا أستبعد أن يكون كلام السخاوي صحيحاً في هذا المجال ، فقد زعم أن جلال الدين جمع حوله طائفة من العوام بجامع ابن طولون ، وأنه صار يملي على بعضهم ممن لا يحسن شيئاً[٤٥] ، فان صح هذا ، فانه لا بد قد زهد جلال الدين بمثل هؤلاء المستملين .

واذا كانت شخصية أبيه قد ملأت نفسه في البدايات ، فانه لم يلبث أن حدد على نحو واع المثل الذي يرنو اليه ويعوّل عليه ، فقد كانت أمنيته أن يصل الى رتبة سراج الدين البُلْقيني[٤٦] في الفقه ، وأن يصل في الحديث الى رتبة الحافظ ابن حجر ، فبالغ في قراءة هذين الفنين والاشتغال بهما ، وعندما ذهب للحج شرب ماء زمزم مستعيناً به لأمور منها أن يصل ببركة هذا الماء الى رتبة هذين العلمين في الفقه والحديث[٤٧] .

وأخذ السيوطي يصدر الفتاوى ، يخالف بها الآخرين ، حتى انه خالف فتوى لوالده ، ليثبت أنه مجتهد ومنصف[٤٨] ، وأخذت الأمور تسوء بينه وبين بعض

علماء عصره ، الذين ساءهم كِبره واستصغاره لهم ، فكانت الواقعة بينه وبين ابن الكركي (٤٩) ، وبينه وبين الجوجري (٥٠) ، وغيرهم .

وكانت ذات جلال الدين تتضخم مع الزمن ، فلم يبق الأمر عنده مجرد اعتزاز بوالد ينتمي الى العلم ، أو كان اماماً للخليفة ، وانما أصبح ينظر الى الحكام المماليك على أنهم غرباء ، والى العلماء ، وهو على رأسهم ، أنهم هم أولو الأمر الذين تجب طاعتهم ، وتحدث السيوطي على تأبّيه على السلطان وعن رده رسله ، ويؤكد هذا ما حدّث به تلميذه عبدالقادر الشاذلي (٥١) ، أنه كان في جامع طولون عندما أتى اليه نقيب الجيش يونس الطويل ، وخاطبه على لسان الملك الأشرف قانصوه (٥٢) بسبب شكوى أهل البيبرسية (٥٣) فيه ، وقال له : كلّم السلطان ، فقال الشيخ في الجواب ، وهو متكىء بذراعه الأيمن على وسادته ، وهو في غاية الرياضة ، لم يتحرك ولم يختلج : مالي وللسلطان ، ان كان للسلطان عندي حاجة فليأت الى عندي ، فقال له نقيب الجيش ثانياً من باب الاغلاظ عليه : أجب ولي الأمر ، فقال الشيخ : اسكت والا أنني أفتي بكفرك وضرب عنقك ... من هم أولو الأمر ، أولو الأمر العلماء ... مثلك يخاطبني بهذا الكلام (٥٤) ؟ !

اعتزل السيوطي المناصب ، وتفرغ كلياً للتصنيف بعد هذه الحادثة ، وكانت نفسه قد امتلأت احساساً بأنه سيكون مجدد القرن التاسع ، وأنه سيجدد للناس أمر دينهم ، وكان قلمه يلهج بهذا بين حين وآخر ، وفكرة مجدد القرن تستند الى حديث نبوي ، فحواه أن الله سبحانه وتعالى يبعث لهذه الأمة كل مائة سنة بمجدد ، يجدد لها أمر دينها ، وهذا المجدد يجب أن يكون مجتهداً ، فكان من البديهي أن يبدأ السيوطي بدعوى الاجتهاد ، وهو ادعاء ليس بالسهل في تلك العصور الراكدة المتكورة على نفسها ، اجتماعياً وسياسياً ودينياً ، ومن ادعى الاجتهاد عليه أن يملك أدواته ويظهر معالمه ، فكيف تم للسيوطي ادعاء الاجتهاد ، وهل سلم له ذلك ؟

في عام (٨٨٨ هـ) كان للسيوطي جدال مع الشيخ الجوجري ، شمس الدين محمد بن عبد المنعم المولود سنة (٨٢١ هـ) ، وانحرف الجدال ، وتحول الى شجار أو ما يشبه الشجار ، وشرع العالمان الجوجري والسيوطي يطعن أحدهما في الآخر ، فلما استهل عام (٨٨٩ هـ) والأقوال في السيوطي تكثر ، والضجة حوله تكبر ، أثار خصوم السيوطي دعوى الاجتهاد ، ودعوه الى المناظرة ، فرفض بحجة أنه

مجتهد وهم مقلدون ، والمجتهد لا يناظر الا مجتهداً(٥٥) ، فاشتدت الثائرة عليه ، حتى قدم الشيخ عبدالقادر الطحطوطي(٥٦) وسعى بالصلح ٠

لم يكن جلال الدين حتى ذلك الحين قد أعلن ادعاءه الاجتهاد ، وانما كان يذكره في ثنايا بعض رسائله وكتبه ، فلما أشهر خصومه هذا الأمر عدّ ذلك نعمة من الله ينبغي التحدث بها ، ورفع عقيرته بدعوى الاجتهاد في مواضع من كتبه ، وبدعوى التفرد في مقدمات كتب أخر ، وحدد تفرده وسَبْقه في سبعة علوم تبحر فيها ، وهي : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع ، وزعم أنه وصل في هذه العلوم ـ سوى الفقه ـ الى مرتبة لم يصل اليها أحد من أشياخه(٥٧) ٠ أما كيف حدد السيوطي ذلك ، وكيف قاس مستواه ومستوى شيوخه ، وبأي معيار حدد تفوقه عليهم ؟ فالله وحده أعلم ٠ ولكن يبدو لي أنه كان ينظر الى كتبه التي يصنفها أو يسلخها ، فيراها أكثر من كتب شيوخه ٠ ولا أظن أن له مقياساً غير هذا ، ولا نملك مجادلته فيما ادعاه ، ولم يقتصر ادعاء التبحّر والاتقان على تلك السبعة ، وانما هناك علوم أخر اتقانه لها أقل ، كأصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها الفرائض والانشاء والترسل(٥٨) ، ٠٠٠ الخ ، وزعم لنفسه أنه بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق في الأحكام الشرعية وفي الحديث النبوي وفي العربية ، وقلّ أن تجتمع ـ كما يقول ـ صفة الاجتهاد المطلق في هذه الثلاثة لأحد(٥٩) ٠ ويرى أن هناك من العلماء من وصف بالاجتهاد المطلق ولم يبلغ مرتبته في تلك العلوم التي اجتمع له الاتقان فيها ، فهو يرى أن أولئك المجتهدين ، كأبي اسحاق الشيرازي(٦٠) ، وأبي نصر بن الصباغ(٦١) ، وإمام الحرمين(٦٢) ، وأبي حامد الغزالي(٦٣)، كانوا دونه في اجتماع آلة الاجتهاد لهم ، ومع ذلك وسموا بالاجتهاد ، فلم لا يكون مجتهد عصره وقد تجاوزهم ؟

وتسلطت فكرة الاجتهاد والتفرد على ذهن السيوطي ، ونبتت منها فكرة المبعوثية ، وهي أمنية طالما رددها وجهر بها في مواضع كثيرة ، وتمنى أن يكون هو المبعوث على رأس المائة ، ليجدد للناس أمر دينهم ، واحتج بما رواه أبو داود في سننه ، والحاكم في المستدرك ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، قال : (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها)(٦٤) ، وراح يعدد مجددي المئات ، فكان أولهم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز(٦٥) في رأس

المائة الأولى ، والامام محمد بن ادريس الشافعي(٦٦) في رأس المائة الثانية ، وأبو العباس بن سُريج(٦٧) في الثالثة ، وأبوحامد الاسفراييني(٦٨) أو الأستاذ أبو سهل الصعلوكي(٦٩) في الرابعة ، وحجة الاسلام أبو حامد الغزالي(٧٠) في الخامسة والامام فخر الدين الرازي(٧١) في السادسة ، وتقي الدين بن دقيق العيد(٧٢) في السابعة ، وسراج الدين البُلْقِيني(٧٣)أو ناصرالدين بن بنت الميلق الشاذلي(٧٤)، أو زين الدين العراقي(٧٥) في الثامنة ،وذلك (لأن تعيين المجدد إنما هو بغلبة الظن ممن عاصره من العلماء بقرائن أحواله والانتفاع بعلمه)(٧٦) ، ويعقب السيوطي على ما تقدم بقوله : (ونحن الآن في سنة ست وتسعين وثمانمائة ، ولم يجيء المهدي ولا عيسى ولا أشراط ذلك ، وقد ترجى الفقير من فضل الله أن ينعم عليه بكونه المجدد على رأس المائة ، وما ذلك على الله بعزيز)(٧٧) ، وأخذت هذه الفكرة تترددفي كتبه ، حتى أنه ألف رسالة فيمن يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة ، قال فيها : (إني ترجيت من نعم الله وفضله كما ترجى الغزالي لنفسه أني المبعوث على هذه المائة التاسعة،لانفرادي غليها بالتبحر في أنواع العلوم ، وقد اخترعت علم أصول اللغة وورّثته ولم أسبق اليه ، وهو على نمط علم الحديث وأصول الفقه ، وصارت مصنفاتي وعلومي في سائر الأقطار ، ووصلت الى الشام والروم والعجم والحجاز واليمن والهند والحبشة والمغرب والتكرور ، وامتدت الى البحر المحيط ، ولا مشاركة لي في مجموع ما ذكرته)(٧٨) ، وهذا النص مفيد للاستدلال على أن الرجل أخذ يعبّر عن علوم الأمة الاسلامية بعبارة (علومي)، وكأن هذه العلوم لم تكن قبله ، فكانت به ، وللاستدلال أيضاً على أن الرجل أخذ ينظر الى كثرة مصنفاته وسيرورتها على أنها هي التي تؤهله للمبعوثية ، وأخذ ادعاؤه يزداد شراسة ، ففي كتابه (الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف)(٧٩) يقول : (فان ثم مَنْ ينفخ أشداقه ويدّعي مناظرتي ، وينكر عليّ دعوى الاجتهاد والتفرد بالعلم على رأس هذه المائة ، ويزعم أنه يعارضني ويستجيش عليّ بمن لو اجتمع هو وهم في صعيد واحد ، ونفخت عليهم نفخة صاروا هباء منثوراً)(٨٠) .

ولا شك أن مثل هذه الشخصية النرجسية المتورمة ذاتياً لم تكن لتلقى من أقرانها القبول، ولم يكن معاصروها ليسلموا لها ما تدعيه ،وخاصة أن عصر السيوطي كان يعج بالعلماء، ومنهم من يفوقه علماً ومعرفة ، والاعتراف بالمبعوثية أمر يقرره الآخرون لا المبعوث نفسه،

فما بالنا وجلال الدين يفرض مبعوثيته وكونهمجدد المائة فرضاً على أقرانه وعلى عصره ، وليس له الا ادعاء التبحر وكثرة المؤلفات ،والتبحر دعوى ادعاها ولم يسلم له بها ، وكثرة مؤلفاته ليست مسلمة له ، لا في عصره ولا فيعصرنا ، وان شكوك السخاوي لم تنشأ من فراغ ، ولم تكن من عبث ، وان البحث الجادفي كثيرمن كتب السيوطي يؤيد شكوكالسخاوي ويثبت صحتها ، ويؤكد أن السيوطي كانكثير التبجح والادعاء ، وسأكتفي بضرب أمثلة قليلة .

لنأخذ كتاب (الاقتراح في أصول النحو)[٨١] ، وهو من الكتب التي تباهى بها السيوطي وادعى فيها التفرد ، فماذانجد ؟ إننا نجد مقدمة طنانة ، فهو يزعم أن كتابه لم تسمح قريحته بمثاله ، ولمينسج ناسج على منواله ،في علم لم يسبقه أحد الى ترتيبه ــ يعني علم أصول النحو ــ فاذا تركنا المقدمة الى الكتاب فاننا لا نجد للسيوطي أثراً ولا رأياً ، وانما نجدثمانية عشر فصلاً قد نقلها بتصريحه بذلك من « لمع الأدلة في أصول النحو »للكمال ابن الأنباري ، مضافاً إليها فصول نقلها من الخصائص لابن جنّي ، فأين التفرد وأين الاجتهاد وأين ترتيب هذا العلم الذي لم يسبق إليه ؟

وخذ أيضاً رسالته (البيان في رياضة الصبيان ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم) نجدها مأخوذة بقضّها وقضيضها من كتابإحياء علوم الدين للغزالي[٨٢] .

وخذ أيضاً كتابه (الأرج في الفرج)تجده مأخوذاً بنصه تقريباً من كتاب (الفرج بعد الشدة) لابن أبي الدنيا[٨٣] .

فلا عجب إذن أن طعن بعض معاصري السيوطي في علمه ، واتهموه بسرقة كتبه من كتب غيره . قال السخاوي (واختلس حين كان يتردد اليّ مما عملته كثيراً ، كالخصال الموجبة للضلال ،والأسماء النبوية ، والصلاة على النبي ، وموت الأبناء ، ومالا أحصره ، بل أخذ منكتب المحمودية وغيرها كثيراً منالتصانيف المتقدمة ، التي لا عهد لكثير من العصريين بها في فنون ، فغير فيها يسيراً ، وقدم وأخر ، ونسبها لنفسه ، وهوّل في مقدماتها ، بما يتوهم منه الجاهل شيئاً مما لا يوفي ببعضه ، وأول ما أبرز جزء لهفي تحريم المنطق ، جرّده من مصنف لابن تيمية ، وفيها مما اختلسه من تصانيفشيخنا ــ يعني ابن حجر ــ : لباب النقول

في أسباب النزول ، وعين الاصابة في معرفة الصحابة ، والنكت البديعات على الموضوعات ، والمدرج الى المُدرج ، وتذكرة المؤتسي بمن حدّث ونسي ، وتحفة النابه بتلخيص المتشابه ، وما رواه الواعون في أخبار الطاعون ، والأساس في مناقب بني العباس ، وجزء في أسماء المدلسين ، وكشف النقاب عن الألقاب ، ونشر العبير في تخريج أحاديث الشرح الكبير ، ... ، كل هذه تصانيف شيخنا، وليته إذا اختلس لم يمسخها ، ولو نسخها على وجهها لكان أنفع، .)(٨٤) .

واتهامات السخاوي هذه ينبغي أن يُنظر اليها بتدبر وتأمل ، وأن يعقبها الفحص والمقارنة ، لأنه لا يرسل اتهاماته على عواهنها ، فلها ما يسوغها ، وقد رأينا نموذجات مما أتيح لنا فحصه وسبره ، زد على ذلك جرأة السيوطي على ادعاء التأليف في موضوعات نقلية ليس له فيها شيوخ ، فمن الذي أقرأه القراءات وأجازه حتى يصنف شرحاً للشاطبية وألفية في القراءات العشر ؟.

لقد ملأت عليه فكرة مجدد المائة أقطار قلبه وعقله ، واستقر لديه أن سبيل التجديد إنما هو كثرة التصنيف ،وحجبته رغبته المتأججة عن أن يرى الآخرين ، بل حجبته عن أن يرى عالماً غيره في عصره،فأطلق لقلمه العنان ، يجمع طائفة من الأحاديث في التراويح ، فهي إذن كتاب ،ويأخذ مجالس العلماء ويضم بعضها الى بعض ، فيتشكل منها نصف كتاب الأشباه والنظائر النحوية ، ويأخذ كتاب المعرب للجواليقي فيختصره ، فهو إذن مصنّف ،وقل مثل ذلك في النهاية في غريب الحديث والأثر ، ومثله في (اللباب في الأنساب)وفي غيرها .

ان مؤلفات السيوطي ، حتى تلك التي يدعي فيها التفرد والابداع ، تحتاج الى فحص وسبر وتدقيق ، وان كثيراً من كتبه المهمة يغدو تاريخي القيمة عندما تحصل أصوله بين أيدي الباحثين ،ونكتفي بمثالين ، الأول : الاتقان في علوم القرآن ، والثاني : الاقتراح في علم أصول النحو .

ان الدراسة المعمقة نسبياً لنفسية السيوطي ومزاجه لا تكون من كتبه العلمية التي صنفها ، لأنها في جملتها نقول ضمّ بعضها الى بعض لتصبح كتاباً،

والباحث يعجز أحياناً ، وهو يراجع كتاباً في ألفي صفحة ، أن يجد للسيوطي رأياً ، أو يلمح له شخصية • ان مثل هذه الدراسة انما يجب أن تعتمد مقاماته التي أنشأها ، وظهرت فيها عداواته لأقرانه ، وصرح فيها ببعض مكنونات نفسه ، وظهرت فيها طبيعة تواصله مع مجتمعه ، وأن تعتمد مقدمات كتبه التي ملأها بالادلال والادعاء ، ومن طرائفه أنه قطع سلسلة كلامه في الأشباه والنظائر النحوية ليطعن أحد معاصريه(ه) ، وهو يعني الامام القسطلاني(٨٦) ، متهماً اياه بسرقة كتابه الخصائص الكبرى ، وهو كتاب في الخصائص النبوية ، ومصادره ومراجعه مبذولة آنذاك ، ولم يكن القسطلاني دون السيوطي في علم الحديث بحال ، حتى يتهم مثل هذا الاتهام •

ولا بد هنا ـ وقد أشرت الى القسطلاني ـ من أن أذكر حادثة لها شأنها من الدلالة على عجرفية السيوطي وطريقته في التعامل والسلوك مع علماء عصره ، فقد اتهم السيوطي القسطلاني بالأخذ من كتبه ، ووصل الأمر بهأن ادعى عليه السيوطي بذلك بين يدي شيخ الاسلام زكريا(٨٧) ، وأراد القسطلاني ازالةما في خاطر السيوطي عليه ، فمشى اليه من القاهرة الى الروضة ، وكان الجلال معتزلا الناس بالروضة ، فوصل القسطلاني الى باب السيوطي ودق الباب ، فقال له : من أنت ؟فقال : أنا القسطلاني ، جئت اليك حافياً ، مكشوف الرأس ، ليطيب خاطرك عليّ ، فقال له : قد طاب خاطري عليك ، ولم يفتح له الباب ولم يقابله(٨٨) •

وهذه الحادثة بليغة الدلالة على كِبْر السيوطي وزهوه ، وان هذا لعمري ليس من صفات مجددي المئات ، فأن تجديد أمور الدين ليس حبراً وورقاً وسرقة مصنفات الآخرين ، وان الاجتهاد ليس في مخالفة آراء الآخرين وفتاواهم والرد عليهم في جزئيات لاتقدم ولاتؤخر ، انه ليس في تأريث الخلاف وانما في تأليف القلوب ، والسيوطي كان بعيداً من ذلك كله ، فقد كان من اليسير عليه أن يتطاول على أبناء عصره في أمور هي من التفاهة بمكان ، فمن ذلك أنه سئل عام (٨٨٨ هـ) عن قولهم في القنوت (واليك نسعى ونحقد) ، هل هو بالدال المهملة ، أو بالذال المعجمة ، فكتب أنه بالدال المهملة ، فشنع عليه الجاهل ـ حسب تعبيره ـ وأتباعه زاعمين أنها بالذال المعجمة ، فكتب السيوطي (فانظروا بالله الى هؤلاء الذين عاشوا في بلاد المسلمين ستين سنة ، وهم يلحنون في قنوتهم وصلاتهم ، ولا يحسنون التلفظ فيها ، ومع ذلك يعتمون بعمائم الفقهاء ،

ويمدون ألسنتهم للانكار على أساطين العلماء)[٨٩]، يعني نفسه، والأمر كله لا يحتاج الى أساطين العلماء ولا الى صغارهم، انه قضية مبتدئين لا أكثر ولا أقل، جعل منها السيوطي ذريعة لادعاء العلم والفضل.

ان قضية مجدد المائة والمبعوثية هي المفتاح الذي تدرس من خلاله شخصية السيوطي، وبوساطتها نفسّر كثرة تصانيفه وحرصه على الاكثار منها وعلى الادلال بعلمه، وتكثّره من الشيوخ وطعنه في علماء عصره، وكأنه يرغب في حذفهم والغائهم جميعاً ليخلو له في الميدان، وهذا ما أثارهم عليه، وكانت مشاحناته معهم باعثاً آخر من بواعث الاكثار من التأليف، فاذا كانت رغبته في أن يظهر فقيهاً تحدوه لأن يشرح الروضة أو المنهاج، فن عداوته للسخاوي دفعته لتصنيف (الكاوي في تاريخ السخاوي)[٩٠]، وكذلك صنف (اللفظ الجوهري في رد خباط الجوجري)[٩١]، و (الكر على عبد البر)[٩٢]، وغيرها.

لقد كان جلال الدين ذا حظ عظيم في حياته وبعد وفاته، وكان لمصنفاته ذيوع في العالم الاسلامي، في أيامه وحتى أيامنا، واهتم عشرات العلماء من المعاصرين بكتب السيوطي، تحقيقاً وضبطاً وشرحاً، وها نحن اليوم في ندوة حول السيوطي، ومنذ أشهر كانت هناك ندوة حوله في القاهرة، وفي دمشق صدر عدد خاص من مجلة التراث العربي حول السيوطي[٩٣]، وأيضاً صدر عدد خاص من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق عنه[٩٤]، ولو كنا منصفين لاحتفلنا قبل تسع سنوات بمرور خمسمائة عام على وفاة السخاوي مثلا، ولكن السيوطي رزق هذا الحظ العظيم من الاهتمام الذي لم يتح مثله للامام الشافعي نفسه ولا لأبي حنيفة ومالك وابن حنبل، أليس هذا من العجب العجاب؟

ان ما قدمته ليس الا جولة تحليلية في سيرة السيوطي، رمت الى تبيان مفتاح شخصيته، تلك الشخصية التي هيء لها من الاستعداد الطبيعي والتربية الملائمة لتكون على ما كانت عليه، وفي مقدورنا اليوم أن ننظر اليه والى أقرانه بعد أن فصلت بيننا وبينهم القرون بعين العدل والانصاف قدر المستطاع، لنعطي كل ذي حق حقه، وغير بعيد أن يكون طَعْن بعض علماء عصره فيه ليس باعثه الحسد، ولا يسقط طعنهم فيه كونهم متعاصرين، بل ان في طعنهم من الحق شيئاً، ربما كان ليس باليسير الهين..

ان كل ما ذكرته لا يلغي السيوطي ،ولا يحاول الازراء به ، وانما الهدف أن ننظر الى السيوطي نظرة واقعية أو أقرب ما تكون الى الواقع ، وأن نقدّره حق قدره ، وأن ننظر اليـه كما ننظـر الىالكثيرين مـن أمثاله ممـن نصادفهـم في مجالات العلم والمعرفة في أيامنا ، ولا أريدأن أذكر أسماء ، وأن لا نجازف في اطلاق الألقاب عليه دون طائل ، وأن لا ننكـرفضله مع ذلك ، فاذا كان السيوطـي في معظم آثاره مصنفاً جماعـة ، سالخاً كتبغيره ، فانه في الوقت نفسـه حفظ لنا في هذه الكتب كثيراً مما ضاع من تراثنا ،أو كثيراً مما كان يصعب العثور عليه حتى وقت قـريب ·

ثم ان السيوطي كان شاهد عصر ،فمن كتبه التاريخية ، ومن التراجم التي كتبها لمعاصريه ، ومن المقامات التي دبجهانستطيع أن نستشف ونعرف الكثير عـن عصـر السـيوطي وعاداتـه وتقاليـده وأوضاع الاجتماع والعمران فيه ·

كما ان السيوطي يعـدّ من كتّابالسيرة الذاتية على نحو ما(٩٥) ، صحيح أنه جعل من سيرته الذاتية سجلا لمؤلفاته وشيوخه ، الا أن تلك السيرة وأعني بهـا (التحدث بنعمة الله تعـد سيرة ممهـة ،لأنها تفصح عن نفسه ودخائلهـا ، ولأن دارس السيرة لا يقرأ السطور ، وانمـا يقرأ ما وراءها ، وفي ذلك (الماوراء) يجد الباحث متسعاً للقول ، فهو يؤيد أويشك أو يلمح أو ··· وهـذا ما يمنـح سيرته بُعداً اضافياً ، ولا سيما أن سيرته كتبت بقلمـه ، كمـا أن الآخريـن من تلاميذه وخصومـه ترجموا له ، وهـذاما يجعـل باب المقارنـة مفتوحـاً عـلى مصراعيه : كيـف رأى الرجل نفسـه ،وكيف رآه الآخـرون ، أو السيوطـي في مرآه نفسه ، والسيوطي في مرآة الآخرين ·

ومهما يكن من أمر فان صغائـر الأموربددتها دورة الدهر،ولم يبق من كبر السيوطي وزهـوه الا الحبر والورق ، وعلاقاتـه مـع خصومه ومحبيه غبرت فيما غبر ، ولم يبـق منهم الا عملهم وآثارهم التي عم انتفاع الناس بهـا الى يوم الناس هـذا ، ولا تـزال كتب السيوطي وكتب أقرانه كالقسطلاني والسخاوي مرجعاً رحباً للعلمـاء وميدانـاً فسيحـاً للباحثين ، رحم الله الجميع ·

★ ★ ★

الحواشي والاحالات :

١ ـ انظر حسن المحاضرة ١ : ٣٣٥ والتحدث بنعمة الله .

٢ ـ من ذلك ما كتبه عنه تلميذه ابن اياس في بدائع الزهور ٤:٨٣ وكتاب تلميذه عبدالقادر الشاذلي (بهجة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدين) وهو قيد التحقيق انشاء الله . وانظر أيضا الضوء اللامع ٤:٦٥ . وشذرات الذهب ٨:٥١ . والبدر الطالع : ٣٢٨ ، وتاريخ النور السافر للعيدروس : ٥١ .

٣ ـ أنظر مقدمتنا لكتاب الأشباه والنظائر النحوية ، ط مجمع اللغة بدمشق ١٩٨٥ ، ومقالتنا في مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة : الامام جلال الدين السيوطي ، وفن السيرة الذاتية ـ المجلد ٣٤ـ١٩٩٠ . ومقالتنا في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق : الامام جلال الدين السيوطي : سيرة مختصرة ، المجلد ٦٧ ، العدد ٤ . ومقالتنا في مجلة عالم الكتب بالرياض : فهرس مؤلفات السيوطي المطبوعة ، مجلد ١٢ ، العدد الأول ١٩٩١ .

٤ ـ حسن المحاضرة ١/٣٣٦ .

٥ ـ كمال الدين بن الهمام : محمد بن عبدالواحد بن عبدالحميد ٧٩٠ـ٨٦١ هـ ، كان علامة محققا جدليا نظارا ، حسن المحاضرة ، ١/٤٧٤ .

٦ ـ الشيخونية : مدرسة انشاها الامير شيخو العمري سنة ٧٥٦ هـ وتعرف بجامع شيخو ، الخطط التوفيقية ٦/٨ .

٧ ـ هو ابو بكر الخضيري السيوطي ، كان من اهل العلم والمعرفة ، وولي قضاء اسيوط قبل قدومه الى القاهرة ، فلما قدمها اخذ عن علمائها وقرأ عليهم ، وبلغ في صناعة التوقيع النهاية، انظر ترجمته في: حسن المحاضرة ١/٤٤١، ونظم العقيان ٦٥ .

٨ ـ سليمان بن المتوكل المستكفي بالله ، ترجم له السيوطي في تاريخ الخلفاء ، ٥١١ وما بعدها ، وقال فيه : وما اظن انه وجد على ظهر الأرض خليفة بعد آل عمر بن عبدالعزيز اعبد من آل بيت هذا الخليفة، ولي الخلافة عام ٨٤٥ هـ ، وتوفي عام ٨٥٤ هـ .

٩ ـ انظر نسخة العهد في تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥١١ .

١٠ـ انظر ما كتبه عنهم في تاريخ الخلفاء ٤٧٧ وحسن المحاضرة ٢:٥٢ وما بعدها وخاصة ص ٩٤ .

١١ـ في حسن المحاضرة ١/٣٣٧ انه الف عام ٨٦٦ شرحا للاستعاذة والبسملة .

١٢ـ هناك عدة كتب بهذا العنوان ، أحدها في الفروع لابن قدامه الحنبلي ٦٦٠ هـ ، والثاني في الحديث لابن دقيق العيد ت ٧٠٢ هـ ، واظنه يريد هذا الأخير ، أنظر كشف الظنون ٢/١١٦٤ .

١٣ـ منهاج النووي هو منهاج الطالبين في مختصر المحرر في فروع الفقه الشافعي للامام محيي الدين يحيى بن شرف النووي ت ٦٧٦ هـ ، أنظر كشف الظنون ٢/١٨٧٣ .

١٤ـ الفية ابن مالك هي الخلاصة الألفية التي اختصرها في ألف بيت من مطولته الكافية الشافية . وابن مالك هو ابو عبدالله محمد بن عبدالله ، ولد بجيان بالأندلس ، وتوفي بدمشق عام ٦٧٢ هـ ، بغية الوعاة ١/١٣٠ . وكتاباه المشار اليهما منشوران .

١٥ـ منهاج البيضاوي هو منهاج الوصول الى علم الأصول للقاضي عبدالله بن عمر البيضاوي ت ٦٨٥ هـ ، كشف الظنون ٢/١٨٧٨ .

١٦ـ علم الدين البلقيني صالح بن شيخ الاسلام سراج الدين ٧٩١ـ٨٦٨ هـ ، حامل لواء مذهب الشافعية ، وله مصنفات ، وتولى القضاء الأكبر عام ٨٢٦ هـ ، انظر حسن المحاضرة ١/٤٤٤ ، وشذرات الذهب ٧/٣٠٧ .

١٧ـ شرف الدين المناوي يحيى بن محمد ٧٩٨ـ٨٧١ هـ ، شيخ الاسلام ، قاضي القضاة ، وله تصانيف ، حسن المحاضرة ١/٤٤٥ ، وشذرات الذهب ٧/٣١٢ .

١٨ـ عزالدين الحنبلي : احمد بن ابراهيم بن نصرالله ، قاضي القضاة ٨٠٠ـ٨٧٦ هـ ، أنظر حسن المحاضرة ٤٨٤/١ ٠

١٩ـ الأقصرائي امين الدين يحيى بن محمد بن ابراهيم ٧٩٥ـ٨٨٠ هـ ، انتهيت اليـه رئاسة الحنفية في عصره ، نظـم العقيان ١٧٨ ، وحسن المحاضرة ٤٧٨/١ ٠

٢٠ـ شمس الدين محمد بن موسى ، إمام الشيخونية ، ورد ذكره في التحدث بنعمة الله ٦٨ ، ٢٣٧ ٠

٢١ـ حسن المحاضـرة ٣٣٧/١ ٠

٢٢ـ بهجة العابدين ، ص ١٨ـ١٩ ، نسخة جستر بيتي ، وفيه : واستمررت بعد ذلك ـ بعد الاجازة ـ ملازما لدروس شيخنا شيخ الاسلام (شرف الدين) ، فلم انفك الى انمات ، وكنت أذهب من الفجر الى دروس البلقيني فاحضر مجلسه الى قرب الظهر ، ثم ارجع الى الشمني فاحضر مجلسه الى قرب العصـر ، هكـذا ثلاثة أيام في الجمعة : السبت والاثنين والخميس ٠ وكنت احضر الأحد والثلاثاء عند الشيخ سيف الدين بكرة ، ومن بعد الظهر في هذين اليومين ويوم الأربعاء عند الشيخ محيي الدين الكافيجي ٠

٢٣ـ سبقت الاشارة اليها ، ونضيف انها نشرت بشرح ابن مالك وتحقيـق الدكتـور عبدالمنعم احمد هريـدي بجامعة أم القرى سنة ١٩٨٢ ٠

٢٤ـ بهجة العابدين ، ص ١٧ ، مخطوط جستر بيتي ٠

٢٥ـ المرجع السابق ، ص ١٨ ٠

٢٦ـ الشافعي محمد بن ادريس ١٥٠ـ٢٠٤ هـ ، أحد الأئمة الأربعة ، اليه نسبة الشافعي كافة ، ولد في غزة بفلسطين وحمل منها الى مكة وهو ابن سنتين ، وزار بغداد مرتين ، وقصد مصر عام ١٩٩ هـ ، وأقام بها حتى وفاته ٠ انظر طبقات الشافعية ١٨٥/١ ٠

٢٧ـ كتاب الرسالة للشافعي ، وهو أول كتاب الف في أصول الفقه ، قال الشيخ أحمد محمد شاكر : بل هو أول كتاب الف في أصول الحديث أيضا ٠ أنظر الرسالة ، المقدمة ١٣ ٠

٢٨ـ التحـدث بنعمـة الله ٢٤١ ٠

٢٩ـ سبقت ترجمتـه في الحاشية ١٧ ٠

٣٠ـ سيف الدين الحنفي محمد بن محمد بن عمر بن قطلوبغا البكمتري ٨٠٠ـ٨٨١ هـ ، أنظر حسن المحاضرة ٤٧٨/١ ، وبغية الوعاة ٢٣١/١ ، وشذرات الذهب ٣٣٢/٧ ٠

٣١ـ الكافيجي : محمد بن سليمان ، قال عنه السيوطي : أستاذ الدنيا في المعقولات ، ولد قبل سنة ٨٠٠ هـ ، وتوفي عام ٨٧٩ هـ ٠ حسن المحاضرة ٥٤٩/١ ٠

٣٢ـ التحـدث بنعمـة الله ٢٤٤ ٠

٣٣ـ الفخر المقسي : عثمان بن عبـدالله ، من فقهاء الشافعية ، ورد ذكره في عدة مواضع في كتاب التحدث بنعمة الله: ١٠ ، ٩١ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ٠

٣٤ـ صون المنطق والكلام ، طبع بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٤٧ بعنـاية علي سامي النشار ، وأعاد نشره سنة ١٩٧٠ في مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر ٠

٣٥ـ الشمني : تقي الدين ، أبو العباس ، احمد بن محمد بن محمد بن حسن التميمي الداري ، ٨٠١ـ٨٧٢ هـ ٠ حسـن المحاضرة ٤٧٤/١ ، وبغية الوعاة ٣٧٧/١ ٠

٣٦ـ انظر التحدث بنعمـة الله ٤٣ ، وبهجة العابدين ٢٢ ٠

٣٧ـ النـووي : سبق ذكره في الحاشية ١٣ ٠

٣٨ـ الشهرزوري : ابن الصلاح عثمان بن عبدالرحمن ٥٧٧ـ٦٤٣ هـ ، توفي بدمشق ، أحد الفضلاء المقدمين في الفقه والتفسير والحديث ، وهو صاحب كتاب (معرفة أنواع الحديث) المعروف بمقدمة ابن الصلاح ٠

٣٩ـ الأبيات المشار اليها هي للشيخ شمس الدين محمد بن علي العطائي الذي سمع السيوطي وكتب عنه ثم مدحه بقوله:

أرى شباباً ما أرى مثله ... في العلم والدين معاً والصلاح
تبسّم (الثغر) به ضاحكاً ... وافتر عن درٍّ وشهدٍ وراح
شبهته لمّا بدا مقبلاً ... بالشيخ محيي الدين وابن الصلاح

أنظر التحدث بنعمة الله ٨٤ ٠

٤٠ـ التحدث بنعمة الله ٨٨ ٠

٤١ـ معظم الذين ترجموا له من المعاصرين وقعوا في هذا الوهم ، ولا يزالون كذلك ، أنظر على سبيل المثال : المزهر ٦٥٧/٢ ، الاقتراح ص ٨٣ بتحقيق الدكتور محمود فجال ، معترك الأقران ١/ق ، ومقال عبداللطيف أرناؤوط في مجلة التراث العربي بدمشق ، العدد ٥١ ، ص ٥٤ـ٥٥ ، وغير هؤلاء كثير ٠

٤٢ـ وكان ذلك بالجامع الطولوني ، وهو جامع كان بناه أحمد بن طولون ، بدأ بناءه عام ٢٦٣ هـ ، وفرغ منه عام ٢٦٥ ، وانظر خطط المقريزي ١٤٢/٣ ، وحسن المحاضرة ٢٤٦/٢ ، والتحدث بنعمة الله ٨٨ ٠

٤٣ـ ابن عساكر : علي بن الحسن بن هبة الله ، محدث الديار الشامية ، ومصنف تاريخ دمشق ، ٤٩٩ـ٥٧١ هـ ، أنظر طبقات الشافعية الكبرى ٢٧٣/٤ ٠

٤٤ـ ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي ٧٧٣ـ٨٥٢ هـ ، مولده ووفاته بالقاهرة ، كان حافظ الاسلام في عصره ٠ البدر الطالع : ٧٩/١ ، نظم العقيان ٤٥ ٠

٤٥ـ الضوء اللامع ٦٦/٤ ، والشيخ شمس الدين السخاوي محمد بن عبدالرحمن ، ولد عام ٨٣١ ، وتوفي عام ٩٠٢ هـ ، وترجمته في تاريخ النور السافر ١٨ ٠

٤٦ـ سراج الدين البلقيني: عمر بن رسلان ٧٤٢ـ٨٠٥ هـ، أبو حفص سراج الدين مجتهد حافظ للحديث ، ولد في بلقينة بمصر وتعلم بالقاهرة ، ولي قضاء الشام سنة ٧٦٩ هـ وتوفي بالقاهرة ٠

٤٧ـ بهجة العابدين ٢٣ ٠

٤٨ـ التحدث بنعمة الله ٢٠ وما بعدها ٠

٤٩ـ ابراهيم بن عبدالرحمن الكركي الأصل ، القاهري المولد ، ولد سنة ٨٣٥ وتوفي ٩٢٢ هـ ، تاريخ النور السافر ١٠١ ٠

٥٠ـ الجوجري شمس الدين محمد بن عبدالمنعم ٨٢١ـ٨٨٩ هـ ، من فقهاء الشافعية بمصر ، الضوء اللامع ١٢٣/٨ ، البدر الطالع ٢٠٠/٢ ، وانظر مقامات السيوطي ٣٩١/١ ٠

٥١ـ عبدالقادر بن محمد بن أحمد الشاذلي ، تلميذ السيوطي ، ومصنف كتاب (بهجة العابدين بترجمة الشيخ جلال الدين ، توفي بعد سنة ٩٤٥ هـ ، ففي كتابه بهجة العابدين ص ٩١ ، نسخة جستر بيتي) ذكر حادثة وقعت سنة ٩٤٦ ، وهذا أصح مما ذكره الزركلي في الأعلام ٤٣/٤ من أن وفاته كانت عام ٩٣٥ ٠

٥٢ـ قانصوه السلطان الغوري بن عبدالله الجركسي ، بويع بالسلطنة بقلعة الجبل بالقاهرة سنة ٩٠٥ هـ ، هزم أمام السلطان سليم العثماني وقتل في مرج دابق قرب حلب سنة ٩٢٢ هـ ، أنظر در الحبب ـ جـ ٢ ، ق ٤٥/١ برقم ٣٨١ ، والبدر الطالع ٥٤/٢ ، وشذرات الذهب ١١٣/٨ ، والأعلام ١٨٧/٥ ٠

٥٣ـ البيبرسية : بناها الملك المظفر ركن الدين بيبرس قبل أن يلي السلطنة سنة ٧٠٦ هـ ، أنظر خطط المقريزي ٤٠٤/٣ ، وحسن المحاضرة ٢٦٥/٢ ، والخطط التوفيقية ٩٨/٤ ٠

٥٤ـ الخبر في بهجة العابدين ٦١ـ٦٢ ٠
٥٥ـ التحدث بنعمة الله ١٩٣ ٠
٥٦ـ التحدث بنعمة الله ١٩٤ ٠
٥٧ـ٥٨ـ٥٩ ـ المرجع السابق ٢٠٣ وما بعدها ٠

٦٠ـ أبو اسحاق الشيرازي ابراهيم بن علي العلامة ، المناظر٣٩٣ـ٤٧٦ هـ ، انظر طبقات الشافعية الكبرى ٨٨/٣ ، ومقدمة الدكتور احسان عباس لكتاب الشيرازي ـ طبقات فقهاء الشافعية ٠

٦١ـ أبو نصر بن الصباغ : عبدالسيد بن محمد ٤٠٠ـ٤٧٧هـ ٠ طبقات الشافعية الكبرى ٢٣٠/٣، ونكت الهيمان١٩٣٠

٦٢ـ إمام الحرمين : عبدالملك بن عبدالله الجويني أبو المعالي٤١٩ـ٤٧٨ هـ ، طبقات الشافعية الكبرى ٢٩٩/٣ ٠

٦٣ـ الغزالي أبو حامد محمد بن محمد ، حجة الاسلام ٤٥٠ـ٥٠٥ هـ ، طبقات الشافعية الكبرى ، ١٠١/٤ ٠

٦٤ـ ذكر السيوطي في الجامع الصغير ١٢٥/١ أن هذا الحديث حديث صحيح ٠

٦٥ـ عمر بن عبدالعزيز امير المؤمنين ، من خلفاء بني أمية ٦١ـ١٠١ ، بويع بالخلافة سنة ٩٩ هـ ، انظر تهذيب التهذيب ٤٧٥/٧ ، وتاريخ الخلفاء ٢٢٨ ٠

٦٦ـ سبق ذكره في الحاشية ٢٦ ٠

٦٧ـ أبو العباس بن سريج : أحمد بن عمر ٢٤٩ـ٣٠٦ هـ ، فقيه الشافعية في عصره، طبقات الشافعية الكبرى ٨٧/٢ ٠

٦٨ـ أبو حامد الاسفراييني: أحمد بن محمد ٣٤٤ـ٤٠٦ هـ، طبقات الشافعية الكبرى ٢٤/٣ ٠

٦٩ـ الصعلوكي سهل بن محمد بن سليمان ت ٣٨٧ ٠ الاعلام ١٤٣/٣ ٠

٧٠ـ أبو حامد الغزالي ، انظر الحاشية ٦٣ ٠

٧١ـ فخرالدين الرازي : محمد بن عمر ٥٤٤ـ٦٠٦ هـ صاحب التفسير ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٣/٥ ٠

٧٢ـ ابن دقيق العيد : محمد بن علي ٦٢٥ـ٧٠٢ ، الاعلام ٢٨٣/٦ ٠

٧٣ـ سراج الدين سبق ذكره في الحاشية ٤٦ ٠

٧٤ـ ناصرالدين بن الميلق قاضي القضاة محمد بن عبدالدائم ٧٣١ـ٧٩٧ هـ ، حسن المحاضرة ٥٢٧/١ ٠

٧٥ـ زين الدين العراقي أبو الفضل عبدالرحيم بن الحسين المعروف بالحافظ العراقي ٧٢٥ـ٨٠٦ هـ ، توفي بالقاهرة ٠ الضوء اللامع ١٧١/٤ ٠

٧٦ـ التحدث بنعمة الله ٢٢٥ ٠

٧٧ـ المرجع السابق ٢٢٧ ٠

٧٨ـ عن مقدمة نظم العقيان التي كتبها الدكتور فيليب حتى ٠

٧٩ـ المرجع السابق ٠

٨٠ـ المرجع السابق ٠

٨١ـ الاقتراح في أصول النحو وجدله ، طبع في الهند مرتين١٣١٠ هـ و ١٣٥٩ هـ ، ونشر بحلب مصوراً عن طبعة الهند، ثم نشر في القاهرة بتحقيق احمد محمد قاسم ١٣٩٦ هـ ، وفي كلية الآداب باستانبول بتحقيق احمد صبحي فرات، ثم نشر بتحقيق الدكتور محمود فجال في السعودية ، وصدر عن مطبعة الثغر ١٤٠٩ هـ ، ونشر الدكتور فجال أيضا: الاصباح في شرح الاقتراح من تاليفه بدار القلم بدمشق ١٤٠٩ هـ ٠

٨٢ـ لمع الأدلة ٠ حققه الأستاذ سعيد الأفغاني ونشرته الجامعة السورية بدمشق١٩٥٧ مع كتاب الاغراب في جدل الأعراب٠

٨٣ـ انظر مقال الدكتور عدنان درويش (اتهام الجلال السيوطي) في مجلة التراث العربي ـ العدد ٥١ـ١٩٩٣ ، ص ٩٠ وما بعدها ٠

٨٤ـ تبين لنا هذا من مقارنة مخطوط كتاب السيوطي بكتاب ابن أبي الدنيا المطبوع بدار البشائر بدمشق ١٩٩٢ بتحقيق ياسين محمد السواس ، وابن أبي الدنيا هو الامام أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي ٢٠٨ـ٢٨١ هـ ٠

٨٥ـ الضوء اللامع ٦٥/٤ وما بعدها ٠

٨٦ـ الأشباه والنظائر النحوية ٦٥٥/١ باب الفروع هي المحتاجة الى العلامات ، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيقي مع زملائي ١٩٨٥ـ١٩٨٧ ٠

٨٧ـ القسطلاني احمد بن محمد ٨٥١ـ٩٢٣ هـ ، توفي بالقاهرة ، أنظر تاريخ النور السافر ١٠٦ ٠

٨٨ـ هو شيخ الاسلام كريا الأنصاري ٨٢٤ـ٩٢٥ هـ ، انظرترجمته في نظم العقيان ١١٣ ، وتاريخ النور السافر ١١١ ، والحادثة المشار اليها في تاريخ النور السافر ١٠٧ ٠

٨٩ـ تاريخ النور السافر ١٠٧ ٠

٩٠ـ التحدث بنعمة الله ١٨١ ٠

٩١ـ أنظر مقامات السيوطي : مقامة الكاوي في تاريخ السخاوي ٩٣٣/٢ ٠

٩٢ـ التحدث بنعمة الله ١٢٥ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ٠

٩٣ـ التحدث بنعمة الله ١٢٥ ، ١٩٩ ٠

٩٤ـ التراث العربي ـ العدد ٥١ ، شوال ١٤١٣ ، نيسان ١٩٩٣ ، دمشق ٠

٩٥ـ مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٦٧ ، العدد الرابع ١٩٩٢ ٠

٩٦ـ انظر بحثنا المنشور في مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، المجلد ٣٤ ، عام ١٩٩٠ ، بعنوان (السيوطي وفن السيرة الذاتية) ٠

* * *

مراجع البحث :

ـ الارج في الفرج ، جلال الدين السيوطي ، مخطوط الظاهرية بدمشق (ضمن مجموع)

ـ الأشباه والنظائر النحوية للسيوطي ، تح : عبدالاله نبهان ورفاقه ، ط مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٥ ٠

ـ الأعلام ، خيرالدين الزركلي ، ط ٤ ، بيروت ٠

ـ الاقتراح في أصول النحو ، تح : د. أحمد محمد قاسم ، القاهرة ١٩٧٦ ٠

ـ البدر الطالع ، الامام محمد بن علي الشوكاني ، مطبعة السعادة ١٣٤٨ هـ ، القاهرة ٠

ـ بغية الوعاة ، جلال الدين السيوطي ، تح : محمد أبي الفضل ابراهيم ، القاهرة ٠

ـ بهجة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدين، عبدالقادر الشاذلي ، مصورة عن مخطوطة جستر بيتي ٠

ـ تاريخ الخلفاء ، جلال الدين السيوطي تح : محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٦٩ ، ط ٤ ٠

- تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، محيي‌الدين عبدالقادر العيدروسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥ .
- التحدث بنعمة الله ، جلال‌الدين السيوطي ، تح : اليزابيث ماري سارتين ، القاهرة ١٩٧٢ .
- التراث العربي (مجلة) ، العدد ٥١ ، نيسان ١٩٩٣ .
- تهذيب التهذيب ، ابن حجر العسقلاني ، دار صادر ، بيروت .
- جلال‌الدين السيوطي ، بحوث ألقيت في ندوة القاهرة ١٩٧٦ ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٨ .
- حسن المحاضرة ، جلال‌الدين السيوطي ، تح : محمد أبي الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٧ .
- خطط المقريزي ، المقريزي ، كتاب التحرير ، القاهرة .
- الرسالة ، الامام الشافعي ، تح : أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٩٤٠ .
- شرح مقامات جلال‌الدين السيوطي ، تح : سمير محمود الدروبي ، مؤسسة الرسالة ١٩٨٩ ، بيروت.
- شذرات الذهب ، ابن العماد الحنبلي ، نشر القدسي ، القاهرة ١٣٥١ .
- الضوء اللامع ، السخاوي ، منشورات مكتبة الحياة ، لبنان .
- طبقات الشافعية الكبرى ، تاج‌الدين السبكي ، الحسينية بالقاهرة ١٣٢٤ هـ .
- طبقات الفقهاء ، أبو اسحاق الشيرازي ، تح : د. احسان عباس ، دار الرائد العربي ، بيروت ١٩٨١ .
- عالم الكتب ، مجلة ، المجلد ١٢ ، العدد الأول ١٩٩١ ، الرياض .
- الفرج بعد الشدة ، ابن أبي الدنيا ، تح : ياسين محمد السواس، دار البشائر، دمشق١٩٩٢.
- كشف الظنون ، حاجي خليفة ، طبعة مصورة في مكتبة المثنى ببغداد .
- لمع الأدلة في أصول النحو ، ابن الأنباري ، تح: سعيد الأفغاني ، الجامعة السورية ١٩٥٧ ، دمشق .
- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٦٧ ، العدد الرابع ١٩٩٢ .
- مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، المجلد ٣٤ — ١٩٩٠ .
- نظم العقيان في أعيان الأعيان ، جلال‌الدين السيوطي ، تح : د. فيليب حتي ، نيويورك ١٩٢٧.
- نكت الهيمان ، صلاح‌الدين الصفدي ، بعناية أحمد زكي ، المطبعة الجمالية بمصر ، ١٣٢٩ هـ — ١٩١١ م .

فضل أطباء العرب على أوربا في القرون الوسطى[1]

د. عبد اللطيف ياسين *

تقديم لا بد منه :

رُبَّما يجب عليّ القول منذ البداية أنه قد تكون ثمة معلومات في محاضرتي غير جديدة ،وبعض المثقفين ملمون بها ، بيد أن هدفي من المحاضرة ليس تقديم معلومات بالدرجة الأولى ، انني أهدف من محاضرتي الى أن نتذكر كباراًوصغاراً ، خاصة جيل الشباب ، أنه لا داعي لأن يكون ثمة أي مركب نقص ــمن أي نوع ــ لدى المواطن العربي تجاه شعوب أوربا وأمريكا • انهم ــ سواء اعترفوا أم لم يعترفوا ــ قد أقاموا تقدمهم العلمي والفكري والفلسفي علىأسس الثقافة العربية الاسلامية ومن ثم فالفضل الأول للنهضة الأوربية ،ومن ثم الأمريكية ، هو لنا بيد أن هذا لايكفينا فخراً • ذلك أنهم عادوا فجعلوا كل الفضل لهم لأنهم حين استيقظوا واستنفروا طاقاتهم للابداع في كل المجالات ،كنا ــ نحن العرب والمسلمين عامة ــ نغط في سبات عميق ، ومن المؤكد أنه حتىنهاية الأربعينات كنا منومين اجبارياً تقريباً • بيد أنه بعد هذا التاريخ لم يعد لنا من عذر لنلحق بركب الحضارة الحديثة ونكون من صناعها وليس من مستورديها أو مستهلكيها ، على الرغم من وجود عقبات كثيرة تضعها أيد أجنبيةوبعض النفوس الصغيرة التي لا تخلو منهاأمة•

إن محاضرتي عن تاريخ أمتنا وماضيها في الطب وفضل الأطباء العرب على الطب في أوربا فيالقرونالوسطى من خلالذكرمسيرة علماء وأطباء عظماء لا لتمجيد

(★) طبيب ، وباحث في العلوم التراثية •• من دمشق •

الفرد العربي ودوره البطل ، مع أنه من الصعب إلغاء هذا الدور ، ولكن بعد تشذيبه وتهذيبه حتى تواكب الفردية العربية مقتضيات العصر ، عصر الأمم الكبيرة ، والغاية العالمية السائدة التي تدعونا للالتحام والانصهار والتكاتف لنفلت من قبضة الشر المحيق بنا .

لقد سيطر هؤلاء العباقرة العرب بعقولهم النيرة ونفوسهم الطاهرة المخلصة على حضارة أوربا فترة طويلة من الزمن، فما الذي ميزهم عن مفكري العصور العربية الأخرى ، فالمادة السنجابية والنخاعية البيضاء واحدة ، لكن كما يبدو النفوس المعنية هي التي تغيرت .

إن استعادة ذكراهم ليست بكاء على الاطلال ، فنحن كما قال أحدهم : لانؤمن بالفتى الذي يقول كان أبي ، بل نؤمن بالذي يقول ها أنذا ، بيد أنه مع الأسف ، أصبحت ها أنذا مصهورة مغلوبة على أمرها مليئة بالعقد والايحاءات الخارجية ، فاقدة شخصيتها تابعة وليست سيدة نفسها .

فها أنذا هذه بحاجة الى دفع ، الى إثارة جدية ، الى تذكير بماض عريق كي تنهض ، وتتذكر وترفض التبعية . وتعيد نشأتها وتتخلص من ماديتها وغرائزها ، وهوى المذهب الذرائعي .

فاذا أردت استعادة ذكرى تاريخنا وشخصيتنا فليس لكي نرتد الى الماضي ، بل لنملك القدرة على التواصل ومواجهة المستقبل ، ومن هنا كانت الحاجة الى اعادة كتابة التاريخ على الرغم من تخوف بعضهم من أن هذه الاعادة نابعة من ايحاء خارجي ، هدفه اصابتنا برد فعل ينتهي بنا الى احباط وتقوقع .. لا .. فالايحاءات المعادية لأمتنا والحاقدة عليها ، موجودة منذ قدم التاريخ ، ولم تكن لتؤثر على تلك النفوس الجبارة الواثقة من نفسها ومن صدقها وتصميمها ، لكن استطاعت هذه الايحاءات ، للأسف الشديد ، أن تؤثر في بعض منا ، لا لأنها قوية وصعب صدها بل لأن بعض النفوس ضعفت وهشت ، وأصبح لديها الاستعداد لتقبل وتنفيذ ما تحمله لها تلك الايحاءات .

اذاً يجب أن نعيد كتابة التاريخ القديم لنصحو من كبوتنا واحتضارنا على الرغم من المظاهر اللماعة والقشرة البراقة للحضارة التي نعيش فيها ، ولنتحرر

من كل التبعيات وخاصة التبعية الفكرية التي نجمت عن ضياع الذات والفراغ الفكري .

يجب أن نتخلص من التبعية الفكرية التي دخلت الى الوطن العربي في العصر الحديث قبل دخول جنود الاستعمار ،وترسخت في بلدان العرب قبل ترسخ رجال السياسة والادارة الاستعمارية .

ومما لا شك فيه ان التاريخ ينبه العقل ويوقظ الضمير ، ويحرر الذات ، ويعطي دفعاً قوياً الى الأمام . كما تعتبر كتابة تاريخ العرب وتراثهم شرطاً أساسياً للنهضة ، ولتكوين الانسان العربي الجديد المتمسك بأصالته والمتحرر من الأوهام، والمالك الحس النقدي . والذي لديه الاستعدادات للتطور والعطاء الحضاري وللتخلص من ربقة التبعية بأنواعها .

ان كتابة التاريخ والرجوع الى التراث ضرورة بالمعنى الذي ذكرته ، لأن أسوأ ما تصاب به أمة أن تكون بلاذاكرة ، وبلا أصالة ، حيث لا أصالة بلا تراث ، لأن الحضارات كلها لا تأتي فجأة.وانما تتنامى طبقات متواليات في البناء ، ورواسب متراكمة في صدور الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم ، واتجاه ضمائرهم نحو الأفضل وصحة رؤاهم .

★ ★ ★

المقدمة :

تمتد القرون الوسطى حسب رأي أكثر المؤلفين من سقوط الامبراطورية الرومانية ، في القرن الخامس ، الى أواسط القرن الخامس عشر . تتناول هذه الفترة ألف سنة تقريباً ، ظهر فيها الاسلام وتأسست حضارة عربية تميز فيها الطب بشكل خاص ، وقد عرفت هذه النهضة الطبية بطب العرب في القرون الوسطى . وأول ما قامت الدراسات الحديثة حول تاريخ الاسلام وحضارته ، قامت في أوروبا الغربية في وقت تحكم فيه التفكير القومي العنصري لذلك عندما أقدم بعض أوائل المستشرقين على البحث في الفلسفة العربية مثلا ، نفوا وجود شيء من هذا القبيل ، وقالوا بوجود فلسفة اسلامية ، أنتجها فلاسفة مسلمون من أصل غير عربي ، وفي هذا مغالطة عنصرية كبيرة ، لأنه لا يجوز الفصل بين

العروبة والاسلام ، حيث لا يمكن فصل القلب عن الجسد • ثم ان نتاج الحضارة الفكري وسواه مما دوّن بالعربية هو عربي اسلامي وليس غير ذلك ، هو نتاج بلا شك مرتكز الى ما أنتجته الأمم الأخرى ، ومستفيد منها ، انما أخرج وفقاً لمقاييس عربية ، وعالج قضايا ارتبطت بالمجتمعات العربية الاسلامية •

وقد حاول بعض المستشرقين أيضاً أن يطمس هذا التاريخ فقال : « ان العرب كانوا ناقلين ومترجمين عن أبوقراط وجالينوس ، وان الطب العربي طب منقول عن اليونان والهند والفرس ومصر ، وليس فيه جهد ابداعي ، أي بمعنى آخر لم يكن العرب الا وسطاء وليس عندهم روح الانتاج الجديد ، والتأليف • وهو افتراء ، تكذبه في الطب مثلا مخطوطات الرازي وما جاء فيها من تصويبات كثيرة لأبوقراط وجالينوس ، وكذلك تكذبه ابداعات ابن الهيثم في البصريات وليس العكس •

وقد ظلت أوروبا حتى أوائل القرن التاسع عشر لا تعرف الا الأقرباذين العربي ولا تعتمد في طبها الا على مخطوطات ابن سينا والرازي والزهراوي وابن النفيس ، وما زالت أوروبا تسمي بعض المركبات الكيميائية بأسمائها العربية فالطرطير هو Tartar والبورق هو Ac. Boric والكحول هو Alkohol والشراب هو Sirup . وغيرها من كلمات أخرى في مجالات متنوعة ؛ كالسَمْت Zenith والنظير Nadir والسِمْت Azimut والجبر Algébre والخوارزمي Algorythme وأخيراً وليس آخراً الصفر Chiffre .

وكانت الحضارة العربية الاسلامية هي الجامعة التي أخذت عنها أوربا علومها الطبية في عصورها الوسطى المظلمة • وقد لاحظ اسامة بن منقذ مؤرخ دمشق الفرق بين الطب العربي المتقدم وبين الطب الأوروبي البدائي فيقول :

« ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة (في جبل لبنان) كتب الى عمي (سلطان أمير شيزر) يطلب منه انفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه ، فأرسل اليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له « ما أسرع ما داويت المرضى ! » قال :« أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف • فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت •

وحميت المرأة ورطبت مزاجها · فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم « هذا ما يعرف شيئاً يداويهم » ، وقال للفارس « أيما أحب اليك : تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال « أعيش برجل واحدة »قال « احضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعة » فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر ، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس « اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة واقطعها » فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت · ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته · وأبصر المرأة فقال « هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه ، وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف · فقال « الشيطان قد دخل في رأسها » فأخذ الموسى وشق رأسها صلباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت في وقتها · فقلت لهم « بقي لكم الي حاجة » قالوا « لا » ، فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه » ·

لقد أثبت العرب منذ القرن التاسع للميلاد أنهم قد ملكوا الطريقة العلمية الصحيحة ، وليس بصحيح القول انهم ما أتوا بشيء جديد ، حيث أجاب الفيلسوف الألماني هومبولد عن هذا بقوله :

« ان العرب لم يقتصروا على حراسة كنز المعرفة الذي عثروا عليه بل أضافوا اليه ووسعوه وفتحوا طرقاً جديدة للبحث في أسرار الطبيعة » · وكتاب المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه « شمس العرب تسطع على الغرب » ، من أوائل الكتب التي كذبت ادعاء الغربيين الحاقدين ، حتى أن دانتي ذكر في ملحمته الملهاة الالهية أبقراط وجالينوس وابن سينا · طرق انتقال الحضارة العربية الاسلامية الى الغرب :

كان عالم الغرب في أوروبا قبل القرن الميلادي العاشر في جهل مطبق الى أن احتك بالعالم العربي وأخذ عنه بذور النهضة فأشرق فيه نور العلم ، ولقد تم هذا الاحتكاك في ثلاث جهات :

١ ــ الحروب الصليبية ·
٢ ــ صقلية ·
٣ ــ اسبانيا ·

١ ـ انشاء المكتبات والفهارس :

فابن النديم ، على سبيل المثال ،نشر وحده ، في بغداد ، فهرساً للعلوم يضم أسماء جميع الكتب التي صدرت فيالفلسفة والرياضيات والفلك والطبيعيات والكيمياء والطب • كما وجد في الأندلس، زمن الخليفة الحكم الثاني نصف مليون كتاب قيم في العلوم ، وفي القاهرة أيضاً مليون من المجلدات ، ويمكن قول ذلك في دمشق والقيروان •••• وغيرها •

وهكذا اجتاحت موجة الثقافة العربية الغرب حاملة في ثناياها العلوم اليونانية كلها ، والعلوم الشرقية • فكانفعلها على العالم عظيماً • ولهذا كان للعرب الفضل في تثبيت جذور الحضارةالأوروبية ، ليس فقط في الطب بل في جميع العلوم على اختلاف أنواعها •

وقد كان لبعض المدارس والجامعاتالغربية التي تأثرت بالثقافة العربية شأن عظيم ، في النهضة الطبية في أوروبا ،ونخص من هذه المدارس بالذكر مدرسة سالرنو ومونبلية وبولونيا وبادواوغيرها •

لقد كانت مؤلفات العرب الطبية هيالمعتمد عليها في المدارس الفرنسية والغربية ولم تزل الحالة هي هي حتىالقرن السادس عشر ، حيث أخذ الغربيون يترجمون أبقراط من اليونانيةمباشرة ، ولم تحذف مؤلفات العرب من برامج التدريس الا في أواخر القرنالسادس عشر •

وكما كان الأطباء يذهبون من الغرب الى الشرق طلباً للعلم والممارسة كان الأطباء يذهبون من الشرق الىالغرب قاصدين علماء العرب في اسبانيا وقد اجتمع في خزانةقرطبة زهاء ستمائة ألف مجلد في فهرس يقع في أربعة وأربعين مجلداً • وكان بيندوائر التدريب في هذه الجامعة (قرطبة) دوائر للطب والفلك والرياضيات ،والعلوم الدينية والشرعية ، وبلغ عدد الطلاب المنتسبين اليها بضعة آلاف ،وأصبحت شهاداتها سبيلا للوصول الى أسمى المراتب وأرفع المناصب وكانتالنساء شقيقات الرجال في اقتحام الحصون العلمية فاشتهر منهن في الأدب والطب ،حتى في الفروسية ، عدد كثير •

مصادر الطب العربي :

وفي الحقيقة بنى العرب هياكل علومهم الطبية عن الطب الاغريقي ، فأخذوا كثيراً عن جالينوس وجعلوه أستاذهم ،وألموا ببعض الطب الفارسي والهندي لكنهم كيفوا الطب حسب حاجاتهم ،وأضافوا اليه كثيراً فأغنوه وتوسعوا به ، واتبعوا طرقهم الخاصة ، وأساليبهم العلمية الرصينة ، وقاموا بالأبحاث ، وتطبيقاً لأمانتهم العلمية نسبوا للاغريق كل ما ترجموه عنهم أو أخذوا منهم . وهم الذين أغنوا التراث الاغريقي وخلدوه ، وقد نشروا علومهم وثقافاتهم التي كانت هي الأساس القوي للنهضة العلمية والحضارية في أوروبا ، لكن علماء الغرب لم يكونوا مثلهم ملتزمين الأمانة العلمية فأنكر كثير منهم على العرب انجازاتهم الطبية ، بل لقد حاول كثيرون منهم التعتيم على الحضارة العربية الاسلامية ، بعد أن غرفوا من روائعها ونهلوا من فضلها . حيث وجد الكثير من الكتب الهامة التي ترجمت الى اللاتينية واللغات الأخرى لا تحمل اسم المؤلف الأصلي ، وكان يحذف هذا الاسم من غير ذكر جنسيته أو دينه فكتب الجراح أبي القاسم الزهراوي المترجمة كانت تحمل اسم بال كازيز Bulcasis وكتب أبي بكر الرازي المترجمة كانت تحمل اسم ريزز Rizès لكن الأمناء والمنصفين من الكتاب الغربيين كانوا يتحرون الحقيقة ويقدمونها ويذكرون الأثر الكبير المضيء الذي تركه العرب في تقدم الطب والعلوم الأخرى .

قال المؤرخ الكبير جرمان من مونبلية:

« اننا نشهد للكتاب العرب الذين كتبوا في المواضيع العلمية بمزية الايضاح التام ، والطريقة التعليمية ، لأن هؤلاء العرب الذين يرجعون الى نتاج قديم من مدينة اليمن كانت فيهم قابلية عظيمة للثقافة العليا ولم يكن فيهم شيء من البربرية » .

كما قال الأستاذ فورغ ـ الذي لمع اسمه في بداية القرن العشرين ، لا في فرنسا فحسب بل في العالم الغربي كله ـ في خطاب تذكاري ألقاه في احدى الجامعات الاسبانية :

« ان اسبانيا أرض قائمة بنفسها ، يتحلى أهلها بسرعة الفكر والاستعداد

للنضال ، مما يجعل هذه الأمة فريدة في بابها ، ويرجع ذلك الى استيلاء العرب على اسبانيا ، واختلاطهم بشعبها اختلاطاً دموياً أدى الى السير بأوروبا في مضمار التقدم ، مما دعا ليبيري الى القول : «احذف العرب من التاريخ يتأخر عصر التجدد في أوروبا عدة قرون» •

تأثير المرأة العربية في مزاولة الطب :

ولم تتوان المرأة العربية عن المساهمة في الخدمات الاجتماعية ، وكان على رأس الخدمات الاجتماعية التي برزت فيها المرأة التمريض والاسعاف الصحي في السلم والحرب ، وقد أجاز الشرع هذا العمل وحببه الى النفوس ، فقد نص الامام أحمد على أنه يجوز للمرأة أن تخدم الرجل وتشاهد منه عورة في حال المرض • وقال مثل هذا القول الامام المحدّث الحافظ الذهبي •

ولقد ظهر الكثير من نساء الصحابة في صفوف القتال يضمدون الجرحى ويسقين العطاش ، ومنهن أم سليم رضي الله عنها •

وكان يطلق اسم الآسيات على النساء العربيات اللائي يعملن في تضميد الجراح ، وجبر العظام والوقاية من النزف ، وكن يسرن الى المعارك مع الرجال جنباً الى جنب ، حاملات أواني الماء وما يحتاج اليه الجريح من اللفائف والجبائر وغير ذلك وكنّ ينفذن بين الرجال مسعفات معالجات ، ومنهن من كن يشتركن في القتال ، وكانت لهن مواقع مشهورة •

وسأذكر بعضهن على سبيل المثال : رفيدة الأسلمية ، أمينة بنت قيس الغفارية • أم سليم ، أم سنان الاسلمية ، أم عطية الانصارية ، نسيبة بنت كعب المازنية ، زينب طبيبة بني اود ، والشفاء بنت عبد الله التي اشتهرت في معالجة الاكزيما ••• وغيرهن •

إنشاء العرب للمشافي :

وقد سبق — العرب العالم في ابتكار نظام المستشفيات والاهتمام بالمرضى ومعالجتهم • وقد تبارى الخلفاء ووزراؤهم وسلاطين العرب وملوكهم وذوو الجاه والثروة والعلم في إقامة هذه المستشفيات وتحسينها ، فكانت فيها المشافي العامة

والمشافي الخاصة ، التي اشتهر من هـذه الأخيرة المجاذم والبيمارستان اضافة الى المشافي العربية المتنقلة ، ومشفى الاسعاف الأولي ، والمشافي الحربية • وقد اعتمد الغرب بعدئـذ هيكليـة المشفى العـربي بوصفه نموذجاً لبناء مستشفياته • وقد أدخل المقتدر طريقة المشافي المتجولـة ،كما طور في عهده أيضاً سنان بن ثابت بن قره خدمات المشافي لتشمل الأحياء المجاورة والسجون والأماكن الشعبية ، وكان بذلك رائداً في تطبيق التأمـين الصحي الطبي الشعبي الذي بدأ الغرب بتطبيقه حديثاً•

يقول الكاتب فستاب : « ان تصميم المشافي العربية كان في تلك الأيام تصميماً صحياً يراعي شروط التهوية والمياه حتى أن مدرسة ساليرنو كانت تعزى في شهرتها وسمعتها الى الأطباء العـرب ، الذيـن كانوا يمارسون علاج مرضاهـم بالطرق العلمية والبحث والدروس في حين كـان المرضى في أوربا يتلقون علاجاً بدائياً »•

وقد أشرف الطبيب العربي سنان بن ثـابت بن قـرة على بنـاء البيمارستان المقتدري وبيمارستان السيدة • وكـان يرأس امتحان أطباء وصيادلة بغداد ، ثم تحولت المستفيـات الى مراكـز طبيـة نشطة وكليات متخصصة تخرج أفـواج الأطباء الجدد من جراحين ومتخصصين ،وكانت الكليات مجهزة بقاعات للمحاضرات ومكتبة يتوافد اليها طلاب الطب من أقاصي الـدول الاسلاميـة • ومن المشافي المشهورة أيضاً مشفى النوري في دمشق ،والمشفى الناصري في القاهـرة ، حيـث تخرج معظم الجراحين العرب فيهما •

ويؤكد ابن القلانسي في « ذيل تارريخ دمشق » تفـوق خـبرة الجراحـين العرب الكبيرة ومداواة الجراح ، حيـث كانت الخدمات الطبية التي تقدمها دمشق آنذاك من خيرة الخدمات في العالم •

وكان في دمشق مارستاناً هاماً تـلاه بناء مارستان آخر في عام ١١٥٤ م ويصف الرحالة ابن جبير الذي زارهما بعد بضع سنوات يصف سير العمل فيهما فيقول :

« وله [أي المارستان] قَوَمَة بأيديهم الأزمة المحتوية أسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في الأدويـة والأغذية وغير ذلك • والأطباء يبكرون اليه في كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون باعـداد ما يصلحهـم مـن الأدويـة والأغذية حسبما يليق بكل انسان منهم» •

لقد استخدم الأطباء العرب الموسيقى بهدف الترويح عن المرضى والسرعة في شفائهم فكانوا في بيمارستان قلاوون مثلا يرفهون عن المرضى بالموسيقى وتلاوة القرآن الكريم ، كما كانوا يعطون كل مريض منحة مالية عند خروجه حتى لا يعجل العودة الى عمله في فترة النقاهة .

وفي الحقيقة كان لهم في ميدان التنظيم الصحي جولات تذهلنا حتى في هذه الأيام ، فالمشافي التي أنشؤوها ، والعناية التي كانت تبذل فيها أمر لا نجده عند أية أمة من الأمم ، في تلك العصور ، وقد عبر ابن شاهين في النجوم الزاهرة عن عن روعة هذه المشافي بقوله :

« لا مثيل لها في الدنيا والمعالجة مجانية وكذلك تعليم الطب » .

لقد اشتهر من الأطباء العرب في فجر الاسلام الحارث بن كلدة الثقفي من الطائف وقد تعلم الطب في مدرسة « جنديسابور بأرض فارس » . ورجع الى الطائف واشتهر طبه بين العرب ، وكان رسول الله ﷺ يوصي بالتطبيب عنده . ومن أجوبة الحارث بن كلدة عن أسئلة كسرى ملك الفرس عندما طلب منه النصح للمحافظة على صحته :

« لا تغشَ أهلك سكران ، ولا تقم بالليل عريان ، ولا تقعد على الطعام غضبان ، وقلل من طعامك يكن أهنأ لنومك » ولما سأله كسرى عن استعمال الدواء ، أجاب : « ما لزمتك الصحة فاجتنبه » ، وعن الفواكه قال : « كلها في اقبالها وحين أوانها » . وقد أوجد العرب في دمشق وبغداد ومصر والكوفة وقرطبة جامعات كبرى ، حتى أنهم أنشؤوا في كثير من المدن العربية ولا سيما الأندلس مدناً جامعية أشهرها مدينة طلمنكة الجامعية قرب مجريط (مدريد) وكانت الجامعات العربية امتداداً للجوامع وانتشاراً لها يقصدها الراغبون في النهل من مناهل العلم من كل عرق ولون ودين ومذهب . وتميزت جامعات الأندلس وخاصة جامعة قرطبة بتوافد رجال أوربا عليها ، ومن بينهم البابا سلفستر الثاني فتعلموا فيها وعادوا الى بلادهم فأصبحوا أساتذة في جامعات باريز واكسفورد وشمال ايطاليا ومونبليه في جنوب فرنسا ، وغيرها من مدن أوربا الكبرى حيث نشروا العلم

العربي فعم أوربا كلها • وكانت آراء ابن رشد وابن زهر والزهراوي وابن سينا في مقدمة الآراء التي تقبلها الغرب وتبناها •

انجازات العرب والمسلمين في حقل الطب :

وازدهرت أيضاً في المدن الجامعية العربية ولا سيما في الاسكندرية ودمشق وبغداد صناعة نسخ الكتب فاشتعلت جذوة العلم وعم نوره أرجاء العالم • ونكتفي هنا بذكر ماله مساس بالطب حيث تعمق العرب في دراسة الفيزيولوجيا أي علم وظائف الأعضاء وعلم الصحة وفن الأدوية ، وما زال الكثير من أدويتهم مستعملا حتى الآن • وعرف العرب التخدير باستعمال البرودة الشديدة، والأعشاب المرقدة ؛ كالحشيش والسكران والداتورا والبلادونا ، كما أقدموا على اجراء عمليات جراحية واسعة ، ابتكروها ونجحوا فيها • وعرفوا طب الأسنان وخلعها وحشوها ، وذكر الرازي سبعة أنواع من المعاجين والمساحيق لعلاج الأسنان وهي لا تخرج في تركيبها عن المعاجين الحالية ، من حيث احتواؤها على المواد العطرية ، والمواد المطهرة ، والمواد الحاكة والمواد القابضة والمواد المزيلة للروائح • كما عرفوا فتح الضرس بالمثاقب وامانة عصب الضرس باستخدام الزرنيخ •

وكان العرب أول من استحضر احماض الكبريتيك ، والنيتريك والماء الملكي وايدروكسيد الصوديوم والنشادر ،ونترات الفضة وكلوريد الزئبق ويود الزئبق والانتموان ، كما اكتشف العرب في الكيمياء أيضاً الكحول والبوتاس وحامض الليمون ، وكثير من العطور والأرواح والأشربة وغيرها • كما عرفوا صناعة استخراج السكر فيسروا بذلك عوامل الاغتذاء • وعرف العرب بتحضير الأدوية ، ووسائل التقطير والتبخير والترشيح والتصفيد والتذويب والطبخ والتبلور • ويعد العرب أول من عرف خطر التمادي في الفصد ، العرب أول من خاط الجروح بخيوط مصنوعة من الامعاء (كاتوت) وأول من أقر سراية الأمراض وأحسن وصفها ، من ذلك وصف الجدري والحصبة ، وهم أول من قاوم بعمليات جراحية واسعة على الرقبة والصدر والمثانة ، والعرب هم أول من أسس المكتبات العلمية ، وجعلها سبيلا لمن أراد أن يتعلم أو يستزيد • وهم أول من صنف

الكتب في علم الأدوية ، وهم أول من أرخ للطب وللأطباء (عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة) ، والحضارة العربية الاسلامية قدمت للعالم ، لأول مرة ، الكتب الطبية الموسوعية ذات الترتيب المنظم والمنهجي، في حين اقتصرت المؤلفات الاغريقية على المختصرات والخلاصات وافتقرت الى الشمولية والبحث المنظم والمنهجي، وقد صنف الكتب في الطب من العرب ذوو الخبرة والشهرة الواسعة والتمرس والمران في الطب ،وخاصة في المواضيع التي صنفوا فيها الكتب ، في حين ألف المختصرات الطبية الاغريقية بعض الفلاسفة ، والكهنة المعتزلين في صوامعهم الذين لم يمارسوا الطب • وقد ألف العرب في فترة ٨٥٠ ـ ١٢٥٠ م ما لم يستطع الاغريق تأليفه في ألف عام (من عهد ابقراط حتى عهد بولص) •

وكان ابن سينا أول من غلف الحبوب بالذهب والفضة ، وأول من وصف التهاب السحايا وصفاً صحيحاً ووصف الأمراض التي تسبب اليرقان وفرق بين شلل الوجه الناجم عن سبب عضوي أو غير عضوي كما فرق بين ذات الجنب وألم الأعصاب بين الأضلاع ، ووصف السكتة الدماغية • وكان الزهراوي أول من حضّر الأقراص بالكبس في قوالب خاصة،وأول من اخترع الجراحة المصورة كما نراها اليوم في كتب الجراحة العملية ،فقد جاء في كتابه الجراحي الشهير نحو مائتي صورة عملية • كما أنه أول من عالج حصاة المثانة بالتفتيت وأول من ربط الشرايين وأول من استعمل السنارة في استخراج الزوائد اللحمية من الأنف ، وأول من استأصل الرضفة وأول من وصف الناعور ، كما أنه أول من عرّف بحسنات الوضعية المائلة في العمليات الجراحية التي تقضي بجعل الرأس منخفضاً عن الأطراف ، ونستعملها نحن في عملياتنا الجراحية دوماً ، وقد عزيت معرفتها الى تراندیلنبرغ الجراح الشهير الألماني، مع أنها من توصيات جراحنا العربي الكبير ، وقد قال فيها قبله بزمن بعيد •كما كانت له محاولات متطورة في علاج البواسير والناسور والأورام السرطانية والفتق • وقد سبق الزهراوي الجراحين بألف عام الى اكتشاف جراحة دوالي الساق بطريقة سل العروق ، وهو اسلوب لم يعرف إلا منذ أربعين عاماً تقريباً •

وفي القرن الثاني عشر عندما ترجم جيرارد الكريموني كتاب أبي القاسم

الزهراوي الى اللاتينية ، فصار كتابه هذا الكتاب المتداول في أيدي الناس ، ومما يدل على قيمته العظمى أن الأستاذ القديم في دوشالياك من مدينة مونبليه استشهد بكتاب أبي القاسم أكثر من مائتي مرة • وحسبك شاهداً على رقي الجراحة العربية ما قاله لانغرانك في أواخر القرن الثالث عشر بعد أن ذهب الى ايطاليا واطلع على ترجمة مؤلفات أبي القاسم حيث قال عن جراحي باريس بعد رجوعه اليها : » انهم جهلاء ، ولا يكاد يوجد فيهم جراح عالم بصنعته ، ولا غرو بعد ذلك أن ينعت أبا القاسم بأنه أبو الجراحة •

أما الرازي فكان أول من جرب الزئبق على القرود ليرى مفعوله وأول من استخدم الزئبق في المراهم • وللرازي رأي جيد في علاج الحروق بالماء البارد وذلك آخر ما توصل اليه العلم الآن في علاج الحروق ، حيث يوضع الذراع أو الساق المحروقة في الماء البارد مدة دقيقتين ، لتخفيف الألم ولتقليل فقدان البلازما • وكان الرازي أول من تكلم عن التشخيص التفريقي حينما تختلط الأمراض وتتشابه علاماتها وأعراضها ، وقد وصف الجهاز الهضمي بدقة • كما وصف تشريح المعدة وطبقات العضلات المختلفة فيها تماماً ، كما نصفها اليوم • وفرق بين النزيف المتسبب من القرحة والنزيف المتسبب من بواسير المري • ووصف أقراص الطباشير للحموضة وهو علاج نستعمله اليوم ، وقدم وصفاً دقيقاً لمرض الكزاز •

أما ابن الهيثم الموسوعي الثقافة ، فقد عمل في الطب أيضاً واهتم بطب العيون وقد قيل أنه أوصل علم البصريات في زمانه الى أعلى درجة من التقدم • ويعد أول من كتب عن أقسام العين ورسمها بوضوح تام ووضع أسماء لبعض أقسامها وما تزال مستخدمة حتى الآن •

وهو من علماء البصريات المشهورين في العالم ، فهو لم يكتف بتشريح العين وتسمية أجزائها بل فسر آلية الرؤية ، وكان أول من بين أن ذلك يتم من انعكاس شعاع صادر عن الجسم المرئي الى العين وبذلك خالف متقدميه وعارض النظريات التي كانت قائمة •

كما درس خواص المرايا بأنواعها وراقب شكل الضوء والأشعة أثناء ولوجها الى الأماكن المظلمة من ثقوب ضيقة ، وشاهد الصورة المقلوبة للظل ، فكان بهذا الرائد الأول لاختراع الكاميرا •

أما الأسباب التي جعلت العرب متعطشين الى الاطلاع على علوم من سبقهم من الأمم ، حفاظاً لها مبتكرين فيهاعاملين على نشرها ٠

١ ــ طبيعة العربي فقد خُلق العربي بحاثاً محباً للاستطلاع فما أن جاء الاسلام ودان به أكثر العرب حتى رغبوافي اقتباس العلم ٠

٢ ــ القرآن الكريم والحديث الشريف اللذان حببا العرب والمسلمين بالعلم حباً جعله في نظرهم أثمن شيء بعد الايمان ٠

٣ ــ تشجيع الخلفاء الراشدين الناس على طلب العلم وتعليمه ، فقد روي عن عليّ رضي الله عنه قوله : « كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً للعلم ولا تكن الخامس (أي جاهلاً) فتهلك ٠

٤ ــ استعراب الأمم التي انفتح قلبها للاسلام فآمنت به وأعجبت باعجازقرآنه وبلاغة حديثه ٠ فصدت عن التأليف في لغاتها الأصلية ، وألفت فيما عدته لغة العلوم حينها ، لغة العرب وأصبحت تعد نفسها عرباً مستعربة ، تنافس العرب العاربة ٠

وكان موجهها الى هذا الاتجاه ما دعت اليه فتوحات العرب من اخاء ومساواة وعدالة ومعاملة بالحسنى وتسامح لا حد له ٠ مما يصح معه أن يقال أن العرب والمسلمين فتحوا القلوب ، وفرجوا عن سكان البلاد التي افتتحوها الكروب ، فدان بمعتقداتهم جلها ، ومن لم يؤمن بها قدرها فاحترمها ولم يتوان عن خدمتها وخدمة المؤمنين بها ، وهكذا استعرب في ذلك الحين كل مسلم كما اعتز بالاستعراب غير المسلم وفخر بعروبته كل عربي ، وكان القرآن الكريم والحديث الشريف وجها الدنيا والعالم لقومية العرب فبرهان الاسلام فيهما وديانتهم أحيطت بهما ٠ وقد أخلص هؤلاء من عرب مسلمين وغير مسلمين أو مستعربين أو مفتونين بلغة العرب للعلم فأسهموا في نقله ونشره والتأليف فيه ٠

لقد تحققت حركة التأليف والنقل في الطب عند الأمويين أثناء حكمهم لملك امتد ما بين سمرقند وأقاصي الأندلس ، وكانت دمشق منارة يشع نورها على أرجاء واسعة لا بل العالم كله حيث احتلت الثقافة العربية مركزاً لا مثيل له في

التاريخ • لقد وجد الأمويون في المدارس السورية ومدرسيها ، التي كان يرعاها السريان ، ما يحقق غاياتهم ، وان أول من أمر بالترجمة خالد بن يزيد بن معاوية، كما يروي أكثر المؤلفين، وفي زمن مروان بن الحكم فترجم « ماسرجويه » كتاب أهرن في الطب ، الذي تم نشره في عهد عمر بن عبد العزيز • وقد اقتبس العباسيون الطب عن الفرس والهنود ، ولا سيما اليونان والسريان منذ عهد المنصور • وكان عصر هارون الرشيد عصراً ذهبياً فأصبحت فيه بغداد عاصمة العالم في الثقافة والسياسة والاقتصاد ، وأنشئت فيها دار الحكمة التي تحولت من خزانة للكتب الى مؤسسة للترجمة والنشر •

كما كانت بلاد الخلافة العباسية في عهده أغنى وأقوى دولة في الأرض ، ففي عاصمتها بغداد ألف طبيب مجاز ، ومستشفى كبير مجاني ، ومصلحة بريد منتظم ، وشبكة مياه ممتازة ، وأخرى متصلة بمنتفعات المنازل لتصريف مياه الخدمة ، ومصنع للورق ، ولسوف يتعلم الغربيون الذين لم يكونوا يستعملون غير الرق للكتابة قبل دخولهم بلاد الشام ، سوف يتعلمون فن صناعة الورق من تبن القمح ، لقد نشط الخليفة هارون الرشيد العلوم بجميع الوسائل ، وتبعه في ذلك وزراؤه بل زادوها تبسطاً في الأبحاث وتوسعاً في العلاج ومهارة في الجراحة والتشريح وخبرة في العقاقير وتركيبها ، ومعرفة في الكيمياء وتحليلها • وكان المأمون ذا ولع خاص بالطب ، وذا ولع واسع في مجالات كثيرة ، واشتهر من خلفاء العباسيين المنصور والمأمون بحبهما الواسع العلمي ورغبتهما في التطلع الى آفاقه البعيدة • ولا بد من ذكر السريان واسهامهم الكبير في حركة النقل عند الامويين والعباسيين ، الذين أنشأوا حضارة رفيعة ، تميزت بوضع علوم هامة أدت الى رصد الكواكب واختراع المزاول • واللغة السريانية من اللغات السامية ولقد شرفت بأنها كانت لغة السيد المسيح عليه السلام • لقد كان الرسول العربي الأمين أول من وجه الى تعلم السريانية واقتباس العلوم من السريان • فقد جاء في الصفحة ١٦٥ من الجزء الأول من صبح الأعشى : « روى محمد بن عمر المدائني في كتاب العلم والدواة قول الرسول ﷺ لزيد بن ثابت :

« أتحسن السريانية ؟ قال لا ، قال : تعلمها فتعلمها زيد » •

ولا بد من القول هنا بأنه لولا صناعة الورق المحلية لما تمكن سوق الكتب من الرواج • حيث كانت هذه الصناعة من أجلّ الخدمات التي أسداها العرب والاسلام الى أوربا ، ولولاها لما تم اختراع آلات الطباعة ذات الحروف المتحركة، وكانت شاطبة مركز صناعة الورق في اسبانيا العربية الى فرنسا •

أدب الطب :

إن من أهم ميزات الطب عند العرب في القرون الوسطى هو كونه صناعة نبيلة لا يسمح بتعاطيها الا لمن حصل على خبرة واسعة في الطب • وأعد لذلك إعداداً علمياً وخلقياً • وقد اشترط حكام العرب على محترف المهنة الطبية أن يكون عالماً بالتشريح ملماً بعلم وظائف الأعضاء محيطاً بجميع العلوم التي لها صلة قريبة أو بعيدة بالطب وأخصها التشريح • ويستدل على عنايتهم به ما ذكرته بعض المصادر ، وهو أن يوحنا ابن ماسويه كان يُشَرح جثث القرود في قاعة تشريح خاصة بناها له الخليفة المعتصم على ضفة دجلة ، وكان الخليفة نفسه يساعده في الحصول على تلك القردة من بلاد النوبة • وقد جاء في أقوال الرازي ما يدل على اعتبار العرب معرفة التشريح أساساً لكل عمل طبي ، فقد تقدم منه طبيب ليجري له عملية في عينيه فسأله الرازي عن طبقات العين وصفاتها وعددها فلم يحسن الاجابة فقال له :« لا حاجة لي بطبيب يقدح عيني ولا علم له بتشريح طبقات العين » •

ولا بد في هذه المناسبة من ذكر علي بن عمار الموصلي المولود في البصرة حيث تعلم فن الكحالة ومارسها في العراق • وفيها صمم واخترع الآلة الشهيرة (المقدح الأجوف) ثم سافر الى دمشق واجتذبته مصر فاستقر فيها • وقد استحدث عملية شفط الساد الطري بالمقدح الأجوف التي تعتبر نقلة نوعية كبرى في جراحة العين • وهو أول من كتب التقارير الطبية المفصلة عن عملية الساد • وقد شاعت عملية شفط الساد الطري فذكرها أطباء المغرب والأندلس كالزهراوي والقصري، وكذلك الأطباء السوريون كسديد الدين بن رقيقة وخليفة بن أبي المحاسن الحلبي وصلاح الدين الحموي وقد نسبوها كلهم لعمار الموصلي •

أما عنايتهم بعلم وظائف الأعضاء، فيلاحظ الباحث أثرها في أكثر كتبهم الطبية • أما عنايتهم بالمعالجة فكانت عظيمة الشأن حيث كانوا يعالجون بالوسائل الطبيعية فيعتمدون على الحمية والغذاء • فاذا لم يتيسر الشفاء اعتمدوا المعالجة بالأدوية المفردة فاذا استعصى الداء عالجوا بالأدوية المركبة •

وقد وضع العرب في أنظمتهم تشريعاً ينظم صناعة الطب عرفوا فيه بما للأطباء وما عليهم وقد جعلوا الاشراف على هذا التنظيم من واجبات المحتسب • قال الشيزري في هذا الصدد : للمحتسب أن يمتحن الطبيب ليعرف علمه من جهله وأن يختبره ليعرف درجة اتقانه للصنعة، وأن يأخذ على الأطباء عهد أبقراط ويحلفهم ألا يعطوا أحداً دواء مضراً ، ولايذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة ، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل ، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى ولا يفشوا الأسرار •

أما أطباء العيون (الكحالون) فان المحتسب كان يشرف على امتحانهم بمعرفة طبقات العين فمن كان عارفاً بتشريح طبقات العين السبع وعدد رطوباتها الثلاث ، وعدد أمراضها وأنواعها ومايتفرع من ذلك وكان خبيراً بتركيب الأكحال وأمزجة العقاقير ، اذن له بالتصدي لمداواة أعين الناس • وأما الأطباء المجبرون فلا يحل لأحد منهم أن يتصدى للجبر إلا بعد أن يحكم معرفة الصنعة أو أن يعلم عدد عظام الآدمي وصورة كل عظم منها وشكله وقدره حتى إذا انكسر منها شيء أو انخلع رده الى موضعه على هيئته التي كان عليها •

ويقول ابن سينا في خلع الفقرات :« إذا كانت الفقرة الأولى في العنق مات صاحبها في الحال لأن عصب التنفس ينضغط فلا يفعل فعله ، وإن كانت ، من الفقرات السفلية لم يمتنع التنفس ولكن يمتنع التبرز والتبول» وهذا كلام منطقي وعلمي ولافت للنظر في دقته •

وأما الأطباء الجراحون فيجب عليهم قراءة كتب الجراحة الباحثة في الجراحات والمراهم ، وأن يعرفوا أيضاً مقالة الزهراوي في الجراحة ، وأن يكونوا مطلعين على تشريح أعضاء الانسان وما فيه من الفضل والعروق والشرايين والأعصاب • ويطلب المحتسب من الطبيب أن يكون لديه جميع آلات الطب ، وجميع ما تحتاج

اليه مهنة الطبابة من أدوات وغيرهـا ·واضافة الى كل ذلك ، كان هناك مراقبة على الأطباء وكيفية فحصهم للنـاس (الفحص السريري) وكيفيـة مداواتهـم وكيفية وصف الدواء والعلاج ·

ولقد تعرض أدب الطب العربي الى صفات الطبيب فأوجزها علي بن رضوان بقوله : « يجب أن تجتمع في الطبيب بضع خصال وهي : أن يكون تام الخلق ، صحيح الأعضاء ، حسن الذكاء ، جيد الروية ، عاقلاً ذكوراً خير الطبع ، وأن يكون حسن الملبس طيب الرائحة نظيف البدن والثوب · وأن يكون كتوماً لأسـرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم وأن تكون رغبته في ابراء المرضى أقوى من رغبتـه فيما يلتمسه من الأجر ورغبته في عـلاج الفقراء أقوى من رغبته في علاج الأغنياء، وأن يكون حريصاً على التعلم والمبالغـة في نفع الناس ، وأن يكون سليم القلب ، عفيف النظر ، صادق اللهجـة لا يخطـر بباله شيء من أمور النساء ، والأمـوال التي يشاهدها في منازل الأعلاء فضلا عن أن يتعرض الى شيء منهـا ، وأن يكون مأموناً ثقة على الأرواح ، لا يصف دواء قتالا ولا يعلمه ، ولا دواء يسقط الجنين، ويعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه» ويؤكد الطب العـربي على ضـرورة تشخيص المرض قبل اعطاء العلاج ،ويؤيد ذلك ما جاء في قول علي ابن رضوان الآنف ذكره فقد قـال : « إذا دعيت الى مريض فأعطه ما لا يضره الى أن تعرف علته فتعالجها عند ذلك » ·

كما تميز أطباء العـرب بالعزة والكرامة وبمتابعة الدراسـة مهمـا علت منزلتهم ، من ذلك ما روى عن ابن المطران فقد قيل عنه أن كان يغلب عليه الزهو بنفسه والتكبر حتى على الملوك ، ولـم يكن على شيء من ذلك ، في أوقات طلبه للعلم ، فاذا اقتـرب من الجامع ترجـل وأخذ الكتاب في يده أو تحت ابطه بكـل تواضع ولا يتـرك أحـداً من الغلمان يصحبه ولا يزال ماشياً والكتاب معه الى حلقة الشيخ الذي يقرأ عليه فيقعد بـين الجماعة مستمعاً صامتاً صامتاً ، الى أن يفرغ الشيخ من القراءة ، ويعود الى ماكان عليه · وقد زعم الطب الحديث أن أول من عالج بالتخييل (علاج نفسي) هو الطبيب الشهير شاركو في القرن التاسـع عشر · ويستشهد على ذلك بمعالجة فتاة جميلة أنيقة أصابها بكم نفساني عصي على المعالجة ولم يكن فيها مرض عضوي · وقد وضعها شاركو في مكان وجو مناسب

للايحاء ، وبعد أن سيطر عليها نفسياً أوهمها بضرورة قص شعرها الجميل الذي كانت تعتز به كثيراً فصرخت عند الوصول الى قص الشعر وشفيت من بكمها . لكن الواقع ان المعالجة بالتخيل وبالطرق النفسية المختلفة ، قد برع فيها الأطباء العرب منذ قرون . ومن ذلك ما روي عن نوادر أبي البركات هبة الله ابن ملكان ابن أوحد الزمان قد عالج مريضاً في بغداد مصاباً بالسوداء (المالنخوليا) ونجح في علاجه النفسي نجاحاً ممتازاً ، كما ذكر الرازي شفاء عدة حالات نفسية عالجها بنفسه ، منها معالجة أمير بخارى الذي كان يشكو من آلام نفسية المنشأ أقعدته عن الوقوف والمشيء ، وقد استعمل معه الرازي خطة معالجة نفسية ممتازة شفي بعدها ولا مجال لذكر هذه الحالات بالتفصيل لضيق الوقت .

ومن أقوال الرازي : « ينبغي للطبيب أن يوهم المريض بالصحة ويرجيه بها ، وإن كان غير واثق بذلك ، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس » ، وتلك نظرة نفسية عميقة جداً تصدر عن طبيب قديم .

كما يخطّيء الرازي أبقراط في قوله ان ماء الاستسقاء (Ascitis) يصل الى الرئة بسبب السعال ويصف الرازي هذا الرأي بأنه سمج ، كما يخطئه أيضاً في أن هزال الجسم يزيد من رواسب البول ويقول : « هذا رأي خطأ لا يجوز» . كما نرى ابن النفيس يخطّيء جالينوس في زعمه أن هناك ثقباً بين البطين الأيمن والبطين الأيسر في القلب وانهما متصلان ، ويقول ابن النفيس انه لا اتصال بين البطين الأيمن والأيسر ، وان دم البطين الأيمن والأيسر لا يمتزجان إلا في الحالات المرضية . كما نرى البغدادي يصحح ما زعمه جالينوس من أن الفك السفلي عظمتان ، ويقول بل هو عظمة واحدة . كما صحح الجاحظ في كتاب الحيوان لأرسطو ، وأوضح فيه كثيراً من المثالب والأوهام الواردة عنده ، وسارع على نهج ما أتى به القرآن الكريم من حيث الاعتماد على تحكيم العقل وتربية التصور وأحكام التعبير ، وأعمال الحواس جميعاً لفهم حقائق الوجود ، لذلك عاش مع الحيوان الذي يريد الكتابة عنه ، ودرسه دراسة ميدانية مرئية مسموعة محسوسة .

ومعلوم أن ابن النفيس كان أول من اكتشف الدورة الدموية الرئوية الصغرى ، وقد نقلها عنه الانكليزي هارفي ثم عزاها لنفسه ، وعمل سرافيتوس

الايطالي ما عمله زميله الانكليزي فيسرقة آراء ابن النفيس وانتحالها لنفسه حتى أن العالم مايرهوف قال في هذا الصدد :

« إن ما أذهلني هو مشابهة لا بل مماثلة بعض الجمل الأساسية في أقوال سرفيتوس لأقوال ابن النفيس كأنها ترجمت ترجمة حرفية ، ويدعم هذا الرأي (الدوميلي) العالم المعاصر أيضاً ، وكذلك ليون بينه عميد كلية الطب في باريز. وقد وضع الطالب الباحث المصري محيالدين التطاوي سنة ١٩٢٤ الحقيقة عملياً عندما عثر في مكتبة برلين على مخطوطةابن النفيس (شرح التشريح) فصحح هذا الخطأ وعرف العالم عندها أسبقيةابن النفيس وفضله في هذا المجال . أما الراهب سرفيتوس الذي انتحلها لنفسه، بعد اكتشاف ابن النفيس لها بثلاثمائة سنة ، فقد نشر وصفاً لها في مجلته الدينية ، فلما بلغت هذه المجلة جون كالفين في سويسرا استدعاه الى جنيف وحاكمهواتهمه بالزندقة وحكم عليه بالحرق » .

أما معرفة السرطان ووصفه فقد ذكر أن الحكيم الجرجاني قام بوصف السرطان وتبعه بعد ذلك الطبيب المسلمابن زهر في عام ١١٤٠ م حين وصف سرطان الحنجرة والمعدة . ثم قام رسامسلم برسم لوحة ملونة في عام ١٢٣٠ م تصور أعراض السرطان . وان أول منرسم صورة تشريحية للجسم البشري هو المنصور بن محمد في عام ١٣٩٦ م وقدوضح فيها أيضاً سرطان الحنجرة والمعدة. ويعتقد على هذا الأساس أن أول منأطلق اسم السرطان على الأورام الخبيثة في العالم هم الأطباء المسلمون .

كما عثرت المستشرقة الألمانية فريدرون ، مصادفة وضمن مجموعة من المخطوطات ، على رسالة للرازي ، وهيمقالة في العلة يذكر فيها الرازي تعرض أبي زيد البلخيللزكام والعطاس في فصلالربيع عند شمه للورد والأزاهير ،وبذلك انتبه العلماء الى أن الرازي كان أول منوصف الرشح التحسسي الربيعي في التاريخ الطبي .

ومن الآراء العلمية التي قال بها العرب أيضاً ونماها فيما بعد علماء الغرب قول أحمد بن يعقوب (الملقب بابن مسكوية)في أصل الانسان وتطور الحيوان قولا يشابه في بعض جوانبه ما قال به داروىوغيره من العلماء .

ما ذكرته هو غيض من فيض والشرح يطول ، لذا سأنهي بما قالــه الكاتب المعاصر هوكونيغ في كتابه مبادىء السياسة العالمية عند بحثه عن مستقبل الحضارة العربية :

« إن الشغف العلمي الذي امتاز به العرب هو الجوع الباحث عن العلم وعما وراء الطبيعة التي تنتسب اليهـا كـل الفلسفات ، هو الحضارة بعينها التـي يتغذى منها هذا الجوع ويهضمها ويتمثلها، هو التعاون المثمر بين مختلف الذهنيات مع سعة العقل العربي وعشقه للحريــة وللمثــل العليـا وتحرره مــن التعصب والتزمت » .

* * *

أهم المراجــع العربيــة :

١ ــ القرآن الكريم .
٢ ــ الأحاديث النبوية .
٣ ــ العــرب والطب ــ الأستاذ المرحــوم أحمد شوكت الشطي .
٤ ــ مائة أوائل ــ الدكتور سهيل ذكّار .
٥ ــ الحروب الصليبية كما رآها العرب ــ أمــين معلوف .
٦ ــ رحلة ابن جبــير .
٧ ــ ذيــل تاريــخ دمشق .

* * *

شعراء عمانيون*

و.. جولة في واحة الشعر العماني

ممدوح فاخوري

ما صافح سمعي مرة ذكر عُمان ·· عُمان الجبل الأخضر الأشم ، الا ذهبت مع التصور والتأمل ، في رحلة أسطورية حالمة ·· الى بعيد، بعيد ·· الى أيام زهت بالبطولات والأمجاد ·· أمجاد رواد البحر البسلاء ، وابن ماجد ، سيد من مخروا العباب وخبروا مسالك البحار والأمصار ··

الى أيام حمل بها شعبنا العربي في عُمان هموم العرب جهاداً وعقيدة وتضحيات ، وحفاظاً ومآثر ومكرمات ·· وإصراراً على أن تظل أرضه الطيبة أبداً خضراء ممرعة بالخير والعزة والأصالة ، نديّة بالمكارم وسط سوافي الكثبان والرمال ··

الى أيام ·· جاهد فيها الشعب العربي الأصيل ماجاهد ، وكابد ماكابد ، في وجه استعمار نذل عتيّ ، يصول بهمجية الغادر الجبان ·· لا عهد ولا ذمة ، بل اعتساس تحت جنح الظلام ، وخسة تفتقد المثيل على مر الأيام ·· وروح عدوانية أذاقت أهل البلد الصابر المرابط من ضروب البطش والقتل والعذاب ما تعجز عن وصفه خيالات الأساطير والروايات ، كان أقله التدمير والحرق ، وبعض فنونه سفح الزيت المغلي على أجساد العزّل الأبرياء ، وتقييد حجاج

(*) من تاليف الباحث العماني المهندس الأستاذ : سعيد الصقلاوي ·

بيت الله بالأغلال ، وتهديدهم بالحرق أحياء ، وتمنّي قائدهم على شيطان الاثم والضغينة ، أن لو يقدر على قتلهم مئة مرة !

أيام كان فيها « فاسكو دي غاما »[1] البرتغالي المتوحش، المقنّع بوجهه البشري ولبوسه الآدمي ، ودعوى « الكشف » المزعوم ، يمتع الطرف بمنظر سفينة أحرقها ثم أسلمها الى قاع اليم ، « بلا أي مبرر ـ كما يقول (وندل فيلبس) ـ صاحب كتاب «تاريخ عُمان» ـ بكل من تحمل من بشر أبرياء لا حول لهم ولا قوة ، وهم يصرخون وينوحون » بينما كان دي غاما ، رسول الشر ، « يمتع نفسه بهذا المشهد من خلال كوة السفينة دون أن يبدو عليه أي تأثر » ٠

ويقول « وندل فيلبس » :

« إن روايات المعاصرين وشهود العيان ، عن معاملة البرتغاليين للعرب والوطنيين الآخرين ، سواء في افريقية ، أو الهند ، أو عُمان ذاتها ، هي سجل طويل يثير التقزز لجرائم وحشية ارتكبت بلا مبرر » ٠

إي والله ٠٠ والكلام لوندل الغربي، لا لمؤرخ عربي أو هندي ٠٠

ويمضي « الوحش الغامي » شوطاً أبعد في « فنه » الوحشي هذا ، وفي وسائل فتكه وتنكيله ، فيأمر ـ في كلكوتا ـ بعد نهب ست عشرة سفينة صغيرة وسفينتين للأهالي بقطع أيدي البحارة وأنوفهم وآذانهم ، وبوضع راهب بوذي مبعوث من بلده (وكان قد مُنح جواز أمان) في سفينة صغيرة بعد قطع أذنيه وأنفه ويديه ـ كعادته دائماً مع أسراه ـ ووضعها على هيئة سلسلة حول عنق الراهب المسكين ٠٠ وأمر بتقييد أقدام البحارة ، بعد قطع أيديهم ٠٠ ومنعاً لاستخدام أسنانهم لفك القيود « أمر بتحطيم أسنانهم بالهراوات، وأسقطت أسنانهم في حلوقهم ٠٠ ثم وضعوا على ظهر السفينة ، وقد تكدس بعضهم فوق بعض واختلطت دماؤهم المتدفقة بغزارة » ٠

« ثم ـ والكلام ، دائماً ، لوندل الغربي ، لا لمؤرخ عربي أو هندي ـ أمر بمد حصائر وأوراق شجر جافة فوقهم، وأن تفرد القلوع كي تحملهم السفينة

---

١ ـ ١٤٦٩ ـ ١٥٢٤ م ٠

الى الشاطىء ٠٠ وأشعلت النيران فيها بعد ذلك ٠ وكان في السفينة ـ والكلام ما يزال لوندل ـ ما لا يقل عن ثمانمئةمسلم ٠ وكذلك أرسلوا السفينة الصغيرة نحو الشاطىء بدون حرق ، وهي تحمل الراهب ، ومعه كل الآذان والأيدي المقطوعة » ٠

ومثال آخر من أمثلة وحشيته المقنعة بوجه بشري ولباس آدمي ، ـ والحديث لوندل أيضاً ـ وهو أمره بقطع شفتي شخص من البراهمة ، مبعوث من كلكوتا « حتى تبدو كل أسنانه ٠ ثم أمر بقطع أذني كلب كان في السفينة ، وربطهما وخاطهما بغرز عديدة في وجه البراهمي بدلاً من أذنيه » ٠

هذه أمثلة من «مآثر» هذا «المكتشف» الملطخ بالاثم والدم ، والمقنع بوجه بشري على لباس آدمي ٠٠ يمضي ليخلفه« الفونسو دو البوكرك » صاحب الأحلام الامبراطورية الخرقاء ٠ وكان من أولى« مآثره » إحراق السفن الراسية ، وأسر الرجال والنساء ، ثم ٠٠ إطلاقهم بعد جدع أنوفهم وصلم آذانهم ، وتسليط جنوده للنهب والسلب ٠٠ ثم إحراق المدينة بكل من فيها وما فيها ، والتمثيل بأهلها شر تمثيل ٠٠

ويجيء « الدوم فرنسيسكو داميدا» نائب ملك البرتغال ، عام ١٥٠٥ م ليكمل مسلسل الجريمة الشنعاء ، فيبتكر فناً جديداً في وحشية القتل ، يفوق فن دي غاما ، متطرف الوحوش والأدغال ، فيأمر باطلاق أسراه من فوهات المدافع ٠٠

مفارقة عجيبة !

ابن ماجد ، وبحارته العمانيون العرب الشجعان ، يركبون مُتون البحار والأمواج ، ليكتشفوا ما أمر الله به أن يكشف من آلائه وعجائب خلقه ليسخَّر للانسان وخير الانسان ، ومكتشفون آدميو الوجه واللسان يأتون للكشف عن وسائل استعمار الانسان ، وقتل الانسان٠٠

أمثلة قليلة سقناها لا نزيد عليها ، فهي كالعنوان الصارخ ، فيه أبلغ الدلالة ، خصوصاً إذا قارنا بين وحشيتهم المقززة القذرة هذه ، وبين معاملة العرب العمانيين الشرفاء ، بشهادة من « الكسندر هاملتون» إذ يقول :

« إن العمانيين لم يقتلوا أي رجل ـ منهم ـ عمداً وكانوا يستخدمون الأسرى بأدب » ٠

وبحسبنا بها شهادة لنا ولهم ٠٠ وللتاريخ ٠٠ في كل زمان ومكان ٠٠

★ ★ ★

شعب عريق كهذا ٠٠ جاهد وجالد ٠٠ وكابد ما كابد ٠٠ قليل أن يُزف له كتاب قيم كهذا ، في جانب من جوانب حياته وثقافته وفكره ، ولا بد أن يشفع بالكثير الكثير من أمثاله ، في هذا الجانب، وفي جوانب أخرى جمة ٠٠ ويتحدث عن حياته كلها ، وعن مواقعه كلها ، وعن جهاده الطويل كله الذي خلّده التاريخ ذكراً ، وصاغه شعراً ، وحلّى به جبين ماضينا فيما كُتب وأُلف ، وفيما روي وصُنّف ، وفيما نرجو أن يؤلف أيضاً ويصنف على يد مؤلفنا « الباحث الأستاذ سعيد الصقلاوي » وأيدي أمثاله من الأدباء والمثقفين النجباء، عن هؤلاء المرابطين البسلاء ، الذين صبروا وصابروا ، وحملوا هموم العرب جميعاً ٠٠ ولم يتركوا معركة من معارك العزة والفداء إلا خاضوها ، تجمعهم دائماً وتؤلف بينهم ، أفراداً وجماعات وقبائل متراصة متواصية على الصبر والحق ، وحدة الجهاد والمصير ، وشهامة العربي الأبي الذي لا يسكت عن ضيم مهما طال ، ولا عن استعمار مهما أقام ٠٠ فلما حان الحين ، ودقت ساعة الحساب والحرب ، هبوا جميعاً كالسيل ، يحطمون للطغاة كل قيد ، ويدكون لهم كل صرح ، ويجرفون أمامهم كل سد منيع ٠٠٠ حتى إذا اندحرت أمامهم طواغيت الشر ، وطُهرت من أرجاسها الأرض ، رفعوا وجوههم للسماء فعشيت عيونهم بالنور بعد ظلام ، وتحركت دماؤهم بالحياة بعد موت ٠٠

لهذا ، ولغيره ٠٠ كان استقبالنا لهذا الكتاب حاراً كاستقبال الظامىء للغيث ٠٠ ولن ينتقص من حرارة هذا الاستقبال ما قد نستدرك عليه من يسير الهنات ونحن نشدّ على يد صاحبه مهللين فرحين ، وشاكرين مستبشرين بأن يلي جهده الخيّر هذا جهود أخرى خيرة من مثله ؛ خطتنا في ذلك عرض محتوى الكتاب وبعض الملاحظات حوله ٠

ومما يزيد اعجابنا بهذا الجهد وتقديرنا لصاحبه أن المؤلف يجمع بين الأدب وشيء آخر لا نستطيع أن نقول انه بعيد كل البعد عن الأدب ، أو أنه من غرمائه ؛ فهو مهندس حائز شهادة ماجستير في الهندسة المعمارية ، وقد غلب عليه ميله الأدبي وتعشقه للأدب ونازعه فن الهندسة ، أو حاول أن يشغله عنها بعض الوقت ؛ ثم لم يجد خيراً من أن يتحدا معاً في توءم فني لا يفصل بينهما في حقيقة الأمر فاصل ؛ فكلاهما فن أولا ، وكلاهما بناء فني يأخذ هذا من هذا في طبيعته وجوهره ، فيخرج عملا متقناً جامعاً لخاصتين اثنتين بدلا من واحدة . وغير بعيدة عنا أخبار من جمعوا أطرافاً من العلوم والفنون في تاريخنا الأدبي القديم والحديث . وآخر من نذكر من أدباء عصرنا الحديث وشعرائه توفيق الحكيم القانوني ، وعلي محمود طه المهندس ، وابراهيم ناجي الطبيب .

يقع الكتاب في نحو ٣٧٠ صفحة تعرض لمجموعة من الشعراء العرب العمانيين من عصور مختلفة متباعدة تنتهي بالعصر الحديث ، عند الشاعر عبدالله بن محمد الطائي ـ المتوفى سنة ١٩٧٣ م .

فمن العصر الأموي يختار ثلاثة هم على التوالي :

ـ ثابت بن عبدالرحمن بن كعب (ثابت قطنة العتكي) (عصر عبدالملك ابن مروان » .

ـ كعب بن معدان الأشقري (عصرعبدالملك بن مروان والحجاج) .

ويذكر من العصر العباسي :

ـ أبو عيينة بن محمد المهلبي (عصرالمأمون) .

ـ ابراهيم بن محمد بن عرفة (نفطويه) (نحو ٢٤٤ ـ ٣٢٣ هـ) .

ـ أحمد بن سليمان بن عبدالله (ابن النظر) (ت ق ٥ هـ) .

ـ الحسن بن هارون بن عبدالله (الوزير المهلبي) (٢٩١ ـ ٣٥٢ هـ) .

ـ عصر بني بويه .

ـ عبدالله بن محمد بن أبي عينية (عصر أبي جعفر المنصور) .

ـ محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ابن دريد) صاحب «المقصورة وجمهرة اللغة» (البصرة نحو ٢٢٣ ـ بغداد ٣٢١ هـ) ٠

ـ محمد بن يزيد بن عبدالله الأكبر (المبرد) صاحب « الكامل » لم يثبت تاريخ مولده ومكانه على التحديد لتداخل الآراء فيهما ٠

ـ يزيد بن محمد المهلبي (عصر المتوكل ـ ت ٢٥٩ هـ) ٠

ويكتب بعد ذلك عن شعراء ينتهي آخرهم عند أوائل السبعينيات وهم ، على الترتيب : ترتيب الكتاب (بحسب حروف الهجاء لا الترتيب الزماني) :

ـ أحمد بن حمدون الحارثي (نحو ١٣٢٣ ـ ١٣٨٧ هـ ـ عهد السلطان تيمور) ٠

ـ أحمد بن سعيد الخروصي (الستالي ـ ت ٦٧٧ هـ (عصر النباهنة ـ بني نبهان) ٠

ـ حميد بن محمد رزيق (ابن رزيق) (أواخر ق ٢ هـ ـ ١٢٩٢ هـ) (عصر البوسعيديين) ٠

ـ خميس بن سليم الأزكوي (أواخر ق ١٩ وأوائل ق ٢٠ م) ٠

ـ راشد بن خميس الحبسي (المولود في ١٠٨٩ هـ) ٠

ـ سعيد بن مسلم بن سالم (ابن الصوفي) (سمائل ١٢٨١ هـ ـ عهد البوسعيديين ٠

ـ سالم بن غسان بن راشد الخروصي (اللواح) (٨٦٢ ـ ٩٨١ هـ ـ عهد النباهنة) ٠

ـ سليمان بن سعيد بن ناصر الكندي (أبو سلام) (نزوى ١٢٩٢ ـ نحو ١٣٧٩ هـ) ٠

ـ سليمان بن سليمان النبهاني (ت ٩١٥ هـ) ٠

ـ عامر بن خميس المالكي (أبو مالك) (نحو ١٢٨٠ ـ نزوى ١٣٤٦ هـ ـ عهد البوسعيديين) ٠

ـ عبدالله بن سعيد الخليلي (واديسمائل ١٢٨٠ ـ ؟ ١٣٣٢ هـ) ٠

ـ عبدالله بن عامر العزري (قريةالأخشبة ؟ هـ ـ نزوى ١٣٥٨ هـ) ٠

ـ عبدالله بن محمد الطائي (مسقط نحو ١٩٢٦ ـ ؟ ١٩٧٣ م) ٠

ـ موسى بن حسين بن شوال (الكيذاوي) ق ٩ هـ ـ عهد النباهنة) ٠

ـ ماجد بن خميس العبري (الحمراء نحو ١٢٥٢ ـ ؟ ١٣٤٦ هـ) ٠

ـ محمد بن شيخان السالمي (ابن شيخان) (الحوقين ١٢٨٤ ـ ؟ ١٣٤٦ هـ) ٠

ـ محمد بن عبدالله المعولي (ق ١١و ١٢ هـ) (عهد اليعاربة) ٠

ـ ناصر بن سالم بن عديم الرواحي(أبو مسلم البهلاني) (محـرم ؟ هـ ـ زنجبار ١٣٠٨ هـ) ٠

ـ هـلال بن بـدر البوسعيـدي (مسقط ١٢١٤ ـ مسقط ١٣٨٥ هـ) ٠

ـ هلال بن سعيد بن ثاني (ابن عرابة) (وادي الطائيين ق ١٩ م) ٠

شـعراء خصوا بالنصيب الأوفى

يلاحظ أولا ان المـؤلف لم يسلك فيترتيب شعرائه تسلسل أزمانهم (وهي خطة قد تكون موضع نظر بين مؤرخـي الأدب) ٠

ويلاحظ أيضاً افاضته في الحـديث عن بعضم كاللواح (سالم بن غسان بن راشد الخروصي) ، وابن دريد ، والمبرد ، خلافاً لغيرهم ممن كان حظهم دون ذلك قليلا أو كثيراً (كما سيأتي ذكره في حينه) ، وهو أمر طبيعي يعود تقديره للمؤلف أولا ً ، وتقتضيـه أسـباب منها شـهرةالشاعر وتعدد أغراض شعره وجـوانب ثقافته وعلمه ٠ وقـد يكون منهـا أيضاًتوافر المراجع والتصانيف التي تتنـاول سيرته وأدبه وشعره ٠ « فاللواح » مثـلاً ، وقد تعدى في السن ١١٩ عاماً ، شـهد عصراً زاخراً بالأحداث الجسام أهمهـاالاحتلال البرتغاليين لعمان سنة ٩١٣ هـ ٠ فطول عمر الشاعر ، وصلاته بالنابهـينمن أعلام عصره ، وجسامة الأحداث التي عاصرها ، واضطراب حبـل الأمن ، واشتداد التنافس والصـراع بين سـلطة

النباهنة وخصومها في الداخل • أضف الى ذلك وجود من سماهم المؤلف بـ « الرموز الأدبية » التي عاصرها الشاعر في الحجاز حيث كان قطب الدين محمد بن أحمد النهرواني المكي (٩١٧ ـ ٩٩٠ هـ) ، وفي البحرين حيث الشاعر أبو البحر الخطي (ت ١٠٢٨ هـ) ، وغير هذين كعبد الرحيم البرعي في اليمن (ت ٨٠٣ هـ) ، وجعفر الخطي في الاحساء (ت ١٠٢٨ هـ) ، وعبدالصمد بن عبدالله الكثيري في حضرموت (ت ١٠٢٥) ، والكثير من شعراء المغرب وعلمائه وأدبائه ممن كانت تقوم بينه وبينهم صلات قوية ومساجلات ومراسلات علمية وأدبية غنية ضاعت كما ضاع كثير غيرها وأصبحت في ذمة التاريخ ـ كل ذلك جعله بين المقدمين ••

و « ابن دريد » صاحب المقصورة والجمهرة ، لم تقتصر عبقريته على الشعر ، وخصوصاً مقصورته الشهيرة التي مطلعها :

يا ظبية أشبه شيء بالمها ترعى الخزامى بين أشجار النقا

وانما تعدت ذلك ، بل سبقته الى تصانيفه اللغوية الكثيرة ، ومنها جمهرة اللغة ، والاشتقاق ، وأدب الكاتب ، وكتاب غريب القرآن • فضلاً عن ديوانه وشعره الكثير الذي قال فيه « المسعودي » في مروجه :

« كان يذهب بالشعر كل مذهب ، فطوراً يجزل وطوراً يرق » ومما قيل فيه أيضاً « انه أشعر الشعراء ، وأعلم الشعراء » •

وشهد عصره أحداثاً جساماً أهمها اقتحام الزنج للبصرة ، فضلاً عن رحلاته الكثيرة بعد ذلك بين عمان وفارس وبغداد ، وحلقات الدرس التي أقامها لطلاب العلم ، وصلاته القوية بفضلاء عصره من لغويين وأدباء وعلماء •

فليس بكثير على من كان هذا شأنه ، وتلك جوانب علمه وأدبه ، أن يزاد له في صفحات الكتاب ويُفسح له فيها •

و « المبرد » (صاحب كتاب الكامل ، واللغوي النحوي المشهور ، وصاحب المجالس العلمية المقرونة دائماً بمجالس « ثعلب ») ، قامت شهرته أصلاً على اللغة والنحو ، ولا يذكر عادة الا مع اللغويين والنحاة • ومع أن شعره لم يكن

موسوماً بالغزارة والتنوع اللذين يكونان عادة سمة الشعراء البارزين ، فقد توافر له من الجزالة والقوة ما لو فرغ له دون اللغة والنحو ، أو سوّى بينهما وبينه عناية واشتغالاً لكان في الطليعة من شعراء عصره . ولكن اللغة والنحو استأثرا بجهده ووقته ، وكان لهما النصيب الأوفى من اهتمامه وكده .

على أننا لم نجد مثل هذه الافاضة في تعريفه بعبقري اللغة والنحو ، الخليل الفراهيدي ، صاحب كتاب « العين » وواضع النقط والشكل وعلم العروض وموسيقى الشعر . ولو تقصّينا الأسباب لما أعوزنا أكثر من سبب في تسويغ ذلك : فلئن كان من الحق أن من هذه الأسباب زهده وعزوفه عن عرض الدنيا وزخرفها الزائل ، وبعده عن التزلف والتكسب ، واشتغاله بما هو أجدى وأكثر لصوقاً بتقواه وعلمه وفكره — ان من الحق أيضاً أن مجال البحث في الجوانب الأخرى من حياته وعلمه جديرة أن يستفيض فيها القول ، وتتشعب سبل الكلام ، فهو يمثل عبقرية عمان وسائر العرب والمسلمين كما تقول المصادر في شرق من الأرض وغرب ..

ولكن .. وقبل أن نذهب بعيداً في تعليل ما ذكر ، أرانا مدفوعين الى أن نستدرك ونحيل أنفسنا والقارىء معاً على ملاحظة انقطاع ملحوظ من أثر الطباعة والتنسيق في آخر الصفحة / ١٢٢ أشبه بالكلام المبتور الذي قد يكون وراءه كلام كثير ، يفيد في انصاف الخليل ، فلا يُجتزأ له بهذا القليل !

وآخرون عادوا بالقليل

أما بقية الشعراء في الكتاب ، ونخص بالذكر منهم شعراء الحقبة الزمنية الصعبة ، في تاريخ عُمان ، فنجد أن المؤلف أولاهم قدْراً وسطاً من صفحات كتابه . وبعضهم ، كعيسى بن صالح الطائي ، لم يفز بأكثر من صفحتين . ولعل مردّ ذلك الى ضيق مجاله وإقلاله ، والى اقتصاره على أغراض لا تملك أن تمده من المعاني بأكثر من طاقتها المستنفدة على مر العصور !

ومثله آخرون ، كعامر بن خميس المالكي ، وعبد الله بن سعيد الخليلي ، لم يحظوا بأكثر مما حظي به الشعر منهم من قطرات لا تبلّ صدىً ، ولا تبلغ مدىً

لضيق مجالهم الفني والابداعي ، أو ـ ونقولها للانصاف ـ لضيق مضطرب حياتهم وأسلوب عيشهم الذي اختاروه لأنفسهم ، أو فرضته عليهم الظروف والأحوال .

فالشاعر « عامر بن خميس المالكي » ، وهو أحد تلامذة الشيخ السالمي ، تلقّى عنه علوماً كالفقه واللغة والأصول وغيرها ـ كان علامة في عصره ، فلم يُجَلِّ في الشعر بقدر ما جلّى في علومه، إذ كان جلّ همه واشتغاله بالفقه والقضاء خاصة .

و « عبدالله بن سعيد الخليلي » لم يكن أوفر حظاً من سابقيه فيما خُص به أو خصص له من صفحات لم تعدُ الثلاث (أو تزيد قليلاً) ، مع أنه أقرب منهما الى روح الشعر وطبع الشاعر ، وأدخل في فردوس الأدب أو جحيمه ، كما سيدلنا عليه ديوانه .

ومثله ، في قلة ما حظي به من صفحات ، « أبو الصوفي » الشيخ سعيد بن مسلم بن سالم الملقب بـ « المجيزي » . فمع ما يتمتع به من إجادة وموهبة كان تقليدياً في أغراضه ـ وتكاد تنحصر في المدح ـ وكذلك في عباراته وصوره ، فلم ينأ فيهما عن أسلوب القدماء قيد أنملة . واقرأ له :

فحيّوه اجـلالا وسكّن روعهم	**بنطق يفـوق الدر ان نثر الدر**
تحلت بك الدنيا لأنك عقدهـا	**وانسان عين الدهر أنت فلا نكر**

فاذا انتقلنا الى الشاعر « ماجد بن خميس العبري » ـ وحظه من الصفحات ثلاث ـ وجدنا أن الشعر عنده لم يكن أكثر من هواية تعرض له في بعض أحواله، أو وسيلة له في بعض أعماله . وإنما كان شغله الشاغل ما أخذ به نفسه من ميل الى الزهد ومن مشاركة في المناظرات الفقهية والمسائل العلمية . وقد حدا به زهده الى تمزيق ما كتبه من أشعار كما يذكر المؤلف .

فأما الشاعر « هلال بن سعيد بن ثاني ـ ابن عرابة ـ » ، فمع تعدد أغراض شعره من مدح وغزل ورثاء وهجاء ووصف وغيرها .. لم يستطع أن يخلع عنه رداء التقليد ؛ فلم يختلف شعره عن شعر سابقيه شكلاً ومضموناً ـ كما يقول

المؤلف ــ بل كان « نسخة مكررة منهم • ويبدو أنه لم ينظم الشعر للشعر » كما يستدل من بعض أقواله في تقديم ديوانه الذي سمّاه « جواهر السلوك في مدايح الملوك وتسلية حزن العاشق المهلوك » •

★ ★ ★

نستطيع بعد هذا العرض الوجيز لهؤلاء الشعراء أن نقول إن المؤلف كان منصفاً في تضييق الحيّز الذي أولاهم إياه من كتابه ، وفي فسحه جناباً أوسع لمن سواهم من أمثال المبرد والخليل ونفطويه وغيرهم ممن هم مفخرة عُمان •• وإن كنت لا أجد مناصاً من التماس العذر لبعضهم أو لأكثرهم بقلة ما كانت تتيح لهم طبيعة العصر وضيق مضطرَب العيش من أسباب الخلق والابتكار والابداع ، مع أن الموهبة لدى أكثرهم موجودة ، ولكن وسائل ريّها وتعهّدها شحيحة أو مفقودة !

وغيرهم •• بالقدر الوسط ••

أما الآخرون الذين خُصّوا بقدر وسط من صفحات الكتاب ، فنذكر منهم الشاعر الكفيف « راشد بن خميس الحبسي » و « ابن شيخان » و « محمد بن عبد الله المعولي » و « ناصر بن سالم » •

فأما الشاعر الحبسي (المولود سنة ١٠٨٩ هـ) ، فهو ممن عاصروا أحداثاً كثيرة مرّ بها بلده ، واصطنع أسلوباً طريفاً في معالجة بعض مشكلات عصره ومجتمعه ، بالافادة من القصص والحكايات الشعبية السائدة ، واستلهام التراث الشعبي عامة • وهو نوع من التجديد ــ بالقياس الى عصره خاصة ، والى امكانات ذاك العصر ــ لا بد أن يلفت انتباه الدارس والقارىء • وقد أحسن المؤلف إذ رأى « أن ينبثق من هذه القصص عمل درامي قيم نابع من التراث العماني » في مسرح أو تلفزة ، أو في قصة أو رواية •

ويلاحظ المؤلف ، في هذا السياق ، أن الشاعر لم يمض قدماً مع روح التجديد في بقية أغراض شعره وأساليبه ، اذ لم يستطع أن يجانب التكلف البديعي والتقعر اللغوي في نظمه ، كما لم يستطع أن يخالف عن الطريقة الغالبة في اختيار

الأغراض الشعرية وفنونها ، فلزم منهاكل ما هو تقليدي من مدح وغزل وهجاء ٠٠ على الرغم مما حفل به عصره من أحداث ، وما ألمّ بالبلد وأهله من صروف عاتية ، لم يكن انعكاس آثارها في شعره يعدو التشاؤم والانزواء عن هذه الصروف والأحداث ٠ وما نشك أن لآفة البصر عنده ولانصرافه الى المدح أثرهما في صرفه عن الاهتمام بما حوله ، فلم يتفجر ذلك في شعره قولاً جهاراً ، ولا سخطاً وانكاراً ، كما تفجر بين حناياشاعر المعرة المكفوف والمتشائم ٠٠

نظرة سريعة ، بعد هذا ، الى ما بين أيدينا من شعر « ابن شيخان » « والمعولي » لا نعود منها الا بمجموعة من قصائد المدح أيضاً ، يعتذر عنها الأول ــ ابن شيخان ــ بما أصابه من عسر وماثقل عليه من دين أفضيا به الى سلوك هذا النهج ، فيقول :

لما نبت بي أحوال الزمان ولم ... يكن بكفي ما يبتل أنملها
كساني الله رأيا ان أجشمه ... مصاعب الأمر كي أرتاد أسهلها

هذا ، الى بعض القصائد الغزلية التي لاتجد سبيلاً ممهداً الى قلب الشاعر وشعره الا عن طريق القدامى باستخدام أساليبهم وألفاظهم ٠ وقد تسقّط المؤلف مشكوراً بعض هذه الألفاظ ، في مناجمها الصخرية ، فوقع على ألفاظ مثل : « قفا ، المرابع ، الظباء ، خليلي ، ساحاتها وعراصها ، أقدام الظباء ، بارق ، لامع ٠٠ » ؛ فهو يقول مثلا (ص ٢٨٨) :

قفا ساعة نقضي حقوق المرابع ... بأحمر قان من كنوز المدامع
ونلثم من ساحاتها وعراصها ... مواطىء أقدام الظباء الرواتع

الى أن يقول :

أصاح ترى صبراً على ضوء بارق ... بثغر الثنايا والثنيات لامع

وصدره يذكّر بقول امرىء القيس :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه (البيت) ٠

ومثله (المعولي) الذي نظم ، الى جانب المدح ، في الهجاء والرثاء ٠ ولكنه لا يقصر مدحه ورثاءه على الأئمة ، بل يمدح أيضاً أصدقاءه ، ويرثي العلماء

والشعراء والأصدقاء . وله رثاء عاطفي لابنه فيه تجلّد وتسليم ، نختار منه هذين البيتين يوضحان جانباً من طبيعته وأخلاقه وقناعته :

سأصرف نفسي عن مطامع جمة   وان لم أجد لي قط في الكف درهما

أأبكي على غيري ، واني لعالم   يقيناً بأني لاحق من تقدما

على أن الشاعر لم يقتصر في نظمه على هذه الأغراض ، بل تعداها الى الوصف والغزل ، والى نمط من الشعر الاخواني الذي يتبادله الاخوان والأصدقاء ، ونظم أيضاً في الزهد ، بيد أنه في أغراضه كلها لم يخرج ، كنظيره ابن شيخان ، عن أغراض المتقدمين وأساليبهم ، وتلك كانت سمة العصر في عمان وفي غيرها من أقطار العروبة آنذاك فهل نكلفه من أمره ما لم يكلف الآخرون أنفسهم هجره أو الاقلال منه في أهون تقدير !...

ومع ذلك نقول : ان خلو بعض شعرهم أو أكثره ـ كما يبدو لنا مما بين أيدينا الآن من هذا الشعر ـ من الاشارات التاريخية والسياسية والوطنية قد لا تعني ـ بالضرورة كما يقولون ـ اغفالهم لأحداث عصرهم وعدم انغماسهم فيها ، بل وكفاحهم مع من كافحوا .. وما نحب أخيراً أن نيئس ونخلد الى راحة القنوط من أن تكتحل عيوننا وأفكارنا بقراءة الكثير مما افتقدناه حتى الآن من شعر هؤلاء ، في أجزاء وطبعات أخرى ؛ فقد يكون من الظلم الفادح أن تدفعنا النظرة العجلى ـ في هذا الجزء من الكتاب ـ الى الحكم عليهم بالتقصير في حق بلدهم وأمتهم عليهم ، وبانزوائهم في ركن قصي عن مشكلات هذا البلد وأحداثه ، وباكتفائهم بهذه الأغراض الشعرية التي لا تعكس من عصرهم الا جانباً محدوداً ليس لدارسه والمتأمل فيه غناء ..

فاذا مضينا في قراءة الشاعر ، أو فيما اختير لنا من شعره ، لم نجد الا مدائح وألفاظاً مثل « كرام ، وأشداء نبلاء ، يسعد الزمان بقربهم ، وهم تاج الملك ، وبيت المعالي وايوانه ، وحتم الكماة واقدامهم .. الخ .. » مما لا يبل غليلا ولا يشفي من ظمأ .

فاذا مضيت في قراءة أغراضه الأخرى ، كالغزل مثلاً ، طالعتك أبيات مثل :

وتستقل بأرداف تنوء بها ـ في المشي مخطفة الكشحين هيفاء

وكالخمـــر فتقـــرأ :

هات اسقني الراح في راووقها عَلَلا — وعاطني في الحديث اللهو والغزلا

والأرض من حوله تضجّ وتفــور ،والصدور تضطرم بنار الثــورة لتنقض على المستعمرين الطغاة ٠٠ ومن حقـك ها هنا أن تتساءل : ما قيمة شعر لا تلقى به أثراً لعصره وبيئته ، وما يضطرب به هذا العصر وهذه البيئة من أحداث كتلك التي اكتوى بها الشعب العربي العماني البطل ، وكلفته غالياً من دماء أبنائـه ، ومن أرواح شبابه وشيوخه وأطفاله ٠٠لقد كان بحاجة الى صيحة تزلزل الأرض تحت أقدام وحوش الاستعمار ، صيحة من شاعر ثائر تؤجج نار الثورة حتى يكون لها لهب واضطرام ، من شاعر ثائر كذلك الذي قـال :

اذا الشعب يـومـاً أراد الحيـاة — فـلا بــدّ أن يستجيب القـــدر
ولا بـــد لليـــل أن ينجلـــي — ولا بـــد للقيـــد أن ينكســـر

ونقلب الصفحة الى شاعر آخـر ،فنلمس احتفاء من المؤلف بالشاعر (ابن رزيق) حميد بن محمـد بن رزيـق) (أواخر ق ٢ هـ ـ ١٢٩٢ هـ ـ عصـر البوسعيديين) اذ ينوه باشتراكه في معارك عديدة ، وبمطولات له شعرية ، حاول في بعضها كتابة ملحمة شعرية تضمنت جانباً من تاريخ عمان عنوانها :

« الشعاع الشائع باللمعان أو الشعاع الساطع باللمعان في ذكر أئمة عمان »٠

ثم يقـول :

« وهو ان لم يكن السبّاق الى ذلك الا أن هذه القصيـدة تظل حدثاً هامـاً ، وأثراً يمكن الالتفات اليه من الناحية الأدبية » ٠

* * *

ولكننا لا نكاد نمضي في قراءة الأبيات المختارة له في الكتـاب حتى نجد مثـل هـذا القــول :

جالي العنا ملك البسيطة كاشف ال — غمـــاء بـالآراء والنعمـــاء
الناشـر العـدل القـويم بسيفه — ومطهـر الأرجـا من الأهـــواء
لَسِنٌ اذا أملى لمسمع كـاتـب — مُنْش بغـير تكلـف الانشـــاء

ومثـل قـوله :

يرضيك ان ركب السلاهب للوغى   يرضيك ان ضرب العدى واذا طعن
هو فيلق في الحرب فـرداً ان رأت   عينـاه جيشاً للعـداة بـه اطمأن

فنتمنى لو نجد بين هذه المختارات ذكراً لموقعة كفعل أبي تمـام والمتنبي في وقائع عصرهم ، والشعراء الذين عاصروا صلاح الدين وغيره من الأبطـال ٠٠ وتجري وتجري وراء بقية أمثلة الكتـاب فلا تقع الا على معـان تزيد منك بعـداً كلما ازددت منها قرباً ، ولا تجد ما ينقع غلة ، أو ينفع في علة ٠٠

وتقـرأ عن « راشـد بن خميس الحبسي» أنه «عاصر ـ هو الآخر ـ أحداثاً كثيرة ـ ما هي ؟ ـ مرت بها عُمان وأئمة عدة تولوا مقاليد الأمور»، فتروح تلتمس آثار ذلـك فيما يطالعك من مختاراتـه ، فتعود بالخيبة نفسها ، وتقرأ بدلاً مـن ذلك مثل قوله :

هذا الكريم الذي تشفيك رؤيته   من كل داء، ومن همٍّ، ومن حَزَنِ

إني لأكاد أشك في أن هذه المختارات تمثل كل شعر هؤلاء ، وأن شعرهم كله من هذا النحو ، وأذكر في الوقت نفسه أن المؤلف لم يفته ذلك طبعـاً ، ولم يسعـه أيضاً إلا أن يشير الى انشغال بعضهم عن أحداث عصرهم الجليلة بألوان من المدائح والأهاجي والغزليات التقليديـة التي لاتكاد تعبر عـن شيء ، ولا تكـاد تبضّ بقطرة من شعور ٠٠ على أن أمثال هؤلاء قد يكونون قلة قليلة لا يخلو منها عصر ؛ فلو رجعنا الى شعر بعضهم ممن تيسر لنا الحصول على دواوينهم المطبوعة ، كعبد الله الخليلي ـ وقد سبق ذكره ـ ، وهلال بن بدر البوسعيدي (الشاعر الظريف كما يطلقون عليه في عُمان) لوجدناه يضـم فنوناً تربط بينهم وبين عصورهم وأحداث هذه العصور برباط يختلف قوة ووثوقاً بحسب قوة اهتمام الشاعر بهذه الأحداث، وصلته بها أو بمن عانوها أو كان لهـم شأن فيها ٠٠ ولكنـه ارتبـاط على كل حال ، يتجاوز مواقع السلطة وما يتصل بها من مدح أو رثاء على الخصوص ، الى أمور عامة تتصل بالوطن والأحداث التاريخية والمجتمع ، بأقـدار متفاوتة ـ كما قلنا ـ بين شاعر وشاعر ٠٠

بين معايشة العصر ٠٠ والاغتراب !

فالشاعر الخليلي ، مثلاً ، لـه «تأريخية» جرب فيها أسلوب « الملحمة » ، أو كان له فيها نفس الملحمة • بدأها بـ« عـُمان في الجاهلية » ، وقسّمها فصولاً منها : « عـُمان في بدء الاسلام » ، و «بدء الامامة في عـُمان» ،وأئمة القرون ٣ و ٤ و ٥ و ٦ ، و « ملوك النباهنة » ، ثم أئمة القرون ٩ و ١٠ و ١١ ، واليعاربة وفتوحاتهم في الشرق والغرب ،والأسطول البحري ، ودولة البوسعيد ، وإمامة عزان ابن قيس ، ثم بقية الأئمة ، والسلاطين٠٠ وفيها اشارات تاريخية هامة منها إشارته الى قدوم البرتغاليين ، ثم طردهم صاغرين :

ولقينا العجم الشهب وقد … أوغلوا حتى « صحار » معتدين
فأتتهم يعربيات الشبا … قاطعات منهمُ كل وتين
عاركتهم بعمان برهة … ثم أجلتهم ضعافاً صاغرين

ويشير الى سيطرة أسطولهم البحري ـ أيام اليعاربة خاصة ـ :

يوم لا أسطول للغرب ولا … عزة الا له راحت تدين

والى إمامة عزان بن قيس :

طهـّر الأرض من الرجس ولم … يبق فيها من دخيل أو أبين

وضم ديوانه كثيراً من القصائد الوطنية والقومية •

ولعل أهم ما يجذب انتباهنا في « وطنياته » دعوته الى الحفاظ على الوحدة الوطنية :

يا لقومي ، والله يحفظ قومي … أنبئوني الام هذا المراءُ

ويكثر فيها من الدعوة الى الأخذ بأسباب العلم والتماس حلية الأخلاق الفاضلة لبناء جيل قوي يحمل أمانة شعبه ووطنه •

وفي « قومياته » نقرأ قصائده : « العدوان الثلاثي على مصر ، و « لسان فلسطين » ، و « أخي الفدائي » ، و «مصر » ، و « الى إخواننا في الجزائر »،

و « الجرائم الشنعاء » . ومما يقول في قصيدة له عنوانها « كليوبترا » مخاطباً « سادة الفصحى » :

الغرب يشحذ فيكم' سكّينه ... والشرق مذبحة لكل أكول
فعلام لا تتضامنون وأنتم' ... أهل الوفاء وأمة التنزيل
والله يحفظ منكم قومية ... عربية بزغت لغير أفول

وللشاعر، فوق هذا ، نزعة صميمية الى اختراق جدار التقليد ، يحاول فيها أن يخطو خطوة واسعة نحو التجديد ، فينحو منحى «الشعر القصصي» المستلهم، في معظمه ، من التراث :

« الخيزران والرشيد » ، و « عند الموصلي » ، و « من مُلح الرشيد » ، و « على بيتي المأمون » ، و « المأمون والجارية » ، و « جذيمة والأحداث » . وهي كما قلت « خطوة » كانت بالقياس الى عصره ، والى المناخ السائد في شعره وشعر غيره ، دفعة قوية الى التجديد ؛ فمع كل ما يلاحظ فيها من اعتماد الأبحر الطويلة التي لا تطاوع الحوار والسرد ، واللغة الجزلة المنحوتة من صخر، والاكثار من الوصف ، ووحدة الوزن والقافية - لا ينكر لصاحبها اقتحامه مجالاتٍ في الشعر ، وفي تنوع الأغراض والفنون الشعرية لا يمكن جَحد'ها وإنكار فضله فيها وجرأته في اقتحامها .. على أننا نستثني بعض قصائده التي اختار لها أوزاناً قصيرة أو لينة ، مثل : « البدوي والوهم » (ص٤٦٩) من مجزوء الوافر، و « على بيتي المأمون » (ص٤٨٠) من المتقارب ، و « نزار وبنوه » (ص٤٨١) من الخفيف ، و « المأمون والجارية » (ص٥٠٣) من المجتث .

وقد لا تفوتنا ملاحظة أخرى - وليُغتفَرْ لنا بعض التفصيل ها هنا ، والاخلال بالتوازن المفروض في عرض محتويات الكتاب ؛ فنحن تجاه أدب أصيل جَهدتْ في قطع الصلة بيننا وبينه ، وفي فرض الغربة عليه يد' الغرب الآثمة ، كما جهدتْ في ذلك في مغربنا العربي الحبيب - والملاحظة : هي ابتداء قصصه بما يسميه « مقدمة » وانتهاؤها بـ « خاتمة » ؛ فهو يبدأ مثلاً قصته « نزار وبنوه » بمقدمة تحت هذا العنوان : « براعة استهلال » ويغلب عليها الفخر بالعروبة ، كقوله :

نحن قوم في قمة الوعي والفكر ، وأسمى صفاتنا الأخلاق'

تعد اثنين وعشرين بيتاً ، ليصل بعدها الى ما يسميه «تمهيد» في أربعة أبيات منها:

فاليك البيان في قصص حلو | دليلاً لما عليه المساق

فهو يريد أن يسبق الى تعريف القارىء بفكرة القصة ومغزاها قبل أن يعرض له أحداثها ... حتى إذا استوفى خَتَم بما يسميه « حسن اختتام » !

وقصة « جذيمة والأحداث » (ص٤٥٤) تشتمل على عشرين مشهداً ، لا يعدو الواحد منها (٣ ــ ١٠) أبيات ،ولكل منها عنوانه الخاص ؛ وفيها أيضاً « تقديم » و « توطئة » .

إنها كما قلت « خطوة » نشكرها له على كل حال ، ولا نكلّف صاحبها المحال؛ فلكل « عصر » مقال !

وملاحظة أخرى نرجو ألا تفوت القارىء ، وهي نهجه « العمري » ــ نسبة الى « عمر بن أبي ربيعة » ــ في بعض قصصه هذه ، كقصة « عند الموصلي » (ص ٤٧١) .

هذا ، ومع حرص الشاعر على نهجه التقليدي هذا ، في ألفاظه وفي عبارته الشعرية ــ في معظم أغراضه وموضوعاته ــ نجده يخالف عن ذلك في بعض غزله ، بطبعه الشاعري الذي يأبى أن يظل دائماًمختزناً في صدره، فنراه يُعمل في قصائده الغزلية شيئاً من لمسات الفنان المصور ،ورقةلحن المغني ــ جرياً معطبعه الأصيل ــ ولا ينغمس في الأوصاف الحسية شأنمعظم التقليديين « الناسبين » ... من هذا النحو قصيدته « مرفأ العاشقين » (ص ٣٩٠) ، فهي من أجمل الشعر الغزلي ــ فناً وموضوعاً ــ ، وفيها ملامحتجديد ظاهر ، لم تقهره جلاميد العصر.. مطلعها :

قِفيني على زهرة الزنبقِ | وهزّي كياني ، ولا تشفقي

ومنها (ولَوَدِدْنا لو نوردها كلها) :

ويبكي على مرفقيها الجما | ل شوقاً الى ذلك الرونق
أسمراء ان كنت أنت الجمال ، | فماذا لهذي العذارى بقي ؟
وان رمقتك عيون الهوى | فمن يعذل الدهر ان يرمق ؟!

وفيها يقول :

وكانت تعاقرني حبها وكنت أعاقرها منطقي
أقول لها والهوى بيننا ومن يكتم الحب لا يعشق !

ويقول في غزلية أخرى (ص ٢٨١)، وفيها الجديد الى جانب القديم ، وفيها الرقة التي لا تتأبّى على الاثنين •• تحت عنوان تقليدي : «كؤوس الحب» ، وانظر فيها الى التكرار اللفظي الجميل :

أحبة قلبي أن تحل بيننا النوى فما هي الا لذة الوصل من بعدِ
أحبة قلبي ان يك الهجر كلفة فما هو الا كانتظار على وعد
هو الحب في كل اشتياق ولوعة ولكنه خدّ يطل على خدّ
وعين على عين ، ودمع بدمعة وقلب على قلب ، وقدّ على قدّ
شقيق الهوى ان كنت لاتتقي الهوى فاني أخشى أن تصاب على عمد
نداجي الهوى حتى يلين قياده فنشكو اليه ما نعانيه من جَهد
اذا نحن طارحنا الغرام شكا لنا من الصد ما يشكو المشوق من الصد
وان نحن قاسمنا الهوى لذة الهوى أباح بما يخفيه من لذعة الوجد

أليس مثل هذا الشعر العذب الطليّ جديراً بأن تغنّيه لهاة « تضم صوتها » الى صوت الشاعر ؟!

نعم •• وللانصاف نقول : إن للشاعر من رقة الشعر ما لديه من رقة الاحساس •• لو أمكن الشاعرَ أن يصدر قلبه دائماً عن رقة الاحساس •

والثاني ـ « هلال بن بدر البوسعيدي » (١٣١٤ ـ ١٣٨٥ هـ) ـ لم ينأ ، هو الآخر ، عن أحداث عصره ، ولم يصمّ أذنيه عنها • وعالج التأريخ في شعره ، كالخليلي ، في مطولته الشعرية « النّزوية » ، وفيها روح الملحمة ؛ وهي في نحو ٢٠٧ من الأبيات ، وببحر ملائم ليّن هو « الخفيف » ، يروي فيها تاريخ عُمان ، منذ أقدم العصور حتى عصره ، مطلعها :

حَيِّ نَزْوى تحية الخُلَصاء واهدِ قومي مودتي واخائي
واتل تاريخها القديم وحدّث عن فعال الأئمة الفضلاء

وفيها يأتي على ذكر « الجلندي » ، وملوك آل نبهان ، واليعاربة ، والبوسعيديين ، بدءاً من أحمد بن سعيد(مؤسس الدولة البوسعيدية) · وفيها يعرض لطرد البرتغاليين أيضاً ، وينوه بالأسطول العربي العماني :

طردوا البرتغال واستأصلوهم ... من عُمان بقوة ومضاءِ
وبنوا جاهدين اسطول حرب ... شق في سيره أديم الماء
ومضى يقطع البحار الى أن ... بلغ العزم منه « رأس الرجاء »

ثم طردهم للفرس :

عاثت الفرس في عُمان فساداً ... يا لقومي من شر هذا البلاءِ
وهن العزم منهمُ واستكانوا ... واعترتهم وساوس الجبناء
رحلوا عن « صحارَ » رحلة واهٍ ... وكسيرٍ يجرّ فضل رداء
·· هزمت فارس ، وماذا عليها ... بعد ذاك القتال غير النجاء

ومع تعدد أغراض شعره وفنونه الشعرية ، وهو في أكثرها تقليدي ، نجده ـ كسابقه الخليلي ـ لايني في محاولات التجديد ، في شعر ذي طبيعة تجديدية واضحة ، منه الاجتماعي ، والوطني ،والقومي ، والانساني ، والتأملي ··

وكسابقه الخليلي أيضاً ، يدعو في« وطنياته » الى نبذ الفرقة والشقاق ، والتمسك بأسباب الوحدة الوطنية :

ان الاخوّة ان تعادت فهي من شر العُداةِ

وفي شعره القومي يدعو في أكثر منقصيدة الى الوحدة العربية والى نبذ الفرقة والتجزئة :

من لي بها من وحدة ... وتساند في المعضلات

وفي نكبة فلسطين يقول :

بني العروبة هل طاب المقام لكم ... وفي فلسطين أشلاء على لهب ؟

ويقول في تفرق العرب وانقسامهم :

.. لما طغى زعماؤها واستأثروا بالطيّبات
عصفت بهم أهواؤهم فتفرقوا في النائبات
فاندكّ صرحهم المتيـ ـن وكان فوق الكائنات
رقصت على أنقاضه صهيون رقص الغانيات

وفي « اجتماعياته » يناصر تحرير المرأة ، ويدعوها الى التحرر من قيود الجهل ، والى نشدان العلم والتحلي بالأخلاق الفاضلة :

وصرّحي بلسان العلم طالبة حقاً يُحلّك في عال من الرتبِ
للبيت أنت وللطفل العزيز وللزوج الأليف وللأخلاق والأدب

وللشاعر غزل كانت تسعفه الكلمات فيه لو أسعفته العاطفة ، وأغنته المعاناة والتجربة ؛ فهو يجيد التعبير ولكن المادة عن تعبيره نائية ، تنتظر نار الحب التي تسعّرها ، والآهة التي تفجرها ..

* * *

ويتأدى الينا من وراء حُجُب التاريخ صوت قريب بعيد .. قريب لأن صاحبه ـ سليمان النبهاني ـ من رجال القرن العاشر الهجري (١٥١٠ م) ، وبعيد لأنه مغرق في ارتياد القرون السحيقة في القدم ، العصر الجاهلي وشعره ، لا يكتفي بأن ينهل من معينه الثر ، وينبوعه الصافي ، ولكنه ينهج نهجه ، وكأنه لا يرى شعراً غيره ، أولا يرى ما يجاريه ويقفو أثره سواه .. تروعه جزالته وتستهويه فخامته ، ويستأثر هواه بلبّه ؛ فصحّ فيه قول الأديب اللغوي المدقق « عز الدين التنوخي » رحمه الله ، بأنه « استطالة للشعر الجاهلي » ، طوى به صاحبه العصرين الأموي والعباسي الى العصر الجاهلي ، « وليس في شعراء عصرنا من يحاكيه في أسلوبه الشعري الذي يذكرنا بالعصر الجاهلي » .

أما معاصروه ودارسو شعره فيحكمون بأنه من كبار الشعراء ، يكثر في شعره الفخر ، وذكر الخيل ووصفها ، والحرب وحتوفها ، ورماحها وسيوفها ... وله

رائية يقول «السالمي» في «تحفة الأعيان» انها « تزاحم المعلقات السبع بلاغة ، وتزيد عليها عذوبة ورشاقة » • وله « المقصورة النبهانية » يعارض فيها — هو أيضاً — مقصورة « ابن دريد » ••

ومن قصائده المشهورة قصيدته « الخيلية » في وصف الخيل ، يصفها — كما يقول مقدّم ديوانه ، الأديب اللغوي الباحث سليمان خلف الخرّوصي — وصف الناقد الخبير •

ويبدر ها هنا سؤال :

هل كان في استغراق الشاعر في معايشة الشعر الجاهلي والتلذذ بمحاكاته ، وربما المباهاة بها لفظاً ومعنى ، ما زواه عن أحداث عصره ، وحَجَبَها عن احساسه وفكره ، لتكتمل له الصورة الجاهلية كما يهواها ، وكما يحب أن يراها ويتملاها ؟!

في الجواب عن هذا التساؤل ، الذي لا يبدو أنه في غير محله لا نشايع تماماً الرأي القائل بابتعاده عن أحداث عصره ، وارتداده روحاً وخيالاً ، أشبه عنده بالواقع ، الى عصر ربما وجد فيه نفسه وروحه وراحته ، ولكنه إن ذكَرها — هذه الأحداث — فمن خلال نفسه ، وفي ثنايا قصائد اعتزازه وفخره •• انظر الى قوله (ص ٢٤١) :

ملكنا البلاد ، وسُدنا العباد … ودُسنا الأعادي بالصيلم
فسائل بنا العرب والأعجمين … تخبرك ان كنت لم تعلم

وقوله (ص ١٣٠) ، ويقصد نفسه :

سليل ملوك من عرانين يعرب … بهاليلَ كسرى قد أذلّوا وقيصرا
هو المُنزل الأعداء من بعد عزهم … منازل لا يرضى بها الضبّ مَجْحَرا

وقوله (ص ١٧٦) :

ولقد أُسعر نيران الوغى … حين يخبو من لظاها ما ائتلق
•• في ألوف سبعة لو زاحمت … ركن «رضوى» انهدّ منه ما شهق
اذ ملوك العجم أكبا زندها … نبوة العزم وضنّ بالورق

وقد يبدر ها هنا سؤال آخر : أي أعاد يعني ؟ وأي أعاجم؟ أعاجم عصره أم أعاجم عصور خلت (بدليل ذكر كسرى وقيصر) ؟ فهل حجب العصر الجاهلي عنه حتى أعاجمَ عصره ، وما ارتكبته أيدي أعاجم عصره ؟ وهل هو ــ اذ ينعم بجو غربته الجاهلية وأحلام يقظته الجاهلية ــ لا يرى تاريخاً غير ما ترتد شطره أيامه ، وتنتشي به ذكرياته وأحلامه ؟!

وفي مجال الغزل ، يجذب انتباهنا في احدى قصائده ــ وبعض أبياتها يذكر بامرىء القيس ــ حوار يسوقه الشاعر أشبه بالحوار الذي يديره عمر بن أبي ربيعة في بعض قصصه الشعري ، ولكنه ــ هو الآخر ــ يجيء في معرض فخر لا يخرج في طبيعته وفحواه ، بل وأسلوبه اللفظي و« غريبه » المعهود عما ألفناه في سائر شعره • ولكن الغريب يقل في موضع الحوار •• أما غريبه (الحقيقي) فدونك مثالاً عليه (ص ١٩٩) :

وديمومة تحكي السماء قطعتها … بذعبلة موّارة الضّبع شملالِ
أمونٍ ذَقون عنتريس عرَندسٍ … عثوثجة غلباءَ وجناء مرقال
خِدَب الشوى جابٍ رباع مُلدَمٍ … دميم الصلا عالي الطريقة صلصال

وغزله حسي مادي لا يفارقه الغريب (ص ٢٢٠) :

غرّاء ناهدة الثديين بهكنة … عجزاء لا قصر فيها ولا طولُ
خريدة غضة الأطراف خرْعَبَة … لمياء واضحة الخدين عُطبول

ولكنه يرق شيئاً حين يريد له أن يرق (ص ٢٧٤) :

أبيت مسهّداً قلقاً حزيناً … أئنّ أسىً كما أنّ السليمُ
أشيم البارقَ المنحيّ وهنا … ومَن أهواه عن سهري نَؤوم
وان خفق النسيم أطار قلبي … وهيّج لوعتي ذاك النسيم
تقول ألا رثيتَ لطول ليلي … وهل يرثي لضائمه مَضيم ؟

وفيها يقول ويحسن :

يصيح الصبر بي فأروغ عنه … ويدعوني هواك فأستقيمُ
بكَيتُ صبابتي فاستجهلوني … وقد يُستجهل الرجل الحليم
اذا أنا لم ألمك وأنت حبي … على هذا الصدود ، فمن ألوم!؟

والشاعر ، كما أسلفنا ، جاهلي اللفظ ، جاهلي الصورة ، ملتزم حتى تعابير الجاهليين ، ولا سيما امرؤ القيس :

فقالت أبيت اللعن انك قاتلي فرفقاً فأعمامي شهود وأخوالي

وقد يقلد المتنبي والمعري وغيرهما .. فمن تقليده للمعري مثلاً (ص١٥٤) :

ألا في سبيل المجد ما أنا صانعُ نَفوعٌ وضرّارٌ ومُعطٍ ومانعُ
أعندي وقد أحرزت كل جميلة يُذعَّر جار أو يُذعَّر وادع ؟

والمعري يقول :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلُ عفاف واقدام وحزم ونائلُ
أعندي وقد أحرزت كل فضيلة يصدّق واشٍ أو يخيّب سائل

فالشاعر ، فوق حبه للشعر القديم ،وهيامه به ، ولا سيما الجاهلي منه ، يريد أن يضاهي هذا الشعر ، وأن يباريه ويزاحمه ، فخاض في أغراضه وصوره ومعانيه ، ولم يدع حتى لفظه وعبارته ،وهام بالغريب هياماً قد لا تجده أحياناً عند الجاهليين أنفسهم ..

ولا ينكر عليه مُنكر أنه كان يملك من الموهبة والقدرة على الاجادة والابداع ما كان خليقاً أن يضعه في طليعة الشعراء المبدعين ، ويبوّئه مكانة تتجاوز عصره وقطره ، لولا أنه اختار طريقاً واختار غيره طريقاً آخر .. فكان لكل منهم ما اختار ..

ولكلٍ مما اختاره نصيب !

★ ★ ★

ولا أنهي كلمتي هذه قبل أن أشير الى بعض الهنات اليسيرة في الكتاب ، لا على سبيل الحصر . ومعظمها كما يبدو من أغاليط الطباعة ، وأمر تصحيحها هيّن في طبعة قريبة ان شاء الله ، أكتفي بالاشارة اليها :

ص	س	
٢٩	١	ونلاحظ أن في هذه الأبيات **استنصار وتحريض** للامام
٣٦	١٨	**لا تنسى** ما قلت من فيها الى أذني
٥٦	١٧	**سطى** عليها اللصوص
٥٧	٢٥	ولكنه **راضيا** بما قدر له ٠٠ **معوداً** نفسه **على** تقوى الله (والمرجح سقوط « كان » قبل « راضياً »)
٦٥	١٥	كان أحمد ٠٠٠ **متواجداً** هناك (فالتواجد خاص بالصوفية)
٦٥	٩	**حيث أنه** ٠٠ (وتتكرر غير مرة في الكتاب)
٦٩	١٣	لم **يتوفر** منه شيء
٦٩	١٤	يعطينا **مؤشراً** الى وجود تنافس
٦٩	٢١	بحيث **أنها** لم **تبوء**
١١٥	٢٢	عيسى بن عمر الثقفي **المتوفي** سنة ١٤٩
١٢٢	١٢	من الآثار **الغير معروفة**
١٣٩	٧	**وغار** الشاعر على معاني السابقين ٠٠
١٤٠	١ ، ٢	ويمكن أن ينبثق عن هذه القصص **عملاً دراميأ** ٠٠٠
١٥٥	١٦ـ١٧	**لا بد وأن** تكون له بعض القصائد
١٦٧	١٥	في تلك الحقبة الزمنية **حيث** كانت تقرع الطبول ٠٠
١٧٤	٩	واستصحبني الصارم **الغَضْبا** (تصحيف من « العضبا »)
١٩١	الأخير	ولا شك أن لعلاقته بنور الدين السالمي **لها** الأثر الكبير في شخصيته ٠
٢٥٥	١١	اني **امرأ** لا أرتضي بعجلة
٢٨٦	٨	وظل بها **طيلة** حياته مدرساً
٢٩٢	٧	**علاوة على** ما ألمّ به من ضائقة
٣٣٤	١٣	وكان يحث أبناء عمان **الى** نبذ خلافاتهم
٣٤٠	١٥	يمتاز **عن** غيره من شعراء عمان

كلمة أخيرة ..

وبعد فان سعادتنا بهذا الكتاب لايعدلها الا سعادتنا بأن يعقبه المزيد من مثله في مادته وموضوعه وفي هذا الجهد الذي أخذ المؤلف به نفسه ليخرج لنا عملاً أدبياً وقومياً في آن معاً ، نحن في أمس الحاجة اليه والحرص عليه ، وبأن يُعد المؤلف لاستكمال بعض النواقص اليسيرة في تواريخ الولادات والوفيات وأمكنتها ، لعدد من شعراء الكتاب ، وفي شكل أسماء الأعلام ، وكتابة المقابل الهجري للعام الميلادي ، أو العكس ، والانتقاء من كل أغراض الشاعر وفنونه الشعرية وعدم الاقتصار على أغراض محدودة ، لتكتمل صورته لدى قارئه ، وذلك ليخرج الكتاب ملبياً لحاجة قرائه في سائر أقطار العروبة ، سواء في الطبعة الثانية القريبة ان شاء الله ، أو فيما سيتلو من أجزاء ؛ فنحن حريصون ، حرص المؤلف نفسه ، على هذا التراث العزيز أن يُرفع ركام السنين عنه ، وأن يخرج لنا خالصاً في صورته الزاهية التي خرج بها للناس في أيامه تلك ، لا تشوبه شائبة من نقص أو اجتزاء باليسير في نماذجه ومختاراته ، ولا انقطاع قد يشبه البتر في مادته كما وقع لموضوع الخليل الفراهيدي ، فتظل الصلة معقودة كأقوى ما تكون بينه وبين العصور التي سُطر فيها ، والأحداث التي واكبها وواكبته ، وأثّر فيها بقدر ما أثّرت هي فيه وأثْرته ! ويكون في ذلك أيضاً راحة للقارىء وتوفير لوقته يكفيانه مؤونة البحث والتنقيب عن ميلاد هذا الشاعر أو ذاك ، أو عن وفاته ، والجري وراء مراجع قد تكون يده صَفِرة منها ..

هذا ، مع تفهمنا التام لاعتذار المؤلف في مقدمته بأنه « لم يقصد من وضع الكتاب أن يكون خروجه وفق الاطار الأكاديمي ، وانما أريد منه أن يقدم المعلومة في ثوبها البسيط ونهجها الموصوف بالسهولة ، لتكون في متناول الجميع ». ثم يشفع ذلك بأن « الكتاب خطاب لكل الفئات وليس للخاصة منها فقط » .

وأقول ان هذا أدعى الى أن نمعن في تسهيل الطريق على القارىء فلا نكلفه من أمره عسراً ، ونوفر عليه الكثير من وقته .. وماله ! اذ نجنبه جهد التنقيب في المراجع ان وجدت ، أو السعي اليها ان أعوزه ادراكها ، وضاقت الجيب عن امتلاكها ..

ان للشعر العماني ، ولتراث عمان ،ولعمان المجاهدة وجبلها الأخضر الأشم ، من المنزلة في قلوبنا ، وفي قلب كل عربي، ما يجعلنا نتوق ونتعطش ، بل نحنّ الى كل ما يُحمل الينا من كنوز هذا التــراث خالصاً نقياً ٠٠ فهو تراثنا جميعاً ؛ ليس ملكاً لأحد ، وليس خاصاً بقطر دون قطر ، ولا بجيل دون جيل ، وانما هو ملــك الأمة كلها ، وملــك العصور والأجيــال جميعهــا ٠

من هذا المنطلق ــ قبل غــيره ــ كان تقديرنا للمؤلف الكريم وشكرنا لما تكلّف من جهد ، وقدّم لأمته من عمل ، وأولاها من صنيــع ، واطمئناننــا الى أن هــذا التراث في خير ، لن تنام عنه عين ما دامت القلوب عليه ساهرة ، ولــن تنطفىء له جذوة ما دامت القلوب بحبــه عامرة ٠٠ ومن هنا أيضاً كان شكرنا للمؤلف ، لأنه عرّفنا بشعراء عمانيين حديثــين ابتهجنا بالاطلاع على انتاجهــم الذي يؤلف مــع انتاج اخوانهم الشعراء ، في سائر أقطار العروبة ، باقة شعرية زاهية الألــوان ، بعضها معطر بأريج هذا الحاضر المتلون بكل لون ، وبعضها الآخــر يترسم آثــار القدماء بدافع من ولوعه بالتراث ، ولكن لا يعدم صلة له بالحــديث ، ان لم يكــن بلفظه وصورته ومعنــاه ، فبموضوعــه وشعوره وهواه ٠٠

والله الموفق ، ومنه العون والسداد ٠

★ ★ ★

الثقافة والتراث

في مهرجان الجنادرية التاسع *

عبداللطيف الأرناؤوط

الجنادرية قرية شعبية أنموذجية ، تبعد عن مدينة « الرياض » بما يقارب ٤٠ كم ، وعلى أرضها يتجدد اللقاء السنوي في أضخم تظاهرة لمهرجانات تراثية تشهدها المملكة العربية السعودية • وتستمر مدة أسبوعين تقريباً • والنشاط في مهرجان « الجنادرية » كبير ومتميز ••• فمن خلال عروضه تشعر أنك تقلّب صفحات التاريخ القديم ، لتقرأها مجدداً على الطبيعة وعبر الوجوه العاملة والمشاركة فيه •

الفنون الشعبية تضج بمعالمها المتوارثة •• واللقاءات الأدبية اليومية تشد المثقفين والمفكرين الوافدين من أنحاء العالم العربي • ويقوم الحرس الوطني بتنظيم أمور هذا المهرجان المتميز والاشراف على الفعاليات التراثية المتنوعة ، حتى غدا مناسبة وطنية للتراث والثقافة ، ووجهاً حضارياً منيراً ، تتجلى في خطوطه المرسومة ، وقسماته الموضوعة جهود الانسان العربي المعاصر •

ومهرجان الجنادرية يستلهم فقراته من تراث الأمة المجيد الضارب في أعماق التاريخ ، وتتلاقى فيه ابداعات الانسان العربي الماضية والحاضرة المعاصرة •

(*) ملخص المحاضرة التي ألقيت في المركز الثقافي العربي بدمشق - بتاريخ ١٢/٥/١٩٩٤ ، بدعوة من وزارة الثقافة السورية واتحاد الكتاب العرب •

وقد حددت اللجنة الثقافية للحرس الوطني المشرفة على المهرجان أهدافه على الوجه الآتي :

١ ــ التأكيد على القيم السامية والاجتماعية التي تمتد جذورها في أعماق التاريخ ، لتصوير البطولات القومية ، واسترجاع العادات والتقاليد الحميدة .

٢ ــ ايجاد صيغة للتلاحم بين الموروث الشعبي بجميع جوانبه والانجازات الحضارية المعاصرة في البلاد العربية . والعمل على ازالة الحواجز الوهمية بين الابداع الأدبي والفني والموروث الشعبي .

٣ ــ تشجيع اكتشاف التراث الشعبي وبلورته صوغاً وتوظيفاً في أعمال أدبية وفنية ناجحة .

٤ ــ الحثّ على الاهتمام بالتراث الشعبي ورعايته وصقله والتعهد بحفظه من الضياع وحمايته من الاهمال .

٥ ــ العمل على صقل قيم الموروث الشعبي ليكون حافزاً برموزه لاثارة المخيلة الابداعية ، وتيسير ايصاله الى المبدعين في مجالات الموسيقا والغناء والرقص والأدب .

٦ ــ تشجيع دراسة التراث للاستفادة من كنوزه الايجابية والانطلاق منه في ابداعات أصيلة ، تنطلق من الذات ، والبحث عن وسائل الاستغلال الأمثل لمصادر البيئة المختلفة .

٧ ــ رصد المتغيرات السريعة التي واكبت التقدم العلمي عالمياً ومحلياً وأثرها في الحياة الاجتماعية والثقافية للمنطقة العربية من خلال المعارض العامة والحرف المحلية التي توفر أسلوباً مميزاً للمقارنة الموضوعية .

٨ ــ التعريف بالموروث الشعبي بوساطة تمثيل الأدوار والاعتماد على المحسوس حتى تكون الصورة أوضح وأعمق ، واعطاء صورة حية عن الماضي بكل معانيه الثقافية والفنية .

٩ ـ تجديد التراث الثقافي والفكري الأصيل الممتد في أعماق المنطقة العربية ، من حيث وفرة عطائه وخصوبة منبته وعمقه الحضاري • فقد كانت هذه المنطقة زاخرة بالأدب والأدباء وروّاد الفكر والعلم وكانت مجالس الأجداد والآباء عامرة بالشعر والشعراء والعلماء في شتى المجالات •

١٠ـ تسليط الضوء على دور الفن التشكيلي للحفاظ على الثقافة الفنية في المجتمعات العربية •

١١ـ استعراض بعض جوانب التراث من خلال معارض الكتاب والدوريات والصناعات التقليدية ورسوم الأطفال •

* * *

اضافة الى هذه الأهداف ، ثمة نشاطات مختلفة ، وبرامج ثقافية ، ومحاضرات فكرية ، ولقاءات أدبية يومية ، وندوات شعبية ، وعروض فنية، وأمسيات متميزة يشارك فيها الأدباء العرب من مختلف البلدان •

وتأتي السهرات الممتعة التي تجسّد العلاقة الدافئة بين المثقفين العرب ، اذ يجتمعون كل ليلة على امتداد أيام المهرجان لاحياء الندوات القصصية والشعرية داخل « الخيمة » المعدّة في الفندق مقر اقامة الوفود العربية ، وكانوا جميعاً يحرصون على الحضور للمشاركة في ابداء الرأي والمناقشة، وتحرّي مناقشات أدبية راقية ، ومحاورات جادة حول مسيرة الشعر بين الأصالة والحداثة من خلال نماذج من نتاج الشعراء المعاصرين.

ويمكن القول إن مهرجان الجنادرية السنوي هو مظهر من مظاهر التطور الحضاري لتوثيق ملامح التقاليد ، والعادات المتحدرة من حياة مجتمع البداوة منذ آلاف السنين • ورمز من الرموز الشعبية يعبّر عن الموروث الثقافي الغني للمنطقة، ويشمل جميع أنماط التفكير والقيم والعادات التي تتوارثها الأجيال منذ أقدم الزمن ••

ومن الملاحظ أن الموروث الشعبي في المهرجان ، لم يقتصر على الحكايات والأساطير والأمثال والشعر ، بل يشمل أيضاً الأغاني والموسيقا والرقصات

الاحتفالية والأزياء الشعبية ، وأنماط العمارة البسيطة التي كانت سائدة في المجتمعات البدوية الصافية أو الريفية البعيدة عن حياة المدينة والتجمعات الحضرية التي شملها التطور ، وتبدلت معالمها بسبب تأثر المنطقة بمعطيات الحضارات الوافدة ، الا أن التراث الشعبي على الرغم من هذا التحول ما يزال يطبع انسان المنطقة سلوكاً ونمط تفكير وقيماً أصيلة ٠

★ ★ ★

كان مهرجان الجنادرية التاسع الذي أقيم في العام الحالي ١٩٩٤ متألقاً بعروضه وتنظيمه المذهل ، مما أثار دهشة الوفود المشاركة التي أعجبها إحياء الماضي الذي أعاد الى الأذهان ذكريات سوق عكاظ وأسواق العرب ٠ بالاضافة الى كونه ملتقى فكرياً وثقافياً لتقريب البعيد ، وفك طوق العزلة الفكرية التي يعاني منها الفكر العربي ، ومدرسة للحوار في شتى مجالات الأدب والثقافة ٠

وسأتجاوز في حديثي بعض الفعاليات الانتاجية والنشاطات الشعبية التي تواكب الابداع وتطور النهضة الثقافية لضيق الوقت ٠٠ ولن أتحدث عن الحِرَف الشعبية من صناعة القوارب ، أو صناعة الأواني الفخارية أو بناء بيوت الطين ٠

ولن أتحدث عن الجولات في المزارع الشعبية التي تشتمل على وسائل الزراعة والري والحصاد بالأساليب التقليدية القديمة ، وعن عروض « السواني » التي يتم بوساطتها استخراج الماء من الآبار بالاعتماد على الابل ٠

وبالاضافة الى معارض الحِرَف اليدوية والآثار والصور والفن التشكيلي ورسوم الأطفال ٠٠ ومعارض المقتنيات الأثرية ٠

ولو اتسع الوقت لفصَّلت في الكلام على الفرق الشعبية المشاركة والتي قدمت ألواناً من الفنون المتوارثة والرقصات البطولية ، والألعاب الشعبية التي تحتفظ بالحنين الى أصالتها العريقة ٠ وعروض المسرحيات الشائقة التي تعالج الأوضاع الاجتماعية السائدة ، وهي عروض نالت إعجاب الحضور ٠

وأكتفي بالاشارة الى روعة سباق «الهجن» السنوي الذي يبعث في المخيلة مشاهد الظعن في أدبنا ، ومواقف الرحيل والوداع في مطالع قصائد الشعر

التقليدي ، فتقف العين على قـوة سفن الصحراء وتحمّلهـا العطش والحـر ، وقدرتها على اجتيـاز مسافـة السبـاق القصير التي كانت بحـدود تسعة عشـر كيلو متراً • أو سباق التحمّل، ومسافته ستون كيلو متـراً ••• ومشاهـد سباق الخيول العربية الأصيلـة التي اشـترط أن تخضـع للفحص الطبي مثلما تخضـع لشروط لجنة التحكيـم لاثبات سلامتهـا وأصالتهـا •

سأتجاوز كل هذه الفعاليات والنشاطات ، وسأقتصر في الحديث عن النواحي الثقافية والفكرية والتراثية التي اتسمت بها المحاضرات •• والتي قدمها الباحثون المختصون والمثقفون المتميزون في أنحاء الوطـن العربي •

وقد قُدمت هـذه المحاضرات ومـا أعقبها من حوارات ومداخلات عليهـا في قاعة الملك فيصل الرئيسة •

* * *

● **الوطـن العـربي في خضم التحولات السياسية الجديدة :**

للدكتور : عثمان الروّاف

عرض المحاضر في محاضرته الوضع السياسي الدولي والعربي الراهن ، وهو وضع لم يزل يتسم بالتحولات السريعـة، وعـدم الاسـتقرار والتـوازن ، ولم تتضح معالمه الأساسية بشكل كامل •

وأكّد أن استقرار السياسة العربية يعتمد كثـيراً على اسـتقرار السياسـة العالمية • كما تعرّض في أثناء تناوله التحولات السياسية الجديدة التي يعيش في خضمهـا الوطن العـربي اليوم •••لتأثره بالمتغيرات السياسية الدولية التي أعقبت انتهاء الحرب الباردة ، وانهيـار النظام العالمي عقب التغيـيرات السياسية التي حدثت في الدول الشرقية ثم تناول خصائص المرحلة الانتقالية •• ومنها :

١ ـ ازدهار الليبرالية الغربية •

٢ ـ السيطرة الأمريكية المنفردة ، وظهـور بعض التحديات في وجه هذه السيطرة •

٣ ـ ظهور قوميات وكيانات جديدة •

٤ ـ المأزق الجديد الذي وقفت فيه الدول النامية والمتمثل في نقص الاعانة الدولية •

واستعرض المحاضر بعض النماذج المطروحة من المفكرين والباحثين الاستراتيجيين حول النموذج الذي سيحددظروف السياسة الدولية وتفاعلاتها ·

ومن هذه النماذج :

١ ــ الصدام الحضاري بين الغرب والشرق ·

٢ ــ نشوء الدول القومية والتكتلات الدولية ·

ثم تناول بالتفصيل أزمة الفكر العربي والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي يعاني منها المجتمع العربي ·وأوضح أن بعض مظاهر التحول الواقعي يعود الى الثمانينات ·· الا أن أزمةالخليج قد ساعدت الفكر العربي على الانطلاق ، وختم المحاضر الدكتور« عثمان الروّاف » محاضرته بالحديث عن التحولات السياسية الجديدة في الوطنالعربي ، والتصورات المستقبلية على الصعيدين العربي والدّولي ، فكان من بين الاحتمالات التي أوردها استغلال الفرص لمعالجة المشكلات الاقتصاديةوالاجتماعية في الوطن العربي ·· والتكيّف مع النظام الدولي الجديد ·

★ ★ ★

وعلّق الباحث ــ مؤلف ١٠٠ كتاب في التاريخ العربي والاسلامي والاستراتيجية العسكرية الأستاذ بسامالعسلي من سوريا ــ على المحاضرة ·· فقال : من المناسب التوقف عند نقطتينهامتين ··· هما :

١ ــ التحولات العربية واحتمالات تطورها ·

٢ ــ التكيّف مع السلام والنظام الدولي ·

ورأى أن أسباب تدهور الوضع فيالوطن العربي :

١ ــ التجزئة الاقليمية الناجمة من التقسيمات الاستعمارية السابقة ·

٢ ــ سياسة الاستقطاب في النصف الأخير منالقرن العشرين ·

وأضاف :

« ليست ثمة حاجة الى القول إنمشكلات الحدود بين بعض الدول العربية ليست لها حلول وأنها مستعصية ··ونحن العرب نحتاج الى استراتيجية واحدة ومنظمة ·· وذلك لتجاوز الخطط الاقليمية ، وحلّ المشكلات الاقتصادية التي يواجهها العرب في العصر الحديث ·»

● مسؤولية الاعـلام في تأكيد الهويـة الثقافية :

للدكتور : ساعد العرابي الحارثي

بدأ المحاضر حديثه عن الاعلام الذي هو مرآة الشعوب يعكس ضعفها وقوتها ، وما تُقدم من ثقافة في العصر الحاضـر ،ذلك أن قوة الأمة تقاس بقوة اعلامهـا ، وقدرة العاملين في مجاله ٠

والاعلام مسؤوليـة ووعي مـا دام يتجه الى تأكيد الهوية الثقافية للأمـة : ولأمتنا هويتها الثقافية المخصوصة التي يجب أن يرسّخها الاعلام ، ويعمل على تثبيت شخصيتهـا في مواجهـة الثقافـات والقيم الواحـدة التي تجتاحنـا بقـوة واندفاع تحت غمرة الانبهار بعلوم الغرب ومخترعاته ، وفي عصر الأقمار الصناعية والبث المباشر وكمبيوتر الاتصال ٠

وأشار المحاضر الى الصعوبات التي تواجـه وسائل الاعـلام في دول العـالم الثالث ٠ ومنها قوة وسائل الثقافات الوافدة وأدوات نشرها وتبليغها ٠ والتدفق المرعب للمعلومات ، والأفكار والاتجاهات المستوردة ، والتي تؤثـر في مستقبلنـا وقناعاتنا ومبادئنا ، وتتسلل الى نفوسنا فنتقبلها دون محاكمة واعية، وليس سوى اعلامنا العربي وتربيتنا ليتصديا لدفع انسياقنـا الى تقبـل كل جـديد عـلى علاته ٠٠ ومَن لا يملك قوته لا يملـك صوتـه ٠٠

فالمواجهة اليوم بين العالم النامي والعالم الثالث مواجهة اقتصادية وثقافيـة. ولعلّ المواجهة الثقافية أشد قوة ، وأبعد أثـراً في فكـرنـا وقيمنـا الروحيـة والاجتماعية ٠

* * *

○ وفي محاضرة الدكتور يوسف القرضاوي بعنوان :

« الفقه الاسلامي والمشكلات الانسانية المعاصـرة »

عرّف المحاضر الفقه الاسلامي بأنه علم يضبط سلوك الانسان أو الأمة وفق مبادىء العقيدة والشريعة الاسلاميـة ،ويستمد أحكامه من مصادره الأساسيـة وهي : القرآن الكريم والسنة والاجماع والقياس والاستحسان وغيرها من مصادر التشريـع ٠

وذهب المحاضر الى أن الفقه الاسلامي واكب الحضارات المختلفة ، فلم يضق بها ذرعاً ، وكأن له مع كل حادث حديث ،ومع كل مشكلة علاج ومع كل داء دواء ٠

فقد انتشر في العراق وبلاد فارس حيث كانت المدنية الفارسية سائدة ٠ وساد في بلاد الشام حيث كانت مدنية الدولة الرومانية والبيزنطية تعمُّ البلاد. ودخل مصر حيث كانت مدنية الفراعنة شاملة ٠ ونجح في مواجهة الأنظمة والتشريعات السالفة ، ورسم مبادىء لسلوك الانسان المسلم ٠ تُنير طريقه وترشده الى الحياة المثلى ، وفي غمرة الجدل حول صلاح المبادىء الفقهية لكل زمان ومكان أشار المحاضر الى أن فئة من الفقهاء أغلقت على نفسها الباب وابتعدت عن الحياة المعاصرة ، وجمدت الفقه عند حدود ما كان عليه أيام السلف . وأن فئة أخرى نادت بتجاوز المبادىء الفقهية والاقتباس من الحضارة المعاصرة والحديثة ٠٠ وهؤلاء أرادوا للفقه أن يسخر لتحقيق هذا الانفتاح بحجة أن مبادئه لا تصلح لمسايرة العصر ٠

وتعرض المحاضر الى كثير من الموضوعات الفقهية ٠٠ وكيفية معالجتها القضايا الحضارية والمشاكل المعاصرة التي تعصف بالأمة العربية ٠

* * *

○ **وتناول الدكتور « زاهر عوض الألمعي » في محاضرة عنوانها :**

مفهوم الشورى في الاسلام

تناول تعريف الشورى ٠٠ وأشار الى ما أورده القرآن الكريم حولها ٠٠ وأوضح أن الشورى تقوم على تبادل الرأي ، وتقليب وجهة النظر للوصول الى ما ينفع ٠٠

ولا بد أن يقوم الرأي على النصح والصدق وحسن التقدير والمسؤولية وذهب المحاضر الى أن الاجتهاد في الشورى يبحث عن أفضل الطرق لمعالجة أمر ما سواء كان المستشار فرداً أم جماعة ٠

وأكّد الباحث أن الشورى لاتكون في أمر مقطوع فيه بالحكم الثابت ٠٠ وانما تكون بالفهم الصحيح والقناعة التامة ٠

وعن ميادين الشورى في الاسلام ٠٠ أوضح المحاضر أهمية المبادىء في الاسلام. وميادينها ليست قاصرة على مهمات الدفاع في السلم والحرب ، وانما في البناء والاقتصاد ٠٠ حتى في أوضاع الأسر وبخاصة ما يتصل بالعلاقة الزوجية ٠٠

وأكد أنها تقوم على النصح والاقناع والطاعة في المعروف وقبول الحق على أساس من الايمان والسلوك في مختلف مناحي الحياة ٠

كما أورد أمثلة عديدة استمدها من حياتنا الاجتماعية والتاريخ العربي الاسلامي ٠

★ ★ ★

○ **وتأتي محاضرة الدكتور صالح بن حميد بعنوان :**

أدب الحوار في الاسلام

تعزيزاً لما سبقها من محاضرات بيّن فيها أن الهدف من الحوار اقامة الحجة ودفع الشبهة والفاسد من القول والرأي .

والحوار تعاون بين المتناظرين بغية الوصول الى الحقيقة ، والسير في طريق الاستدلال الصحيح ٠

ويصنف أصول الحوار في ثمانية أصول ٠٠ منها :

- سلوك الطرق العلمية والتزامها بتقديم الأدلة المرجحة أو الثابتة ، وصحة النقل في الأمور المنقولة ٠
- سلامة كلام المناظر وخلّوه من التناقض ٠

ومنها أيضاً :

ـ ألا يكون الدليل هو عين الدعوى، والا تشتمل على ما ينقضها :

ـ ثم الاتفاق على منطلقات ثابتة وقضايا مسلّمة ٠

ومنها :

ـ التجرد ٠٠ وقصد الحق والبعد عن التعصب والالتزام بآداب الحوار ٠

ـ أهلية المحاور من حيث الحكمة٠٠ ورجاحة العقل ٠ والأدب ٠٠٠

ـ ثم موضوعية المحاور وادراكه أن الرأي الفكري نسبي للدلالة على الصواب أو الخطأ ٠٠ ويكون الحوار مخفقاً اذا انتهى الى نزاع وقطيعة ومكايدة ٠

ـ فلا بد من الرضا والقبول بالنتائج التي يتوصل اليها المتحاور دون التزام ما يترتب عليه ٠

* * *

أما المحاضرات الأخرى فكان لها طابع أدبي ثقافي ٠٠ ومنها محاضرة بعنوان:

النقد الأدبي ودوره في تحقيق الهوية الابداعية

للناقد الدكتور : عبد القادر القط

الذي دلّل على أهمية النقد في النهضة الثقافية والأدبية والفكرية ٠٠ وعلى الارتباط الوثيق بين الابداع والنقد ، وما طرأ على فنون الأدب من تطور ومستجدات ٠٠ ودور الناقد من إقامة صلة واضحة بين النص وقارئه تراوح بين التذوق والتفسير وبين الحكم والتحليل ٠

ويرى الدكتور عبد القادر القط أن النقد ظل مرتبطاً بالابداع في النظرية والتطبيق بالرغم من المراحل الحضارية التي مر بها المجتمع الانساني ٠

ثم تعرض المحاضر للنقد الاغريقي وارتباط نشأته بالفلسفة وبالنظرة الشاملة للحياة والانسان والكون بمعزل عن دراسة النصوص نفسها ٠

وتعرض أيضاً للمذهب الرومانسي والواقعي والطبيعي فقال :

[منذ أوائل هذا القرن الميلادي ‥ واكبت المناهج المعروفة في النقد مناهج جديدة نابعة من نظريات في علوم اللغة وأساليبها ، وتحاول أن تربط النقد الأدبي بمناهج العلم وتستنبط قوانين تصلح للكشف عن طبيعة النص على اختلاف زمانه ونوعه ومذهبه ٠ وعلى تعدد ما كتب عن هذه الاتجاهات وفروعها المختلفة ٠

وبالرغم من بعض الدراسات التطبيقية المتميزة فيها ، فما زال الابداع يلتمس الصلة بينه وبين جمهور الأدب في مناهج النقد المألوفة التي تحيط بمقومات النص ، فلا تجد بأساً من تقويمه مع الافادة من المناهج العلمية الحديثة ، ومن الظواهر اللغوية والأسلوبية]٠

○ وألمح الباحث

الى ما جدّ على الشعر العربي من تطور باعد بينه وبين النصوص القديمة ،حتى أخذ النقاد يشغلون أنفسهم بالنظر الى تلك القضايا ، ويختلفون حولها كقضية القديم والجديد واللفظ والمعنى ، والصدق والكذب ، والأصالة والحداثة والسرقات الشعرية ٠

وتعرض المحاضر لنقد القصة والرواية والمسرحية وقصيدة النثر بين القبول والرفض ليصل الى ضرورة التفكير في نظرية نقد عربية ، يستقل بها الفكر العربي عن المؤثرات الغربية ٠

وأضاف : مهما يكن من طبيعة الخلاف بين المبدعين أنفسهم وبين النقاد ومناهجهم ، فسيبقى الخلاف مرتبطاً بالتكوين الاجتماعي والثقافي والسياسي للمجتمعات العربية ٠ وأخيراً ‥ دعا المحاضر الى أن يكون النقد نشاطاً فعالاً في ميدان النهضة العربية الأدبية والفكرية ، وعوناً للمبدع كي يصل الى أوسع مجال ممكن في المجتمع والى أكبر عدد من المتلقين ٠

* * *

○ **أما الدكتور « يحيى الساعاتي » فتناول جانباً هاماً من التراث هو :**

التـــراث المخطـــوط في العالم الاسلامي والعربي

فهو يرى أن التراث هـو المخزون الثقافي الـذي تكوّن عبر العصــور مــن الانتاجات المكتوبة والمنقولـة مشافهة ،وهو مرآة الماضي يعكس حضارة وثقافة الشعوب كما كانت عليه ٠

والتراث العربي المخطوط حافـل بمؤشرات حضاريـة غزيـرة ٠ تحملهـا نصوص المدونات الهامشية مثل : الوقفيات والاجـازات والتملكـات والمعلومـات الأخرى التي ترد عرضاً خارج إطار النص الأصلي ٠

ويذهب المحاضر الى أن التعامل مع التراث المخطوط يحتاج الى معالجة متعمقة ترصد الصور الدلالية للبنى الاجتماعية والثقافيـة والاقتصاديـة ٠ وحين تعالج المخطوطات وكتب التراجم أو مصادر التاريـخ يجب ألا تقتصـر معالجتهـا على استرجاع الأسماء والأنسـاب وتوزيـع الميـلاد والوفـاة وتحديد سني المعـارك والأحداث عند استخدامها في الكتابة عن التاريخ الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، بل يجب النظر الى المعلومات التي تحتوي عليها في نسيـج مترابـط متكافىء دون إغفال لما قد يرد فيهـا مـن دلالات قـدلا تتفق مع رؤية الدارس ٠

وقد يجد الباحث الـذي يسعى الى اعطاء تحديد دقيـق عن حجم التـراث العربي المخطوط في العالم الاسلامي صعوبة كبيرة تصل الى درجـة الاستحالـة ، وعليه فان من غـير المنطقي إعطـاء رقم بعينه يمكن أن تكون له مصداقية يؤخذ بها ذلك للأسباب التالية :

١ ــ عدم وجود جهة واحدة في العالم العربي الاسلامي يمكن الاعتماد على معلوماتهـا في احصاء هذه المخطوطات، فالمعلومات المقدمة في هذا المجال هي فردية يغلب عليها طابع الاجتهاد وعدم الدقة ٠

٢ ــ ان الفهارس التي نشرت عن المخطوطات المحفوظة في المكتبات الرسميـة أو الخاصة ، لا تقدم ما تملكه المخطوطات كلها من معلومات ٠

٣ ـ ان مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية الاسلامية لا تزال في حيازة أسر وأفراد ، وهناك خزائن خاصة تعاني من الاهمال وعدم العناية بها ، وقد حجب ما تحتويه عن الباحثين ، ولا تتوافر عن بعضها الا معلومات وصفية قليلة الفائدة ٠ في حين أن القسم الأكبر منها لا تتوافر عنه معلومات كاملة ٠

٤ ـ بالرغم من الاهتمام الكبير الذي تبديه دول العالم بالمخطوطات بوصفها تراثاً وطنياً للأمة ، لا يحق للأفراد التصرف فيها بالبيع أو الاهداء الى خارج الوطن ٠٠ الا أن التجارة بالمخطوطات العربية ما زالت قائمة الى اليوم ٠

ثم انتقل المحاضر الى رصد المخطوطات من خلال توزيعها في بلدان العالم الاسلامي ٠٠ كتركيا وايران ومصر وسورية والعراق والمغرب والجزائر وتونس واليمن والهند والباكستان وأفغانستان واسبانيا ودول البلقان وغيرها٠

وأسهب في الحديث عن المخطوطات في المملكة العربية السعودية التي تحظى باهتمام كبير من قبل المسؤولين ٠٠ إذ توفر لها الفنيون الذين يعملون بنشاط على فهرستها وتصنيفها ، والاستفادة من التجهيزات الفنية التي تساعد على حفظها واستخدامها كأجهزة التصوير الدقيقة ٠ أما عدد المخطوطات التراثية في المملكة فقد تجاوزت ٨٩٣٧ مخطوطة ٠ ويرى الدكتور يحيى الساعاتي ٠٠ أن دراسة المخطوطات التراثية ستكون عاملا أساسيا في كشف وضع الثقافة والفكر في الفترات التي تم نسخها أو تأليفها ٠

★ ★ ★